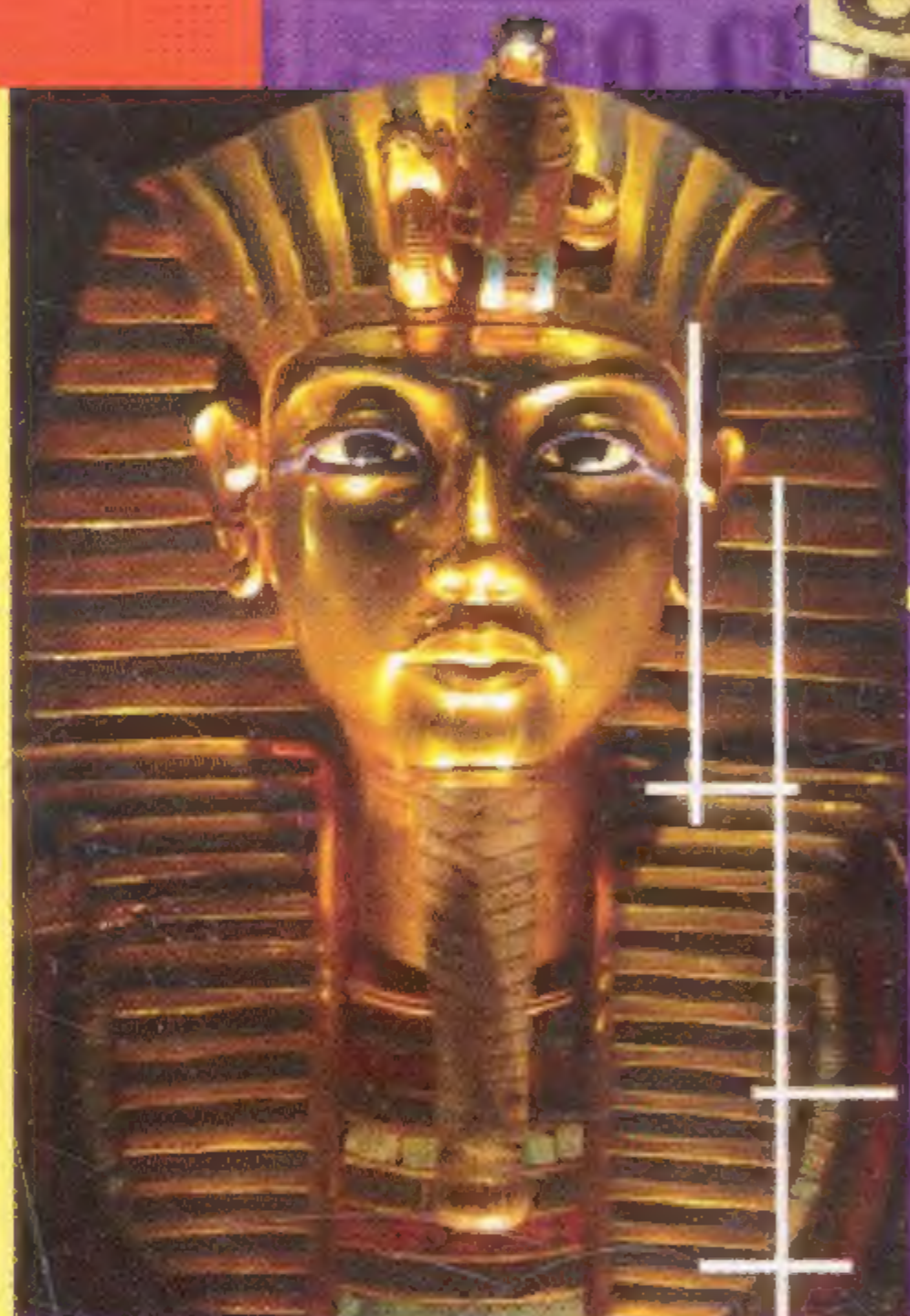
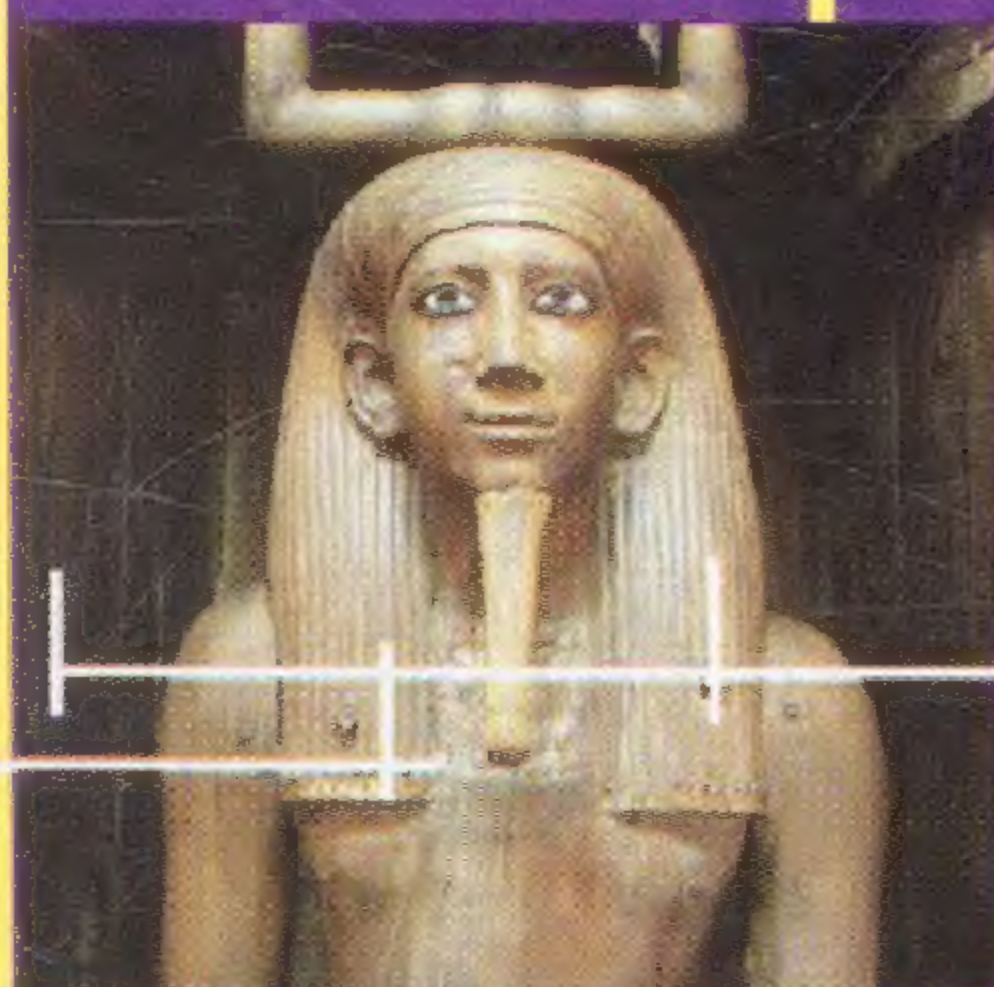
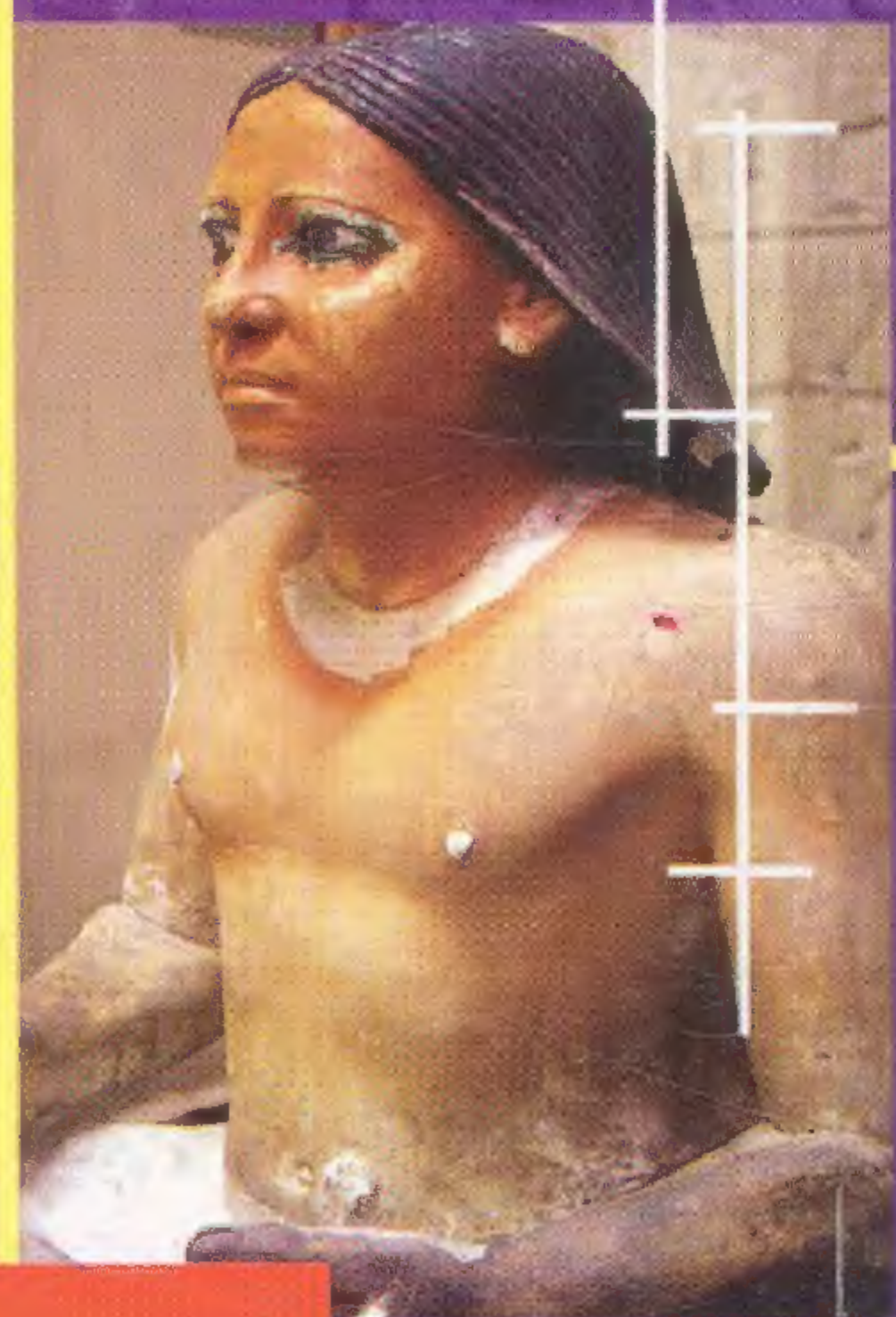


غرائب وعجائب

الفراعنة



بكر محمد إبراهيم



مركز الرؤية للنشر والإعلام

بكر محمد إبراهيم

غرائب وعجائب الفراعنة

مركز الرؤية للنشر والإعلام

اسم الكتاب
اسم المؤلفة
المراجعة اللغوية
رقم الايداع
الترقيم الدولى
المدير التنفيذى
سنة الطبع
حقوق الطبع

موسوعة غرائب وعجائب الفراعنة
بكر محمد ابراهيم
المؤلف
2004-5583
I.s.b.N 977-354-039-1
كريم أحمد فكرى
2007
محفوظة للنشر

جميع الحقوق محفوظة لمركز الراية للنشر والاعلام
ولايجوز نقل او نسخ اى جزء من الكتاب بأى وسيلة كانت...
الا بأذن كتابى من الناشر

مركز الراية للنشر والاعلام
أسسة احمد فكرى عام 1994
ص . ب 258 العتبة - الرمز البريدى 11511 - القاهرة
30 ميدان الحسين - مكتبة فكرى - القاهرة-جمهورية مصر العربية
تليفونوفاكس 0020227870906
البريد الالكترونى
alraya93@hotmail.com
alraya93@yahoo.com
المدير العام
محاسب / أحمد فكرى

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده رسول الله محمد
بن عبد الله وعلى آله وصحبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في حكمه.

وبعد ..

فهذا كتاب يتناول غرائب وعجائب الفراعنة مستعرضا التاريخ الفرعوني
كله من الأسرة الأولى حتى الأسرة الثلاثين مع التعرض للكثير من غرائبهم
وعجائبهم ويحوى معارف هامة جداً وغزيرة عن تاريخ هؤلاء الأجداد أصحاب
الحضارة القديمة والعلوم والمعارف التي كانوا يعلمونها وأخبار هذه الحضارة
وتوصلهم إلى كثير من الأسرار التي أهلتهم لإشادة هذه الحضارة التي مازلنا
حتى الآن نتعجب منها ولا ندرى الكثير من أسرارها وكيفية وصولهم إلى هذا
المبلغ من التقدم المادى والعلم الأدبى .

كما يتناول هذا الكتاب الموسوعى البيت الفرعوني وأسرار كتاب الموتى
وعقائد الفراعنة فى الموت والبعث والحساب، وتفاصيل هذه العقائد حيث
نستعرضها بصورة فيها الكثير من الإسهاب والبيان .

ويتناول الكتاب الشعب المصرى إبان العهود الفرعونية ويستعرض ملوك
مصر الفراعنة الذين شادوا الأهرام ونبذة عن الأهرام .

كما يتناول الكتاب استعراض تاريخ طويل فى نهب الآثار الفرعونية بشئ
من التفصيل والإسهاب وعظمة هذه الآثار وتأثيرها فى الشعوب وانبهار العالم
بها أشد الانبهار. ولنترك القارئ العزيز يتصفح الكتاب ليستمتع بما فيه من
غرائب وعجائب وأسرار مذهلة .

مع العلم بأن الدولة من عدة عقود قد شددت قبضتها على الآثار غير أن
الجرعة - جرعة سرقة الآثار مازلت مستمرة لأن الجريمة باقية إلى نهاية هذه
الدنيا .

غير أن الأمور قد أحكمت كثيراً عما مضى ، وصارت السرقة في نطاق
أضيق كما عرف كثير من المصريين قيمة الآثار وصار الحفاظ عليها أكثر من
ذى قبل حيث سبق أن دمرت كثير من الآثار بكم هائل ورهيب، كما أن الدولة
مشكورة ممثلة في وزارة الثقافة وهيئة الآثار والمجلس الأعلى للآثار تطالب
وبإلحاح باسترداد كثير من الآثار الفرعونية المنهوبة بطريقة ودية مع الدول التي
يوجد لديها هذه الآثار بطريق التهريب والسرقة .

أما الآثار التي تم إهداؤها إلى الملوك والأفراد فلا تتم المطالبة بها
باعتبارها وهبت من مصر بطريق قانونى مثل الآثار التي تم إهداؤها بعد أن
قامت اليونسكو، بنقل المعابد الفرعونية التي كانت ستعرض للفرق بسبب إنشاء
السد العالى .

فهذا الكتاب الموسوعى يستعرض كل هذه الموضوعات بطريقة شيقة
تضفى ألواناً من المعرفة والثقافة والإلمام بالتاريخ الفرعونى فالحاضر امتداد
للماضى .

والحمد لله أولاً وآخراً ...

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

غرائب وعجائب (١)

يقول بريان م. فاجان غادر جيوفانى بلزوني الديار المصرية فى وقت وصل فيه اهتمام أوروبا بالآثار المصرية إلى الذروة، فقد كانت موسوعة «وصف مصر» فى الطريق إلى الظهور .

وكان المثقفون والأثريون والموسرون الأوروبيون فى صندورها على أحر من الجمر، وفى مصر كان محمد على باشا يعامل الأوروبيين معاملة تتسم بالود، لذلك زاد نفوذ قنصلى بريطانيا وفرنسا عند الباشا .

وكانت النتيجة أن أصبحت رحلات السياح أكثر سهولة فازداد عددها، خصوصاً بين الأثرياء، ونشطت السياحة فى وادى النيل بعد أن كانت وقفا على عدد محدود من الدبلوماسيين والمغامرين.

أما المغامرون فقد بهرهم جميعاً المارد الايطالى بلزوني، فقد استطاع هذا المغامر الفذ أن يحقق فى ثلاث سنوات عجاف ما أذهل الجميع فى تلك المدة البسيطة استطاع أن يكتشف مقبرة سيتى ويستكشف أبى سنبل ويفتح الهرم الثانى - هرم خفرع- وينقل رأس أحد: تمثالى ممنون (ممنون الصغير فى النص) وكذلك مسلة فيلة، كما أمكنه أن يستحوذ على كمية لا بأس بها من الآثار الخفيفة لحساب القنصل البريطانى -سولت- وبعضها لنفسه.

توقف بلزوني فى روما أولاً، لكنه لم يمكث بها طويلاً ثم سافر إلى لندن. كان وصوله إلى لندن فى آخر مارس سنة ١٨٢٠، وعند وصوله أعلنت النبا جريدة لندن تايمز: «عاد الرحالة الشهير السيد بلزوني إلى أوروبا بعد غياب استمر عشر سنوات أمضى منها خمسة فى الكشف الأثرية بمصر والنوبة، ثم

(١) نهب آثار وادى النيل- بريان م. فاجان ت د / أحمد زهير أمين- مراجعة / محمد ماهر طه، م. الأسرة.

نوهت بأن «بلزوني بصدد إقامة معرض للقبر الجميل الذي اكتشفه ، وذلك حالما تتيسر صالة مناسبة للعرض».

استقبل بلزوني في لندن بحفاوة ونوهت الدورية ربيع السنوية المشهورة بمكتشفاته، ووجدها بلزوني فرصة مناسبة لإصدار كتاب يعرض فيه إنجازاته، واستقر الرأي على أن يعهد بالنشر إلى السيد جون موراي أكبر الناشرين الإنجليز في القرن التاسع عشر، وكان واحداً من المتخصصين في نشر أدب الرحلات في ذلك الوقت، كان تمثال معنون قد وصل إلى المتحف البريطاني واتخذ مكانه للعرض على الجمهور، لذلك كان بلزوني يتعجل إصدار الكتاب قبل أن يفتر الحماس، خصوصاً وأن الجمهور أصبح متشوقاً لمعرفة شيء عن مصر وأثارها، ولم تكد سنة ١٨٢٠ تنتهي حتى ظهر كتاب بلزوني في جزئين.

صدر الكتاب تحت عنوان طويل جداً هو : «حكايات عن الأعمال والاستكشافات الجديدة في الأهرام والمعابد والمقابر، والحفائر في مصر والنوبة، ورحلة إلى ساحل البحر الأحمر للبحث عن برنيس القديمة، ورحلة أخرى إلى جوبيتر آمون» وقد نجح الكتاب على الفور (أى وجد إقبالا من الجمهور).

ولكن أسلوبه لم يكن مشوقاً، كما أنه لم يسلم من الخطأ في التعبير، وربما أدرك بلزوني ذلك النقص فقال في الافتتاحية «سوف يريح الجمهور صدق الروايات، بما يعوضه عن النقص في الأسلوب» كانت بعض حكاياته مثيرة للجدل.

وكان في هجومه على منافسيه عنيفاً- خصوصاً القتل دورفيتي، لكن السرد العام للموضوعات كان لا غبار عليه، ولكن به مفوات قد يتقاضى عنها القارئ المتعاطف معه، المقدر لمجهوده وعمق تجربته، وكان يرافق الكتاب ملف يحتوى على اللوحات والصور- وكانت في ذلك الوقت باهظة التكاليف، والملف -حالياً- نادر الوجود، وعموماً فقد استقبل النقاد الكتاب بقبول حسن، وقد اطلع

الشاعر المعروف اللورد بيرون على الكتاب فقال «إن بلزوني رحالة عظيم، لكن إنجليزيتة غير سليمة» أما الدورية ربع السنوية «كوارترلى ريفيو» فقد أسهبت فى مناقشة الكتاب ، وكان تعليق المجلة فى ثلاثين صفحة كاملة واستخلصت أن «بلزوني وإن كان ليس معدوداً من العلماء، إلا أنه من الإنصاف أن نضعه فى مصاف الرواد وأكثرهم مهارة وفائدة فى حقل الكشف الأثرى، فقد فتح الطريق وسهل من مهمة من يرغب فى السفر».. وقد ترجم الكتاب فوراً إلى اللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية، ثم طبع بسرعة طبعة إنجليزية ثانية بأمر الناشر.

افتتح معرض بلزوني فى القاعة المصرية فى بيكاديللى فى أول مايو سنة ١٨٢١، ونجح المعرض بشكل فوري، إذ زاره يوم الافتتاح وحده ١٩٠٠ شخصاً، ومن أجل الدعاية للمعرض دعا بلزوني قبل الافتتاح مباشرة بعض الأطباء بأسلوب مسرحى- إلى شهود فك اللغائف عن مومياء مصرية لشاب فرعونى «كانت جيدة وأجزاؤها كلها سليمة».

سيطر على مكان العرض نموذجان بالحجم الطبيعى لأجمل غرفتين بمقبرة سيئى : قاعة الأعمدة، والغرفة التى تحوى التماثيل الخمسة البشرية، وكان بلزوني قد نسخ نماذج متقنة باستخدام الجص الباريسى (المشهور بجودته) مستخدماً الصور الشمعية التى استنسخها فى المقبرة، وكانت الألوان دقيقة بفضل دقة ملاحظة ريكي ، لذلك كان زائر المعرض يشعر كأنه فى قلب مقبرة ملكية فاخرة.

وكان بالقاعة ضمن المعارضات -أيضاً- عدة آلهة مصرية أهمها حورس وأنوبيس، مع مشاهد من العالم السفلى المهخيف- عالم الأموات، وكان ضمن العرض نموذج لأبى سنبل، وقطاع متقن لهرم خفرع، وتماثيل لسفنت ذات رأس الأسد، وأخيراً موميאות ويرديات أطلقت عليها التايمز «مجموعة التحف المتنوعة المكلمة».

وضع المعرض بلزوني على رأس الجوالين في عصره، وكان السبب الرئيسي في ذلك أنه عرض مكتشفاته في أوروبا بعيداً عن موطنها الأصلي بآلاف الأميال. وكان نجاح المعرض الساحق سبباً في جعل بلزوني يفكر في نقله للمعرض في باريس ثم في سان بطرسبرج في روسيا، واستمر معرض لندن حتى سنة ١٨٢٢، وبعد ذلك عرضت محتوياته للبيع بالكامل في المزاد ليشترها من يشاء من هواة الآثار، وكان الإقبال على المزاد كبيراً، ويذكر أن أحد المزايدين دفع ٤٩٠ جنيهاً ثمناً للصور المنسوخة ونماذج أخرى .

وحدثت مشادات بين بلزوني والمتحف البريطاني بخصوص التابوت الحجري المرمي العتيق، وكان حتى ذلك الوقت لم يصل بعد إلى لندن، ومما زاد الموضوع تعقيداً مواقف هنري سولت فقد عرض القنصل مقتنياته الأثرية الثمينة أثناء سنتي ١٨٢٠ ، ١٨٢١ على المتحف البريطاني، وكان يطمع في بيعها له.

وقد شجعه علي ذلك السير وليام هاملتون والسير جوزيف بانكس - وكان أحد أمناء المتحف في ذلك الوقت ولكن سولت لم يجد تجاوباً من المتحف، واشتعل غضب الأمناء من السعر الذي حددته سولت وهو ثمانية آلاف جنيه، ومن الواضح حتى للشخص العادي أن سولت كان يبغى تحقيق ربح مجز ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كان أمناء المتحف قد فرغوا لتوهم من تسديد ٢٥ ألفاً ثمن صفقة اشترؤا فيها مرمريات الجن التي جمعها من البارثينون، وكانت صفقة مدوية أغضبت بعض الدوائر، وهذا سبب إحجامهم عن صرف الأموال في شراء آثار أجنبية.

لما وصل التابوت أخيراً إلى لندن على ظهر الباخرة ديانا عاد الموضوع للظهور بقوة، فتحرك بلزوني دفاعاً عن حقوقه، فتوضح أن من حقه حسب اتفاقه مع سولت أن يحصل على نصف زيادة في سعر التابوت عن ثمنه الأساسي

وهو ألفى جنيه استرليني، لكن مجلس الأمناء قام بتعويم الموقف فلم يبت في الموضوع عدة شهور، اشتعل الغضب في نفس بلزوني وسولت وكان غضب سولت أشد لأنه كان في أمس الحاجة للمال لاستئناف جمع الآثار، فقد كان شغل سولت المشاغل الاستفادة من نشاطه الأثري في تغطية مصاريفه مع تحقيق فائض يمكنه من التقاعد في الوقت المناسب : «والا» كما كتب لوليام هاملتون، «سوف يدينني الناس بالتمسك بالوظيفة إلى الأبد، وهذا وضع بالطبع لا يرضيكم».

أمضى سولت باقى المدة التى أمضاها فى السلك السياسى فى جمع الآثار وبيعها بثمن مريع، مهملًا لواجبات وظيفته القنصلية، فى النهاية اضطر لبيع مجموعته الأثرية الأولى للمتحف البريطانى نظير ألفى جنيه استرليني، أما التابوت فقد رفض الأمناء شراؤه بكل إصرار متحججين ببعض الصعوبات القانونية ثم ارتفاع السعر المطلوب.

ولم تجد اعتراضات بلزوني وسولت فى صدد السعر، وتأكيدهما للأمناء أنه قد عرض عليهما سعر أكبر من القنصل الفرنسى دورفيتى وغيره، وأخيراً انتهى أمر التابوت إلى أن اشتراه المهندس المعمارى المشهور بلندن جون سونى، ودفع فيه ألفى جنيه استرليني، واستولى سولت على المبلغ كله لنفسه ولم يعط بلزوني منه شيئاً (منتهى الالتزام بالتعاقد).

عرض المهندس هذا التابوت فى قاعة أعدها له بمنزله، فتحها للعرض على الجمهور ثلاثة أيام متوالية، وزار القاعة «علية القوم وأصحاب المواهب بانجلترا»، وكان التابوت يتلألأ فى ضوء الشموع الخافتة التى وضعت بداخله، وحضرت سارة هذا المعرض واستقبلت «بكل ترحيب من الضيوف» لكنها كانت وحدها، لأنها كانت قد ترملت، فقد توفى بلزوني قبل مدة قليلة وهو يستهل آخر رحلاته وأكثرها طموحاً وقلبه ملىء بالمرارة.

أدى القلق الذى انتاب جيوفانى بلزوني إلى نقله حاسمة فى تطلعاته ومسيره، وكان تبرمه بالمتحف البريطانى وضيقه بحياة المدينة وحتى بالشهرة قد وصل إلى الحد الذى جعله يسعى للتغيير، وفى وقت ما خلال سنة ١٨٢١ سافر إلى غرب إفريقيا ليستكشف منابع نهر النيجر، كانت مشكلة نهر النيجر فى ذلك الوقت مازالت ساخنة ومبعثاً لإثارة الجدل بين مستكشفى القارة الإفريقية.

لذلك لم تكن بالنسبة لبلزوني مجرد رحلة عابرة لتزجية وقت الفراغ، فكثير من المستكشفين هناك سرقوا أو لقوا مصرعهم أثناء الاستكشاف، لذلك قررت الحكومة حظر الرحلات الفردية فكان على أى مستكشف وحيد أن يلتحق بإحدى القوافل عابرة الصحارى.

خطط بلزوني لعبور الصحراء من مراكش، لكن النزاعات السياسية حرمته من الحصول على التصريح اللازم فى آخر لحظة، لذلك حول وجهة سفره إلى غرب إفريقيا، وواتته الفرصة فى ركوب السفينة الحربية سنجر إلى ساحل الذهب، فوصل إليه فى ١٥ من أكتوبر سنة ١٨٢٢، وبعد شهر كان قد وصل إلى مصب نهر بنين، ومن هناك اصطحب تاجراً يسمى هوستن فى رحلة إلى بنين نفسها، فلما وصلاهما استقبلا بكل ترحيب، لكن بلزوني ما لبث أن فاجأته بوسنتريا حادة، لم تمهله سوى أسبوع واحد قضت على حياته، وهكذا مات رحالتنا الجريء.

دفن بلزوني تحت شجرة ضخمة ، ووضع على قبره شاهد خشبي سجل عليه تاريخ الوفاة وظروفها مع رجاء مذهب بالمحافظة على المكان نظيفاً ومسوراً، وفيما بعد زار المنطقة الرحالة المعروف السير ريتشارد وحاول العثور على القبر لكنه فشل، لكنه وجد الأهالى مازالوا يذكرون هذا الجوال المارد الذى مات بينهم، وهكذا مات الرجل.

وأسدل الستار على حياة رجل قد حقق بالخبرة والإقدام ما لم يحققه
سواه في فترة العشرين عاماً التي قضاهما في الاستكشاف، وانتهت بذلك حلقة
في الكشف عن آثار مصر بأسلوب مفاجع.

كان ما قام به بلزوني في مصر محل تقدير وتقريظ علماء الآثار، أما
قنصلا بريطانيا وفرنسا فإن علماء الآثار لم يستسيغوا قط جشعهما
واحتكارهما لحقوق الآثار المكتشفة، على أي حال استمر سولت يوالى جمع
الآثار لنفسه وكتب إلى أحد أصدقائه يقول إنه قضى معظم وقته في «السيطو
على المقابر ودراسة النقوش البارزة وحل الكتابة التصويرية (المونوجرامات) التي
أؤكد لك أنني بلغت فيها غاية الخبرة.

«ولم يفتر حقد سولت على بلزوني أبداً، فقد كان يشعر أن هذا الإيطالي
خطف منه الأضواء والشهرة، في حين أن ما اكتشفه لم يتم إلا بتمويل من
سولت نفسه، وزاد من أسفه فملاحظة المتحف البريطاني في التعامل معه، ولم
يتوقف شريط أحزانه، فقد ماتت زوجته بالحمى القرمزية في ريعان شبابها، ثم
أصابه ضعف عام في صحته، وعبر عن أحزانه ومرارته في رسالة أرسلها
لوكيله في لندن منها: «ليس لي سوى رغبة واحدة.. ألا يقرن إسمي باسمه
بلزوني أبداً».

في الفترة الأخيرة تعاقد سولت مع البريطاني «ينى أثناسيو» لجمع الآثار
لحسابه .

وكان ينى كما نعرف ممن عمل مع بلزوني، لكنه انقلب عليه وصار من
أكبر أعدائه، وفي هذه الفترة تمكن سولت من تكوين مجموعتين اثريتين أخريين،
وقد جمع أولى المجموعتين في الفترة من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤.

وهذه المجموعة اشتراها منه ملك فرنسا مقابل عشرة آلاف جنيه

استرليني بتزكية من الأثرى الضليع فرانسا شمبليون شخصيا، وكان سولت يرفع شمبليون فوق جميع علماء الآثار، أما المجموعة الثانية. وكانت أكبر حجماً من الأولى فقد بيعت بصالة سوبتي الشهيرة بلندن في المزاد العلني بعد ثمانية سنوات من موته، وقسمت المجموعة إلى أكثر من ١٠٨٣ من الأنصبة (لوط) حققت سبعة آلاف جنيه.

أى أن سولت خلال عمله القنصلى الذى استغرق أحد عشر عاماً، استغل فيها مركزه ونفوذه فى الإتجار بالآثار، قد حقق ربحاً صافياً يربو على عشرين ألفاً من الجنيهاً (الاسترلينية)، لكن سولت لم يعيش ليهنا بما حققه من مكاسب، فقد مات بمرض معوى فى أكتوبر سنة ١٨٢٧، وكان مازال قنصلاً لم يتقاعد بعد، فلا حقق ما كان يصبو إليه من معاش مريح، ولا نال تقدير الأوساط العلمية، رغم أن ذلك كان أملاً طوال عمله الدبلوماسى.

عاش دروفيتى حياة أطول من سول بعدة سنوات، وأعيد تعيينه قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٢١، واستمر فى العمل حتى اضطر للاستقالة لأسباب صحية سنة ١٨٢٩، فتكون فترة نشاطه سبعة وعشرين عاماً اتجر فيها بالآثار كيفما شاء، بعد ذلك كون لنفسه مجموعة آثار شخصية كان لها قيمتها، وحاول دروفيتى بيع المجموعة إلى الحكومة الفرنسية.

لكن الإخفاق كان نصيبه، والسبب فى ذلك أن الحكومة الفرنسية ظلت تماطله، وذلك مداراة للتعصب الكنسى الذى ثار فى وجهها، وكان رأى الكنيسة أن مجموعة دروفيتى إذا عرضت ستثبت للناس أن مصر كانت موجودة مزدهرة قبل سنة ٤٠٠ قبل الميلاد.

ولكن هذه السنة هى السنة التى بدأ فيها الخلق تبعا لحسابات كبير الأساقفة جيمس مستشار العقائد اللاهوتية، وأثناء التسويف والجدل العقيم

فوجئ الجميع بأن دروفيتى باع المجموعة إلى ملك سردينيا نظير ثلاثة عشر ألفا من الجنيهات.

وخلاف هذه المجموعة جمع دروفيتى مجموعتين أثريتين أخريين، وقد اشترى الأولى منها الملك شارل الخامس ملك فرنسا بمبلغ ربع مليون فرنك - وهى الآن زينة متحف اللوفر، أما الثانية فقد اشتراها الباحث الألماني ريتشارد لبسيوس لحساب متحف برلين.

انتهى المطاف بدروفيتى إلى إصابته بخلل فى قواه العقلية، فأدخل إلى مصحة للأمراض العقلية حيث مات سنة ١٨٥٢، ولم يعترف أحد قط بهذا الرجل رائدا ولا خبيرا فى الآثار المصرية، وكانت وسائله هو وأعوانه فى جمع الآثار والتنقيب عنها عنيفة ومخرية، وقد جعله أسلوبه الوصولى وجشعه فى التعامل مع العرب والأوروبيين من الشخصيات البغيضة، رغم ذلك كان ما نقله هو وغيره من الدبلوماسيين من آثار مصر إلى متاحف أوروبا من العوامل المؤثرة فى توجيه المنقبين الأوروبيين نحو مصر، والإهتمام بتاريخها القديم وآثارها الفريدة.

من عجائب القدر أن التنافس بين الثلاثى اللدود، دروفيتى وسولت وفيلزوني، فى جمع الآثار كان نتيجة التنافس على نبش قبور طيبة وانتهاكها وتخريبها، واستمر ذلك فترة طويلة، والأغرب أن كلا منهم أثرى المتاحف المنافسة لمتاحف وطنه الأصلى، فيلزونى الإيطالى صاحب الجناح بالمتحف البريطانى. ودروفيتى كانت مجموعته هى التى قام عليها متحف تورين الإيطالى.

ومقتنيات سولت كثير منها -حاليا- موجود بمتحف اللوفر، جميعهم جروا وراء الشهرة والربح وذئوع الصيت، وكلهم حقق ولو بعض ما كان يصبو إليه، فكلهم خرج رابحا بشكل أو بآخر، لكن الخاسر الوحيد كان علم المصريين.

تخريب الآثار

١- رغبة جارفة :

بلزوني هو الذي فتح الباب للسطو على آثار مصر، وسرعان ما تبعه الباقون، لقد بدأ مع منافسيه في الانتدفاع نحو حيازة الآثار، وسرعان ما تحولت هذه الرغبة إلى غارة شديدة الوطأة، وبعد عشرين سنة من رحيل بلزوني عن مصر زارها الآلاف من جامعي التحف والأثريين الهواة والجوالين الفضوليين، وبعض هؤلاء قنع بمجرد المشاهدة والمتعة، لكن غيرهم كان هدفه النهب والاستيلاء على الكنوز أو الربح، ومعظم الآثار المقتسبة تحمل إسم من نهبها، وقد عرفنا بعضها من المعروضات التي تحمل أسماءهم في شتى المتاحف العالمية، وعرفنا بعضها الآخر من كتالوجات صالات المزادات، أو من المجموعات الخاصة، وكثير من الشخصيات لها وزن في تجارة الآثار المسجلة في النشرة المتخصصة الرائدة الموسومة بدليل تجار الآثار ، وهي نشرة جامعة مانعة، لم تترك صالحاً ولا طالحاً من تجار الآثار إلا ذكرته.

في هذه الفترة كان من أشهر تجار الآثار رجل إنجليزي الجنسية يقطن الاسكندرية يسمى شارلز هاريس، هذا الرجل كان يتجر بالآثار من كل نوع خصوصاً البرديات، وقد ضمت مجموعة هاريس للمتحف البريطاني سنة ١٨٧٢ إلى بقية المجموعات الشبيهة، وقد استغرق جمع هذه المجموعات جميعاً مدة ثمانين عاماً منذ رحيل بلزوني عن مصر إلى نهاية القرن التاسع عشر.

في هذه الفترة بلغ تهريب الآثار المصرية مداها، من برديات أي مومياوات إلى جعلان وغيرها، لدرجة أنه هربت إلى أوروبا أحياناً معابد صغيرة كاملة، وكان وراء ذلك بالطبع أشخاصاً أرادوا تحقيق أرباح سريعة أو إشباع هواية ونزوات عملائهم، ولقد أصبحت هواية جمع الآثار وتجاريتها هوساً أشبه بالمرض

حينذاك حتى لقد وصفها عالم فرنسى بأنها «رغبة جارفة لا تختلف عن الحب الطموح إلا فى كونها أكثر خسة لتفاهة أهدافها».

وقد تفاقمت المشكلة فى ذلك الوقت لتقاعس حكومة محمد على فى إصدار التشريعات المنظمة للبحث عن الآثار وحيازتها، ولم يكن لدى حكام مصر الأتراك الإحساس الكافى بخطورة هذه المشكلة، وذلك لأنهم لم يعيروا ماضى مصر وتاريخها القديم أهمية تذكر، وكثيراً ما كانت الآثار فى ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسى، أما الأهالى فقد درجوا على استغلال الآثار أسوأ استغلال، وكانوا يستغلونها كمصدر للحجارة لبناء قراهم فوق مستوى الفيضان.

أما متاحف أوروبا فلم تتورع بدورها عن استغلال الموقف، وحثت التجار على شحن غرف وأفاريز ومقابر أثرية كاملة - أحياناً - للعرض فى صالاتها وكان للفيلسوف الفرنسى الشهير إرنست رينان رأى فى الموضوع عبر عنه بأنه: «أصبح متعهدوا بيع الآثار للمتاحف يتجولون فى البلد بشكل همجي، يلهثون وراء شطر من رأس أو كسرة من نقش، بل كثيراً ما حطموا الآثار القيمة ليحاولوا إلى كسرات».

هؤلاء الطماعون المخربون كانوا يعيشون فى مصر كأنها ملك خاص لهم، وكان أشد هؤلاء فتكا بالآثار المصرية السياح من الإنجليز والأمريكيين، (والمؤسف) أن هؤلاء الأغبياء سيذكرون من جيل إلى جيل لأنهم سجلوا أسماعهم على أشهر الآثار المصرية فأنلفوها وطمسوا نقوشها الجميلة.

وفى سنة ١٨٥٩، زار مصر فرنسى اسمه «فيفيان دى سان مارتين» فأصابته الحسرة : «لقد نزعوا من إلفتين معبدها الجميل، وتنازعت السماصرة، وأجمل شطرى بوابته استخدمها مصنع أرمنت لإنتاج السكر، وضاعت إلى الأبد المعابد الصغيرة فى إسنا والكاب، وتفيونية إدفو».

وكذلك مقبرة «ونفرع» بسقارة، ونصف سرداب ليكوبوايس «فى ذلك الوقت كانت الأبجدية الهيروغليفية قد حلت ملامحها، فأصبح بالإمكان قراءة النقوش الهيروغليفية، وأمكن للعقلاء تقدير مدى فداحة التخريب الذى حدث، لكن بعد فوات الأوان.

كان الموقف يقتضى تدخل الحكومة المصرية بإصدار التشريعات اللازمة للسيطرة على الموقف، لكن لم يحدث حتى بعد صدور موسوعة «وصف مصر» . من القضايا المدوية فى مجال نهب الآثار فضيحة مشهورة كان بطلها -أيضاً- فرنسى من محترفى جمع الآثار إسمه «سباستيان لويس سولينيه» ، قام هو ووكيله جين يابتيست ليلوريان بنزع النقش البارز المشهور الذى يمثل دائرة الأبراج السماوية بكامله من سقف معبد دندرة ، والنقش يصور القبة السماوية بأبراجها ويرجع تاريخه إلى أواخر العصر البطلمى. وربما بعده بقليل، وأهمية النقش تتلخص فى أنه تصوير «لمصر السماوية»، التى آمن المصريون القدماء أنها صورة طبق الأصل فى السماء لمصر الأرضية بما فيها من أقاليم وتفاصيل أخرى.

كان سولينيه وليلوريان قد قررا (هكذا) أن القبة المذكورة قد اكتشفها الجنرال بيزيه أثناء الحملة الفرنسية، ومن ثم «أصبحت على نحو ما أثراً قومياً (فرنسياً)»، ومن ثم يتعين نقلها من دندرة إلى باريس، لذلك حضر ليلوريان إلى الإسكندرية فى أكتوبر سنة ١٨٢٠ للعمل على شحن القبة (إلى باريس) بأى طريقة ، وإخفاء غرضه الحقيقى، أعلن أنه ينوى الحفر فى طيبة، ورغم حرصه عثر على جاسوس لسولت على المركب نفسه يقوم برصد تحركاته - زوجه سولت بنفسه- فقام ليلوريان بطرده.

كان بعض السياح الإنجليز يقومون بأخذ بعض الاستكشافات فى دندرة عندما كان ليلوريان يشاهد القبة للمرة الأولى ، ولتتمويه توجه ليلوريان إلى طيبة

(جنوب بندرة) واشترى بعض المومياوات والآثار الأخرى، ولما عاد ذلك الفرنسي (الماكر) إلى بندرة كان السياح قد غادروها، وأصبح الجو خالياً له ليبدأ في تنفيذ مخططاته.

كانت قبة البروج مركبة في سقف الغرفة الوسطى من الغرف الثلاثة الموجودة في مبنى صغير مجاور للمعبد الرائع الذي جلب لب عساكر نابليون، وكان تخليص القبة من السقف عملاً خطيراً، لأن القبة منقوشة على حجرين في منتهى الضخامة والسمك، إذ كان سمك كل منهما ثلاثة أقدام، بينما لم يكن معه من الأدوات سوى الأزاميل والمناشير.

لذلك لجأ ليلوريان إلى استخدام البارود لإحداث فتحات في سقف المعبد (أى المبنى الصغير) ومن حسن الحظ أنه كان ماهراً في استخدام البارود فتمت العملية دون أن ينهار السقف، بعد ذلك ثبتت المناشير في الأسافين الناتجة وعهد إلى عربان أشداء بموالة النشر في الجرانيت الصلب بلا انقطاع.

تم نزع القبة السماوية بعد ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك وضعت على قمة المنحدر القرابى بالمعبد، ووضعت تحتها اسطوانات خشبية تمهيدا لنقلها إلى المركب الراسية على بعد أربعة أميال، لكن الاسطوانات لم تتحمل ثقل الحمل فانكسرت، لذلك استعاض عنها بالروافع مع القوة البدنية لتحريك «البضاعة» حتى شط النيل.

وبعد مجهود ضخم تمكن العمال العرب من وضع البلاطتين الثمينتين في قلب المركب بأمان، لكن الماء كان يتسرب داخل المركب بشدة، وبسرعة عملت الجلفطة اللازمة (أى سد الخروم)، ولولاها لفشلت العملية والسبب في نجاح ذلك كله كانت حصافة ليلوريان وبعد نظره فقد كان سخيّاً مع عماله في الأجور، فكانوا لا يدخرون وسعاً في العمل للخروج من المأزق في سلام، رغبة في إنجاح نقل القبة.

لكن الرئيس رفض الإبحار والسبب أن سائحاً أمريكياً تصادف أن رأى ليلوريان يدرع القبة فأحضر سولت بما رآه، وعلى الفور قام سولت برشوة الرئيس. ولم يتأخر ليلوريان في المقابل من نفخ الرئيس «ألفى» قرش كبقشيش فأمر بالإبحار. وفي منتصف المسافة إلى القاهرة أوقفهما أوروبي من أعوان سولت وسلمهما أمراً من كبير وزراء الباشا (محمد على) يمنع ليلوريان من نقل القبة، فما كان من ليلوريان إلا أن رفع الرايات الفرنسية وبجراًة تحدى الإنجليز ومنعهم من مهاجمة سفينته

وبجحت خطته الجريئة، فابتعد الوكيل وهو يتمير غيظاً. واستشاهد سولت غضباً لأنه كان يريد أن يغتصب القبة لنفسه، كما أهدى مسلة من قبل لوليام مايكس. لذلك تعقب ليلوريان إلى الاسكندرية و ثم توسط لدى الباشا برعم أنه بدأ حفائر في دندرة قبل أن يسمع الفرنسي حتى بأن هناك مكان بهذا الاسم، ومن ثم فهو صاحب القبة، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح

في النهاية، وصلت القبة السماوية إلى بارس وكان استقبال وصولها حاشداً. وبيع سولونيه وليلوريان من ورائها ١٥٠ ألف فرنك دفعها فيها الملك لويس الثامن عشر والقبة -الآن- في اللوفر، أما زوار معبد دندرة فعليهم أن يقنعوا بمجرد صورة مسبوخة منها

هذه الخدعة التي كان يقوم بها أمثال ليلوريان وسولت ببساطة وتبجح كانت شيئاً طبيعياً مقبولاً بين الأثريين في ذلك الوقت حيث كان البعض مثل بولونيه ودروفيتي وأثناسيوس يتميرون بالفضول والطمع والنظرة القومية الضيقة، وكانت المشكلة تكمن في عدم فهم أى منهم لما يرونه أو ينقلوه لأن قراءة الهيروغليفية كانت في ذلك الوقت مستحيلة

في ذلك الوقت كان حجر رشيد الثلاثى البصوص (يونانى ديموطيقى

- هيروغليفي) أمل العلماء في حل مشكلة الهيروغليفية ، ونسخت من النصوص نسخ عديدة عكف على دراستها كثير من علماء اللغات القديمة في أوروبا.

وقد ترجم النص اليوناني بسهولة وبسرعة، وكان المأمول أن يؤدي ذلك إلى حل للمشكلة، لكن «العلامات التصويرية» ظلت مستقلة على أفهامهم، فظل الأمر معلقاً، والغريب أن الذي شاع عنها أنها تمثل أفكاراً لا أصواتاً، أما الديموطيقية فكانت أقل صعوبة، ولم يصعب على العلماء إدراك أنها حروف أبجدية مستمدة من اللغة المصرية القديمة.

كانت الخطوة التالية تتبع وتحديد أصل الخط الديموطيقي، وفي هذا المجال تصدى من الباحثين المبرزين سلفستردى ساسي (فرنسي مشهور في اللغات الشرقية) وجين دافيد أكريلاد السويدي للتعرف على الأبجدية الديموطيقية، لكن نتائج بحثهما لم تتطابق.

وأصاب الجميع الإحباط عندما ظهرت آراء توماس يونج، وهو شخصية متعددة المواهب إذ كان طبيباً باطنياً ومن علماء الفلسفة الطبيعية ومن علماء الرياضيات واللغات هذا الرجل «الموسوعة» أهدى إليه أحد أصدقائه بردية كانت السبب في تحول إهتمامه إلى اللغة المصرية القديمة، لذلك حصل على نخسة من نقوش حجر رشيد وشرع في المقارنة بين الخطين اليوناني والديموطيقي، واعتماداً على الحدس والإلهام توصل إلى أن الديموطيقية شكل انسيابي متشابه (متصل الحروف) من النقوش الهيروغليفية، ونص كلامه أنها «كتابة جارية» لأنه لاحظ قرب شبهها من الهيروغليفية بمقدار بعدها عن الكتابات الرمزية (المعروفة).

لكن الفضل الأكبر في حسم موضوع حل لغز النقش الهيروغليفي يعود إلى العالم الفرنسي الفذ جان فرانسوا شمبليون، ولد شمبليون في ٢٣ من ديسمبر سنة ١٧٩٠ في مدينة فيجيا الفرنسية، لأب غير ميسور الحال يعمل في

بيع الكتب، وفي سن الخامسة تعلم القراءة، وفي سن الحادية عشرة صحبه أبوه لزيارة العالم الرياضى جان بابتيست فورييه، وهو من علماء بعثة نابليون،

ويبدو أن فورييه أشعل حماس الفتى شمبليون وغذى رغبته فى حل ألغاز الهيروغليفية، وفى سن السابعة عشرة كان شمبليون قد أتم تعلم لغات شرقية منها العبرية والعربية والسنسكريتية والفارسية، وكان فى الوقت نفسه ملماً باللغات الإنجليزية والألمانية والإيطالية، وهذاه ذكاؤه إلى تعلم القبطية ليضيفها إلى هذه الذخيرة اللغوية المتميزة، وكان شمبليون يؤمن أن القبطية الامتداد الطبيعى للهيروغليفية فى صورتها الدارجة.

رحل شمبليون إلى باريس وتحمل شطف العيش ليدرس على يدى المستشرق «ساس» ثم أخذ فى دراسة نصوص حجر رشيد عدة أشهر لكن يبدو أنها استعصت عليه، على أى حال لم يبنس عالمنا من مواصلة البحث سبع سنين دأباً، ثم أصدر مجلدين ضمنهما أسماء بعض المواقع الجغرافية القديمة، وفى فورة من الحماس أعلن أنه قد سيطر على الديموطيقية ويستطيع قراءتها على حجر رشيد، والحقيقة أن حماس شمبليون واندفاعه كان مبنياً فى الواقع على أساس سليم فتقريره منذ البداية أن القبطية أقرب اللغات - حالياً - للهيروغليفية كان استنتاجاً فى محله تماماً.

فى سنة ١٨١٩ ظهر مقال طويل فى دائرة المعارف البريطانية بقلم توماس يونج عن مصر القديمة، احتوى على ملخص لمحاولاته فى قراءة الهيروغليفية، ورغم أن شمبليون فى حينها رفض التسليم بأن الهيروغليفية ما هى إلا أبجدية، إلا أنه بعد سنتين كان فى طريقه إلى الاهتداء لحل المشكلة ويبدو أن إسراره فى التوصل إلى حل كان بسبب أخذه أخيراً بوجهة نظر يونج.

فى سنة ١٨٢٢ اكتشف خرطوشة (ختم الملك) من أبى سنبل استطاع أن يميز فيها إسم فرعون مصر رمسيس، ولاحظ أن أسماء الفراعنة تكتب

منطوقة ، وبلغ به الانفعال- لهذا النجاح- حدا جعله يخرج مندفعاً من شقيقته الصغيرة باحثاً عن أخيه ليقول له منفعلاً «لقد وجدتُها» ، ثم يخر مغشياً عليه.

بعد ذلك تقدم ببحث عنوانه «الأبجدية الهيروغليفية المنطوقة» قدم إلى أكاديمية الآداب الفرنسية ونشر في ٢٧ من سبتمبر سنة ١٨٢٢ ، إعلاناً عن اكتشافه، وفي مبدأ الأمر قوبلت أفكاره بالرفض والاستهجان حسب رؤية كل باحث.

لكن البحوث المستقلة بعد ذلك أيدت وجهة نظره وأثبتت إن الباحث الشاب قد توصل لحل لغز الهيروغليفية بدون شك، وفي ظرف سنتين أتم شمبليون بحثه المعروف باسم «الوجيز في النظام الهيروغليفي» أثبت فيه أن الهيروغليفية في حقيقتها مزيج بين الكتابة الرمزية والحروف المنطوقة، أي أنها أبجدية رمزية هجائية معاً.

سرعان ما أصبح شمبليون من المشهورين ، ثم عين أميناً بمتحف اللوفر، وفي سنة ١٨٢٨ منحت له الفرصة لزيارة مصر، مكافأة له على جهوده، وكانت الرحلة ناجحة بكل المقاييس، سافر شمبليون إلى مصر على رأس مجموعة مكونة من أربعة عشر عضواً من الفنانين والمهندسين منهم تلميذه نيكولو روسيليني، وكانت الرحلة فوق نجاحها بمثابة تجربة مثيرة لهم فللمرة الأولى يزور المعابد الكبرى من يستطع أن يقرأ نقوشها، ويفهم ويدرك قيمتها الحقيقية، كذلك أثبتت بحثهم الميدانية أن نظريات شمبليون صحيحة وسهلة التطبيق عملياً، ومن ثم أصبح شمبليون، الباحث الفذ، أول رواد قراءة الهيروغليفية على آثار مصرية حقيقية.

واستأجرت البعثة سفينتين أقلت أفرادها إلى النوبة وتوغلت فيها، ونسخت ما استطاعت أن تنسخه من نقوش وصور في عدة مواقع فيها، وبعد الفراغ من مهمة النسخ ارتدت البعثة إلى طيبة، وفي طيبة نصبوا أسرته في قلب مقبرة

رمسيس السادس، واستراحوا بين الآثار ولم يرعوا لها حرمة، وفي ليلة نندرة بهروا بمعبدها الجميل وفاضت مشاعرهم تماماً كما فعل جنود حملة نابليون قبل سنة ١٧٩٩ عندما لم يتمالكوا أنفسهم فاصطفوا تلقائياً ليحيوه ويعظموه.

اندفع شامبليون وصحبه من السفينتين نحو الشاطئ في ليلة كانت مقمرة مضية، وهم في ثورة عارمة، وعبر شامبليون عما يجيش في صدره قائلاً : «لنا أن نعذر المصري إذ عدنا بالنسبة له إجلالاً» وفي مسيرة صاخبة واصلوا السير نحو المعبد حتى وصلوا إليه بعد ساعتين، وكان يغمره ضوء القمر، «وهي صورة أسكرتبا من شدة الإعجاب» كما كتب واحد منهم ، «وفي الطريق أخذنا نقنى تصبراً.

ولكن هنا أمام صحن المعبد المغمور بالنور - نور القمر- غمر قلوبنا سلام حقيقي، وأحسنا بسحر غامض نحن تحت هذا الصحن المعبد بأساطين ضخمة... وفي الخارج كان القمر ساكناً! ويا لها من مفارقة عجيبة، وعلى مدى ساعتين من ساعات العمر التي لا تعوض فحص أفراد البعثة المعبد وتجولوا فيه في جو مفعم بالحماس والانتفال.

استغرقت رحلة شامبليون سبعة عشر شهراً شهدت أروع إنجازاته، ولم يكن برنامجه يتضمن إجراء حفائر أو اكتشاف أية آثار، وكان هو نفسه معنياً أكثر بالمشاهدات والبحث، ومحاولة تصنيف الآثار حسب تسلسلها التاريخي، ونجح شامبليون بضرية واحدة في توسيع حدود التاريخ ألفى سنة أو تزيد فظهرت لنا أصول الحضارة المصرية القديمة في أزمنة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت.

كانت إمكانات البحث العلمي في الآثار هائلة آنذاك، لكن غطى عليها لدى شامبليون فداحة ما وقعت عليه عيناه من تخريب ودمار، ذلك رغم أنه هو نفسه

لم يسلم من الشبهات، فقد تقدم باقتراح لنقل إحدى المسلات من الأقصر إلى باريس في ذكرى حملة نابليون، وقد وافق محمد على باشا على طلبه رغم أنه سبق أن أهدى مسلات الأقصر إلى الإنجليز.

وبالفعل نقلت إحدى المسلتين الضخمتين من مكانها أمام معبد الأقصر إلى باريس سنة ١٨٣٠ بتكاليف باهظة، وتم نقل المسلة على ظهر السفينة درومادير وفي أكتوبر سنة ١٨٣٦ تم وضع المسلة في مكانها الحالي بميدان الكونكورد الشهير بباريس في حضور ملك فرنسا وسط جمع حاشد وصل إلى مائتي ألف مشاهد.

لكن شامبليون لم يتهاون في كتابة مذكرة رفعها إلى الحكومة المصرية يشجب فيها التخريب الواسع النطاق الذي كانت تتعرض له المواقع الأثرية، كما تناول في تقريره ما تسببه تجارة الآثار من سلبيات بهذا الصدد، وأشار في تقريره إلى أن أهم عوامل جذب السياح إلى مصر آثار وعجائب ماضيها، وأشار أن السياحة مصدر دخل للبلد يحقق على المدى البعيد ربما يفوق كثيراً ما ينتج عن تدمير الآثار ونهبها للتجارة فيها، وفي النهاية أوصى بأن تخضع أعمال التنقيب عن الآثار للسيطرة الحكومية، كما أوصى بمنع تفكيك حجارة المعبد والاستيلاء عليها، وأخيراً نصح بضرورة تنظيم تصدير الآثار تنظيمياً دقيقاً صارماً.

وقد كتب لنصائح شامبليون النجاح، واستجاب لها محمد على باشا، وصدر قانون نشر في ١٥ من أغسطس ١٨٣٥، وهو قانون يعد في زمنه طفرة حقيقية في هذا المجال، وقد أشار القانون في ديباجته إلى أن المتاحف وهواة الآثار أصابتهم حتى اقتنائها لدرجة يخشى معها أن تتسرب إلى الخارج آثار الحضارة المدنية الفرعونية وتسلب من مهدها الأصلي، فيحرم منها بينما تظهر في البلاد الأجنبية وتثرى متاحفها

ويحظر القانون قيام الأفراد بالبحث والتنقيب عن الآثار المصرية، ثم ينص على إنشاء دار للآثار تعرض فيها الآثار التي تملكها الدولة وما تكتشفه منها بمعرفتها، ونص القانون على تجريم تحطيم الآثار وتخریبها كما نص على ضرورة المحافظة عليها وصيانتها، على إثر ذلك عين محمد على باشا موظفاً مختصاً بالتفتيش على أهم المواقع الأثرية بالصعيد.

كان القانون نقلة هامة في الإتجاه الصحيح رغم أنه لم يكن ملزماً، ورغم بدايته المهزوزة لأن الوالى نفسه وخلفائه من بعده لم يلتزموا به، والحقيقة أن الحفائر الفردية لم تتوقف، لكن أصبح من حق الدولة مصادرة المكتشفات الأثرية، وأصبح تصدير الآثار أكثر صعوبة عن ذي قبل.

وكان لحل مشكلة الهيروغليفية أثر إيجابى فى هذا الصدد، إذ أدى فهمها إلى زيادة الوعي بأهمية الآثار كأحد مصادر المعلومات التاريخية، ومن ثم زاد الإهتمام بالمحافظة عليها، لكن شامبليون لم يحظ بمشاهدة ذلك كله ولم يعش ليسعد بنجاح جهوده فقد أصيب فى باريس بسكتة دماغية مات على إثرها فى ٤ من مارس سنة ١٨٣٢، وكان عاكفا على إعداد تقرير للنشر متضمنا أنباء رحلته فى مصر.

هناك واحد أقوى منى :

فتح شامبليون بجهوده - وحل مشكلة الهيروغليفية- الباب أمام الدراسات الأثرية والمصرية عموماً، ومنذ ذلك الوقت أخذ الإهتمام يتزايد للحصول على المدونات الأصلية، وأخذ الباحثون يهتمون بالتحليلات الدقيقة، لذلك أخذ دور التخریب والسطو على الماضى يتراجع منذ رحيل بلزوني .. وأصبح يفتد إلى مصر باحثون جادون وإن لم ينقطع ورود المتلصصين، من هؤلاء الدارسين الجادين نذكر «جون جاردنر ويلكتسون» أحد رواد علوم المصريات فى إنجلترا

فيما بعد، الذي زار مصر أول مرة سنة ١٨١٢، وأقام فيها اثني عشر عاماً
اهتم فيها بتسجيل الآثار ودراسة العربية والقبطية، وما لبث أن اهتم بدراسة
الهيروغليفية وتصحيح نتائج بحوث شامبليون، وأنهى زيارته الأولى سنة ١٨٢٢
بعد أن فرغ من أول مسح أسلوبى منظم لأهم المواقع الأثرية فى مصر والنوبة.

كان ويلكنسون يعمل منفرداً، وأفلح فى قراءة عشرات النصوص
والخراطيش الملكية بطريقة صحيحة لأول مرة، وهو الذى قام بأول محاولة
لتصحيح ترتيب الأسرات الملكية الفرعونية، كذلك قام بنسخ المناظر المقبرية فى
بنى حسن بوضوح ودقة ولم يكن شامبليون ونيكولو روسيليني قد زاراها بعد،
ومن إنجازاته اكتشاف الموقع الصحيح لقصر اللابيرانت المنيف بهوارة وكانت
له مذكرات أكثر تطوراً من بقية معاصريه، وكانت معظم ملاحظاته وتسجيلاته
دقيقة، ويعتبر ما قام به ويلكنسون شبه إعجاز، علماً بأنه لم يتلق أى دعم من
حكومته بعكس شامبليون الذى كانت تشجعه الحكومة الفرنسية وتدعمه.

رغم ذلك كله ظل ويلكنسون من رجال الظل ولم ينل ما يستحق من
التقدير، فالجانب الأكبر من بحوثه لم ينشر، ولم يقم أحد بكتابة سيرته رغم
تأثيره العميق على علوم المصريات فى القرن التاسع عشر، لكن الأوساط المثقفة
- بصفة عامة - كانت تعرف ويلكنسون عن طريق كتابه الذى يحمل عنوان
«طبائع وعادات المصريين القدماء»، الذى ظهر سنة ١٨٢٧ فى ثلاثة أجزاء .

والكتاب أول محاولة للبحث المستفيض عن حياة المصريين القدماء ، عالج
فيه المؤلف موضوعه بطريقة تشعر القارئ أنه يقرأ عن شعب من الشعوب الحية
المعاصرة، وحرص المؤلف على إلقاء الضوء على الديانة والثقافة والحياة اليومية
الجارية للشعب أكثر من حرصه على معالجة الأمور السياسية.

وهذا الكتاب أول كتاب منذ قرون يتجاوز فى موضوعاته ما كتبه هيرودوت
والأساطير الموروثة ويحاول بحث الإنسان المصرى القديم نفسه، لقد كان جاردنر

ويلكنسن فى الحقيقة أحد الأفذاذ من الباحثين، وكان له وزنه رغم عدم إبقاء البعض حقه، وكان ذا جلد على البحث والاستقصاء مع مزج البحث العميق بالكتابة المشرقة الجميلة التى تنقل ببساطة للجمهور العادى أكثر المواضيع جدية.

لكن ويلكنسن لم يكن فارس الميدان وحده، كان هناك مثلاً روبرت هاى أير اسكتلندى من هواة السياحة، زار مصر لأول مرة سنة ١٨٢٤ عقب مقابلة مع الفنان الشهير «فردريك كاتروود» وهو فنان تحققت له شهرة عظيمة بعد ذلك عن لوحاته التى صورها للمعابد المفقودة لحضارة المايا فى أمريكا الوسطى، وكان له موارده المستقلة وكان من عشاق مصر .

وظل الرجل لمدة تزيد على عشر سنوات (١٨٢٨-١٨٣٩) يقوم بتسجيل الأطلال الأثرية فى وادى النيل. وقد استعان فى عمله بعدد من الفنانين العظام منهم المصور الفذ «فردريك كاتروود» نفسه و«جوزيف بونومى» الذى صار من خبراء نسخ النقوش الهيروغليفية، و«أوين براونى كارتير» المهندس المعروف.

وكانت مهمته رسم المساقط التخطيطية للمواقع، وبدأت المجموعة نشاطها فى منف والجيزة ببطء. فتمكنت من جمع كم هائل من المعلومات لم ينشر معظمها فى أوراق هاى بمتحف برلين، والآن، تعتبر الصور والوصف المسجل بواسطة هذه المجموعة المصدر الأساسى عن آثار هذه المنطقة التى أصابها التخريب بشدة منذ زارها هاى.

قوبل ما كتبه شامبليون وتلميذه روسيليني عن مصر بحماس شديد، وشرعت حكومات أوروبا فى الإهتمام بجدية البحوث وتسجيل النقوش الهيروغليفية. ومما يذكر أن ملك بروسيا بدأ يولى مصر اهتمامه منذ سنة ١٨٤٢، متأثراً ببلاغة الرحالة العلمى المشهور «ألكسندر فون هامبولدت» واختار الملك عالماً شاباً فى الثلاثينات من عمره كان يعمل محاضراً فى جامعة برلين

يسمى كارل ريتشارد ليسيوس ليرأس بعثة كشفية إلى وادى النيل مدتها ثلاث سنوات، وافق هؤلاء العلماء البروسيين كلا من الفنان بونومي والمهندس المعمارى الإنجليزى «جيمس وايلد»، وقامت البعثة بعمل مسح شامل مستفيض للمواقع الأثرية الكبرى.

كان نجاح هذه البعثة باهراً حقاً، وذلك لأن التحضير لها كان جيداً، فقبل مغادرة أوروبا كان ليسيوس قد تفقد أشهر الجامعات الأثرية فى أوروبا، كما درس أجرومية شامبليون الهيروغليفية، وتعلم الطباعة الحجرية والحفر على النحاس، ورغم أن مهمته كانت أساسا البحث عن الآثار واقتنائها، إلا أنه تجاوز هذا الهدف فقام بإجراء حفائر فى مواقع اللابيرانت فى الفيوم ورسم تخطيطاً (قطاعاً) متقناً لطبقات الحفر بالموقع، وهذم فكرة جديدة لم يهتد إليها أحد قبله.

حمل ليسيوس وزملاؤه عند مغادرة مصر خمسة عشر ألف قطعة ما بين قوالب (نماذج تماثيل منسوخة) وآثار (أصلية)، كانت نواة المتحف المصرى فى برلين، وصدر عن البعثة مطبوعات فاخرة فى اثنى عشر ألبوما تضم ٨٩٤ لوحة- ربما كانت أعظم إنتاج من نوعه، ثم نشرت بعد ذلك خمسة مجلدات أخرى تحتوى نصوصاً وصفية، بعد وفاة ليسيوس سنة ١٨٨٤، ومجموع ذلك كله يمثل حصيلة جهود بعثة ليسيوس، وقد أصبحت منبعاً لا ينضب عن آثار مصر القديمة، لن تبلى جدته أبداً.

قبل أن يهل منتصف القرن التاسع عشر كانت معظم آثار الوجه القبلى قد رصدت ولو من باب الفضول، لكن الوجه البحرى والدلتا كانتا شبه مجهولة من الناحية الأثرية، لأن أحداً لم يحاول الحفر فى السهول العميقة فى تلك المناطق، وبالجمله لم يكن الحفر العلمى المنظم قد بدأ فى مصر كلها بعد، وكان الإنجاز الوحيد تقريباً هذه المخططات والمساقط التى عملها السيد «وليام هوارد فيز» للأهرام، وهو سيد مهذب من العسكريين يحمل فى قلبه إيماناً عميقاً بالكتاب

المقدس ومن الخبراء في البارود، وكان ينوى عمل تفجيرات لكشف مدخل هرم منكاورع، أما غالبية علماء المصريات فقد انصب إهتمامهم على النقوش الأثرية وعلى متابعة التسلسل التاريخي للأحداث، لأن معظم الجدل الأكاديمي انحصر في تحديد زمن بدء الحضارة المصرية، أو في تفسير النقوش الهيروغليفية.

استمرت سيطرة لصوص المقابر وتجارة الآثار على الحفائر الأثرية، وكانت أعمالهم واسعة النطاق ونتيجتها التخريب المأساوي للآثار الثمينة، وكان الوقوف في وجه هذه الظاهرة ميتا لا يكاد يسمع له صوت، لأن المتاحف الأوروبية والقنصليات الأجنبية كانت ضالعة في البحث المحموم عن الآثار الجديدة،

ولم يخل الأمر من أصوات عاقلة أخذت تتدد بهذا العمل، من هؤلاء السيد «جورج روبينز جليدون» أمريكي سبق له العمل كنائب للقنصل الأمريكي بالاسكندرية وبعدها ذاع صيته كمؤلف ومحاضر عن مصر القديمة حملته أسفاره بعيداً حتى سان لويس بأقصى الغرب.

في سنة ١٨٤٩ كتب جليدون نداء توجه به لأصحاب الوعي الأثري، وكان في صورة مذكرة غامضة إلى حد ما، لم يلتفت لها كثير من الناس عنوانها «التماس إلى الأثريين الأوروبيين حول تخريب آثار مصر» وقد حدث تجاهل شبه تام لهذا الالتماس.

كان نداء جليدون طويلاً رناناً سجل فيه التخريب الذي نال الآثار المصرية منذ حروب نابليون سواء على أيدي اللصوص أو الأثريين، لكنه خص بالتنويه دور محمد علي باشا وحكومته بهذا الخصوص، وأشار إلى أن معبد فيلة لم ينقذه من التدمير سوى دوامات الشلال الأول، وأبدى عميق أسفه على انتزاع سلالم مقياس النيل لبناء أحد القصور، ثم بين أن طيبة استمر تخريبها منذ بدء استشكافات ويلكنسون بها سنة ١٨٢٦، واستخدم البارود داخل معابد الكرنك،

وكانت أى رشوة مهما قل مقدارها كفيلا بحصول من يقدمها على أساطين تمثالية من بهو الأساطين، حتى باب مقبرة سیتی الخشبي الذي أعاده بلزوني بكفاءة إلى حالته الأصلية، استولى عليه الجنود الألبان بعد وفاة سولت، وبيع معبد دندرة استخدمت حجارتها فى بناء مصنع للسجاد سنة ١٨٣٥، ولم يوقف التخريب سوى احتجاجات القنصل الفرنسى، ويبدى جليدون أسفه قائلاً: «من العجيب أن الأساطين التى أقامها هادريان للعبادة تستخدم -الآن- فى مصنع لتكرير الروم!».

عندما ظهرت عجالة جليدون كانت بعض الأصوات قد علت وأصبح الرأى العام مؤيداً لاتخاذ إجراءات لحماية الآثار. فقد سبق أن احتج شمبليون سنة ١٨٢٩، واحتج القنصل الفرنسى «جين فرانسو ميمو» سنة ١٨٣٩ عندما نقل من مصر، وقد تحمس قبل ذلك بسنتين اللورد «الجيرنون بيرسى» للتعليق على حجم التدمير الواقع على آثار مصر، وفي الفترة بين سنتى ١٨٣٩-١٨٤٠ أعدت الحكومة البريطانية بياناً عن عمليات التدمير والتخريب رفعت له محمد على باشا، لكن روى تأجيل الرأى العام وإثارتها حتى يكون لدى الحكومة المصرية مهلة تتمكن فيها من معالجة الوضع.

هذا التقرير تم إعداده بعد الرجوع إلى تقرير مهم يدور حول الأنشطة الدبلوماسية والتجارية للقناصل، أعده «لورد» «بورينج»، ينتقد فيه بشدة تجار الآثار، وعندما درس التقرير سنة ١٨٤٢ استخرج منه الأجزاء الخاصة بأنشطة القناصل فى مجال الآثار - رغم أن الدبلوماسيين منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لم يكن عملهم يدع لهم فرصة للبحث الأثرى - وكان قانون الآثار الذى أصدره الباشا سنة ١٨٢٥ قد ظهر - على الورق على أقل تقدير.

يبدو أن نداءات جليدون المدوية كان تأثيرها ضئيلاً جداً على ضماير السياح وصائدى الكنوز، فكم ندد بمن نعتة «السيد الأنجلو هندى» الذى لا

يتورع عن استخدام المعاول والمناشير في قطع النقوش الفائرة من جدران مقبرة
المنحطب الثالث ليسهل حملها إلى سفينته، وعندما ينتهى الفنان من عمله يلقى
بالأصل فى النهر، ويفهم من السياق أن النقوش المنزوعة كان يمكن نسخها
داخل المعبد، لكن الكسل والاستهتار جعل الفنان ينزعها ثم يتخلص منها بعد
النسخ، فتكون الجريمة أفدح، وحتى عندما كان لبسيوس ومن معه من
مصورين موجودين بالصعيد، تسلل فنان فرنسى منحرف الأطوار من هواة
السياحة اسمه «أخيل كونسات تيودور إميل بريس دافن» إلى معبد الكرنك
واستولى على قائمة الملوك الموجودة بها- وهى مجموعة حجرية محفور عليها
صور الوجوه والخراميش لكثير من القراعنة، وللعلم لم يكن لدى دافن أى
تصريح يخول له هذا، وفى ذلك تحد صريح لقانون الآثار.

كان بريس يعمل فى الليل بهمة حتى أفلح فى تعبئة الأحجار فى ثمانية
عشر صندوقا قبل الإبلاغ عنه لحاكم إسنا، وقرر الحاكم فرض الحراسة على
خيمة بريس، وبعد شهر رشا بريس الحاكم نفسه فسهل له نقل الصناديق إلى
مركبه أثناء الليل، وفى رحلة العودة التقى بلييسوس الذى كان فى طريقه إلى
الكرنك، وقام بما يلزم من إكرام العالم الكبير الذى جلس على أحد صناديق
الحجارة الثمينة يتناول القهوة حتى القنصل الفرنسى نفسه تقاعس عن اتخاذ
أى إجراء ضد بريس، لأن الشحنة الثمينة استقرت فى النهاية فى اللوفر.

إلى حد ما لم يكن هناك لوم على أمناء المتاحف والأثريين إن كانوا قد
نظروا إلى صائدى الكنوز نظرة تنطوى على التسامح، فقد كانوا أينما قلبوا
وجوههم يشاهدون تفتيت وتدمير المعابد والأهرام للحصول على حجارة للبناء.

وكان التجار يلحون على السياح لشراء الآثار، لذلك أقنعوا أنفسهم أنه من
الأفضل ترك العلماء والتجار ينقلون ما استطاعوا نقله من الآثار القيمة التى
يجدونها إلى أوروبا، حيث تتوفر الحماية ضد النهب والضياع، وحيث أنه لم يكن

في مصر دار للآثار فإن هذا الإجراء يكون إجراء وقائيا فعالا، وربما كان هذا خير حل بعد هدم متحف القاهرة الذي كان بعديقة الأزيكية، لذلك كانت اللفتة على النسخ والتسجيل بالإضافة إلى التصوير لصيانة المكتشفات الأثرية ظاهرة متفشية بين العلماء والثققات في ذلك الوقت.

وقد طرحت أو أهرقت آلاف النقوش والبرديات أو تحطمت وتلفت أثناء الحفر المحموم للبحث عن الآثار الضخمة، وكانت الآثار الضخمة بغية متاحف أوروبا مع البرديات الجميلة والمخطوطات القيمة، لكن لا أحد من هؤلاء كان يولى أدنى إهتمام لتحسين وسائل استكشاف الآثار في مواقعها.

كانت المخطوطات التي أقرت شابا فرنسيا لزيارة مصر، وكان له إهتمام بالغ بالآثار المصرية، هذا الشاب هو أوجست مرييت من مواليد بولونيا بفرنسا، وكان مولده في ١١ من فبراير سنة ١٨٢١، وكانت طفولته عادية ولكن يبدو أنها كانت سعيدة، وفي سن الثامنة عشرة سافر إلى إنجلترا لتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة خاصة هي «سترا تفورد- ابن - أفون».

واستمر في التدريس سنة واحدة وهي على أي حال مقامرة قصيرة المدة، بعد ذلك عاد مرييت إلى بولونيا واشتغل مدرسا في كليتها المحلية التي تلقى فيها تعليمه من قبل، ثم اكتشف في نفسه موهبة الكتابة فبدأ يكتب مقالات في أوقات فراغه يعالج فيها شتى الموضوعات لتتشر في الصحف والمجلات.

وحتى سن الثامنة والعشرين لم يكن لمرييت صلة بمصر أو بعلوم المصريين، وفي سنة ١٨٤٢ توفي شخص يدعى نستور لوط الذي كان ضمن البعثة العلمية في حملة نابليون على مصر، وكانت وفاته أثناء رحلة صحراوية، هذا الرجل انتقل أبوه للإقامة في بولونيا، وقد ترك الابن وراءه بعد وفاته كماً ضخماً من الأبحاث والملاحظات كانت في أمس الحاجة للتنظيم والنشر.

وكان لوط هذا من رجال الجمر، ومن أقارب عائلة مرييت، فطلب من مرييت فحص هذه الأوراق وسرعان ما وجد مرييت نفسه مفتونا بذلك العالم الجديد الذى انفتح أمام ناظره، وأصبح مستغرقا تماما فى الإهتمام بالنقوش الهيروغليفية المعقدة ومحاولة قراءتها.

سرعان ما استغرقته هوايته الجديدة لدرجة أنه كتب مقالا عن الآثار القليلة الموجودة فى متحف بولونيا، ونظرا لقوة المقال تمكن من كسب تأييد مدينته ومساندتها فى مطالبة الجهات الرسمية بإرساله لبعثة كشفية فى مصر، فلما رفض طلبه استقال من وظيفته ونقض يديه من الارتباط بكتابة المقالات وسافر إلى باريس، وفى باريس تردد على اللوفر ودرس قائمة الملوك التى استقرت هناك بعد أن كانت فى الكرنك.

ثم إنه كتب مقالا مستفيضا يقع فى سبعين صفحة تحدث فيه عن نقوشها. ولفت المقال نظر عالم المصريات شارل لينورمان بكلية باريس فتوسط للشاب التشييط لدى إدارة اللوفر حتى أسندت إلى مرييت وظيفة صغيرة بالمتحف الشهير، وكان مرييت يقضى نهاره فى تبويب البرديات، ومساءه فى قراءة المصريات بنهم، أو فى التدريب على إتقان قراءة النصوص الهيروغليفية حتى أصبح فيها من المحترفين.

حانت فرصة مرييت الكبير سنة ١٨٥٠، فقد استمر تعاضيد لينورمان له، وتحولت تركية العالم الكبير إلى تكليف يتعين بموجبه على مرييت أن يحصل على مخطوطات قبطية من مصر، وسافر مرييت إلى الاسكندرية يملؤه الحماس، ثم اتصل ببطريق القبط فى القاهرة ، ليفاجأ بأن الرجل كان موغرا المصدر حقا على جامعى الوثائق الأجانب.

واتضح أنه منذ سنوات اتصل اثنان من الإنجليز ببعض القساوسة ونادموهم حتى سكروا. فلما غاب القساوسة عن الوعي هرب الإنجليزيان

بمكتبة كاملة من الوثائق ، لذلك كان يعارض بشدة تسرب مزيد من الوثائق من بين يدي الكنيسة.

أسقط في يدي مرييت لأنه أيقن بأن حصوله على مخطوطات قبطية في حكم المستحيل، لذلك فكر في توجيه نشاطه إلى مجال الكشف الأثرية، معتمدا على نص إضافي في أمر التكليف يخول له الحفر في المواقع الأثرية لجمع ما يثرى به المجموعة الموجودة في اللوفر، وفي آخر أكتوبر سنة ١٨٥٠ كان مرييت قد أعد للأمر عدته واتخذ لنفسه معسكرا وسط جبانة سقارة، لم يكن لدى مرييت تصريح بالحفر من الباشا، ولم يكن معه من المال إلا قليلا، وكانت السلطة المخولة له من المتحف محدودة للغاية

لكن كانت هناك إحدى رموس أبي الهول ظاهرة بين الرمال تشبه ما رآه منها من قبل في القاهرة والاسكندرية وهي من المنطقة نفسها. هذه الرأس اشعلت حماسه، فأخذ يفكر في أمرها وأمر نظائرها، وأسعفته سعة إطلاعه فاسترجع في خاطره ملحوظة قرأها في كتابات استرابو فحواها أن هناك سيرابيوم في منف، في مكان رملى فيه ممر على جانبيه تماثيل أبي الهول يؤدي إلى مقبرة عجول أبيس حيث كان يجري دفنها في الرمال، واستولت على مرييت روح المغامرة فقامر على كشف المقبرة، لذلك جمع ثلاثين عاملا عند رأس أبي الهول وأمرهم بالحفر بحثا عن المقبرة.

كان نجاح مرييت فوريا، وسرعان ما أخذت تماثيل أبي الهول تظهر الواحد تلو الآخر محددة للطريق، وظهرت مع الحفر آثار أخرى : مقابر وتماثيل جالسة، وتماثيل خصوية، ومعبدان لعبادة أبيس أحدهما يوناني والآخر مصري، وكان بالمعبد المصري أحد تماثيل أبيس الرائعة، في ذلك الوقت كانت ميزانية الحكومة الفرنسية على وشك النفاذ.

لكن القنصل الفرنسي أرنو لومين أعجب بنشاط ذلك الشاب المتحمس فأعانه بالمال ليستأنف نشاطه، وفي الوقت نفسه تقدم مرييت بطلب إلى رؤسائه ليمدوه بالمال، ويبدو أن مرييت كسب الرهان، فقد كانت المعونات المالية في طريقها للوصول إليه.

في غضون أسابيع قليلة من الأزمة المالية كان مرييت يحفر لكشف مخبأ يحتوى على تماثيل برونزية لأوزيريس وأبيس وآلهة مصرية أخرى تحت أرضية المعبد أوقدت الغيرة والحماس في قلوب المصريين والأجانب معا، واستثيرت مصر كلها، وركب الحسد تجار الآثار، وتدخل الخديو عباس بن محمد على لمصادرة الآثار، لكن القنصل الفرنسي أمكنه تلطيف الجو ونجح في السماح باستحواذ فرنسا على المكتشفات الأثرية في المستقبل، وقد أثار التصريح إنزعاجا كبيرا في فرنسا، لأن الحكومة الفرنسية كانت قد فرغت للتو من الموافقة على تخصيص ثلاثين ألف فرنك للاستكشافات الأثرية المقبلة.

لم ينزعج مرييت للشروط واستمر في حفائره بهدوء، وفي نوفمبر سنة ١٨٥١ وفق في الحصول على مقبرة عجول أبيس بعينها، وكان يسدها باب رائع منحوت من كتلة صخرية واحدة، وسرعان ما كان مرييت بنفسه داخل المقبرة فاندش إذ وجد كثيرا من توابيت العجول المقدسة الحجرية قد نزعت أغطيتها وتناثرت بفعل لصنوص المقابر، لكن الذي بقى أكثر مما نهب.

وحسب فرمان يذهب كل ما اكتشفه إلى الخديو فكل ما احتفظ به في متحفه أهداه لمن شاء من نوى النفوذ الأجانب لأغراض سياسية، واستقر رأى مرييت على اتباع خطة معينة، فقد وضع ما شاء أن يستولى عليه في صناديق أخفاها في قاع هوة عميقة في أرضيتها باب سرى يفتح على المقابر التي تحته، وبذلك ذهب ما ذهب إلى متحف اللوفر بينما كان مرييت يتلاعب بالمسؤولين المصريين ويطلعهم على المقابر المكتشفة فارغة.

أمضى مرييت عدة شهور يستكشف مدققا حتى أعمق السرايب وأبعدها. وكانت مكافأة كده وصبره عثوره على مومياء لأحد عجول أبيس سليما تماما. يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثانى، حتى آثار أقدام العمال الذين دفنوا العجل كانت واضحة على تراب المقبرة، وكان التابوت الذى فيه الجثة -أيضا- سليما، كما كان العجل نفسه محاطا بالذهب والمجوهرات بكثافة.

ابتهج الفرنسيون وانفعلوا عند مشاهدة مكتشفات السرايبوم معروضة فى متحف اللوفر، فكان ذلك من أسباب شهرة مرييت وذيوع اسمه فى أنحاء العالم، ومكافأة له على جهوده رقى إلى درجة أمين مساعد بمتحف اللوفر، وأسرع مرييت فى إصدار ألبوم به لوحات للسرايبوم تحت عنوان «المختار من آثار مصر» يمكن النظر إليه على أنه إرهابى لمجلد فخم غزير المادة عن هذه المكتشفات.

كان مرييت إنسانا قلعا يتميز بالحيوية ولا يحب حياة الاستقرار. كذلك كان معروفا بميله الاجتماعية، فلما أصبح معروفا بين علماء المصريين اتصل ببعضهم وأصبح من أعز أصدقاء عالم المصريين الألمانى إميل بروجش الخبير فى الخط الديموطيقى، فقد تصادف أن زار بروجش السرايبوم زيارة عابرة لكنها أدت إلى نشوة صداقة بين الرجلين استمرت العمر كله.

وكان الرجلان نوى ميل متشابهة وحيان حياة المتعة والتنعم، ورغم أن مرييت لم يكشف لنا النقاب عن حياته الشخصية، فإن بروجش قد كشف لنا جانبا منها، فتكلم عن بيت مرييت الفلاحى (مبنى بالطوب النيئ) وسط السرايبوم، وكان -بيتا- ممتلئا بالعمال والنساء والأطفال ... والقردة، وكان أثاثه «إسبرطيا» - أى رخيصا، وشكا بروجش أن «الخفافيش تطير فى مخدعى .. فأحكمت الناموسية تحت الفراش وفوضت أمرى لله- بينما كانت أبناء أوى والذئاب والضباع تعوى فى الخارج».

أدى نشاط مرييت وطموحه إلى لفت نظر المهندس الديپلوماسى الشهير «فردناند دى ليسيبس» صاحب مشروع قناة السويس، واستمع دى ليسيبس لأراء مرييت ومقترحاته بخصوص إنقاذ آثار مصر، فى ذلك الوقت كان الوالى الجديد سعيد باشا الذى شغل المنصب سنة ١٨٥٤ فى أعقاب اغتيال الوالى السابق عباس باشا الذى يعرفه مرييت،

وتكلم دى ليسيبس مع الوالى الجديد فى شأن مرييت (لكن يبدو أن الموضوع وقف عند هذا الحد)، ثم حدث أنه بعد ثلاث سنوات وجه سعيد باشا الدعوة عن طريق الحكومة الفرنسية إلى مرييت للحضور إلى مصر بمناسبة الإعداد لزيارة الأمير نابليون للأراضى المصرية، فلما حضر كلفوه بالتنقيب عن بعض التحف الأثرية الجميلة لإهدائها للزائر الملكى، ولم يتردد مرييت فى تنفيذ ما طلب منه، وكان يعمل هذه المرة مدعوماً بالمال، وتحت يده رفاص حكومى لتنقلاته، بدأ مرييت حفائره فى سقارة، وسرعان ما نقل نشاطه إلى طيبة وأبيدوس حيث وافاه صديقه بروجش ليشاركة فى العمل، وكانت نتائج الحفر سخية، لكن لسبب ما ألغيت زيارة الأمير، فانتهز دى ليسيبس الفرصة فاقترح على الباشا تعيين مرييت مفتشاً عاماً للآثار المصرية، كما طلب من الباشا تأسيس متحف جديد للآثار يكون مرييت -أيضاً- أميناً له، وقد كانت هذه الاقتراحات من قبل مثار اعتراض مستمر وشجب من جانب تجار الآثار والدبلوماسيين الغارقين لأذانهم فى تجارة الآثار بطرق ملتوية غير مشروعة.

رغم التوصيات كان وضع مرييت مهزوزاً، فقد كان أمر تمويل مشاريعه يخضع تماماً لإرادة الباشا وحسن نواياه، وكانت نواة دار الآثار تتكون من «مسجد صغير مهجور، وسقائف فقيرة، وبيت للسكن تملؤه الهوام» والآخر طبعاً مخصص لإقامة مرييت، لكن مرييت كان سعيداً جداً بذلك، وجمع حوله عائلته ومستشاريه وشعروا جميعاً للعمل والاستكشاف بكل همة ونشاط.

كانت العمالة رخيصة ومتوفرة، ولم تكن لديه صعوبة في استئجار قرية بأسرها إذا شاء، وكان الرجل يجرى الحفائر بأسلوب فج متهور لا يوافقه عليه أحد، لكنه مثمر، وكان يعمل تحت إمرته في وقت واحد مجموعات عمالية تحفر في سبعة وثلاثين موقعاً مختلفاً تغطي مصر كلها من الدلتا حتى الشلال الأول.

كانت مكتشفات مريبت غزيرة وعظيمة، لكن وفرة الإنتاج صاحبه إهمال جسيم واتباع أساليب متخلفة في الحفر، كان مريبت بطبيعته يسعى للحصول على آثار مظهرية تعجب المشاهد لمعرضه، ويقدرها الوالى، ومن مساوئ أسلوبه أنه لم يتورع عن استخدام الديناميت، ومن الناحية الفنية ضرب صفحاً عن تسجيل المكتشفات ولم يهتم بتدوين أى ملاحظات، كان كل همه الحصول على قطع أثرية، لقد كان اهتمامه بالأشياء أكثر من اهتمامه بالمضمون.

ومما يذكر أنه استولى على محتويات ثلثمائة مقبرة في منطقتي الجيزة وسقارة وحدهما وجردها من كل ما فيها، لكن يحسب له أنه هو الذى أجلى السكان وأخلى سطح معبد إدفو، فأظهر المقبرة العظيمة للعيان لأول مرة منذ قرون.

وفى طيبة نجح عماله فى تنظيف وإظهار معبد حتشبسوت بالدير البحرى، وفى هذه الأثناء حدث احتكاك، كاد يتطور إلى عراك، بينه وبين مركيس دوفرين وأفا الذى كان يقوم سرأ بالاستيلاء على كمية كبيرة من الشققات الأثرية المنقوشة من معبد منتوحتب فى المنطقة نفسها، كذلك استعاد مريبت معبد حتحور الكبير ومعبد آمون بالكرك وأكثر من خمسة عشر ألفاً من الآثار الخفيفة.

كانت صيانة الآثار فى ذلك الوقت شيئاً جديداً، وكانوا يفهمونها على أنها مجرد حظر تفكيك وتفتيت المنشآت الأثرية للحصول على حجارة للأغراض

الإنشائية الجارية، أو مصادرة الآثار المنهوبة لصالح الحكومة، وحاول مرييت تطوير مفهوم الصيانة وجعله يعنى السيطرة الحكومية عليها بالكامل وقصر حقوق الاكتشافات على مندوبية.

وهذا ما يعنى عملياً وضعها بالكامل تحت سيطرة مرييت الشخصية، لكن ذلك كان أبعد مما يتصور، فالوالى نفسه لم يكن يهتم من أمر مرييت شيئاً، كان استخدامه مجرد عمل سياسى من جانب الوالى استجابة لإلحاح دى ليسيس والأمير نابليون، والواقع أن الباشا كان بيده أن يقطع الاعتمادات المالية المخصصة للمتحف بدون إخطار سابق، ولم يكن يبالى بتجريد المتحف من أى قطعة أثرية يريد إهداها لأى زائر مقرب.

ووجد مرييت أنه ليس أمامه من حل سوى استئثار اهتمام الوالى شخصياً بالآثار، فلم يكن أمامه سوى مبالاة إغراق المتحف بآثار الجديدة المظهرية المبهرة.

وكان هذا السبب فى الجرى المسمور وراء مكتشفات أثرية جديد، نون مراعاة لما تقتضيه قواعد التخطيط المنظم للكشوف الأثرية، وهذا الإهمال المتعمد لاحظته وأشار إليه بعض علماء الآثار واعتبروه من سلبات الرجل.

فى سنة ١٨٥٩، وصل إلى علم مرييت فى القاهرة أن التابوت الحجرى المزخرف بالذهب والخاص بالملكة «إعح حتب» أم الفرعون أحمس قد وجد سليماً فى طيبة، وعلم أن حاكم طيبة استولى على التابوت ثم جرده من الزخارف وأرسلها كمجوهرات ثمينة إلى الباشا كهدية سياسية عالية المستوى.

هذا الخبر أفقد مرييت شعوره فركب رفاصاً حكومياً وتوجه فوراً للصعيد ومعه أمر رسمى يخول له إيقاف أى سفينة يشك فى أنها تحمل آثاراً، والتقت السفينتان فكان لا مناص من نشأة عراك عنيف، وحدث نزاع حاد بخصوص

الذهب استمر لأكثر من نصف ساعة، بعدها أمسك مرييت بين يديه نسخة الأمر الذى يخوله حق المصادرة، وأخذ يلوح به بضاوأة.

وكاد أحد الرجال يسقط فى النهر، ولوح آخر بالضرب فى المليون، ولكن الأمر انتهى بتسليم الذهب والجواهر إلى مرييت، وأسرع مرييت لمقابلة الباشا وأهداه جُعلا ثميناً وقلادة لإحدى زوجاته.

وبذلك حول المكسب السياسى إلى نفسه، وأظهر الباشا سرورا بالغا بالمكتشفات - ربما كان جزء منه شماتة فى حاكم، طيبة، وفى فورة سروره أصدر أوامر ببناء متحف جديد كى تعرض فيه آثار الملكة (أم أحسن)، ونفذ المشروع بسرعة وأصبح لدى مرييت متحفا أثريا جديداً سرعان ما حشده بالكنوز الفرعونية.

ونظراً لطول مقام مرييت عهدت إليه حكومته بالاتصال بسعيد باشا وإقناعه فرنسا بمناسبة توقيع أحد قروضه المالية، وكان مرييت بطبعه يكره المهام الدبلوماسية، لكن وساطته نجحت، وصحب الباشا فى رحلته إلى فرنسا، وهناك زارا مسقط رأس مرييت فى بولونيا حيث استقبل الباشا بحفاوة، ووصل اغتباط سعيد باشا بالزيارة درجة جعلته ينعم على مرييت برتبة الباكوية ويخصص له معاشاً ثابتاً. لكن هذه الصداقة التى توطدت أوامرهما انقطعت فجأة بموت سعيد باشا بعد ستة أشهر.

فى ذلك الوقت كان متحف بولاق قد تحول إلى معرض، لذلك زادت الأعباء على كاهل مرييت (بك) لاضطراره لمرافقة كبار الزوار فى جولاتهم وضرورة مداومة اتصاله بأقرانه فى أوروبا، ولطول مقامه توطدت علاقاته فى مصر مع موظفى الحكومى وتجار الآثار والأهالى جميعاً، وقد سهل ذلك كثيراً من سعيه للمحافظة على الآثار الثمينة التى جمعها.

وكان مرييت شغلة من النشاط لا يكف عن التواجد إما بمكتبه أو بأحد ميادين الحفر والاستكشاف، وكان يخرج للعمل كل يوم مع الفجر، وكان يقضى وقت راحته فى منزله حيث يتغذى مع زوجته اليانورا، وكانت هذه السيدة قد حولت البيت إلى مضييفة تعج - دائما - بالأصدقاء والزائرين،

هذه الزوجة الوفية قدر لها أن تموت بالطاعون سنة ١٨٦٥، فلم يصبح لمرييت سلوى إلا بمزيد من العمل، وانتشلت من همومه مهمة كلفه بها الخديوى إذ أرسله إلى باريس لمدة سنة ليشرّف بنفسه على إعداد الجناح المصرى فى معرض باريس الذى أقيم سنة ١٨٦٧.

انبهرت باريس بمعروضات مرييت التى أحيت أمام أعينهم الحياة المصرية القديمة، وكان مرييت قد عرض فيه بذكاء أجمل ما خف حمله وغلا ثمنه من مقتنيات متحف بولاق، وكانت تنصدر المعروضات مجوهرات الملكة إيج حتب، وأخذت المجوهرات بالباب الفرنسيين وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجينى.

وأرادت أوجينى أن تستولى على المجوهرات فخاطبت الخديوى مباشرة أن يهديها إياها بعد انتهاء المعرض، كانت اللحظة حرجة وحاسمة بالنسبة لمستقبل الآثار المصرية، لكن الخديو قال لها بحصافة «هناك - فى بولاق - واحد أقوى منى ، يجب عليك أن تقدمى طلبك إليه».

وكان مرييت رجلا لا تؤثر فيه الرشاوى ولا التهديدات لا يتهاون ولا يحيد عن موقفه مهما أغضب شخصية لها وزنها مثل الإمبراطورة القوية أو الخديو، لذلك (رفض الطلب) فعادت المجوهرات سليمة إلى مصر.

شغلت مسألة صيانة الآثار بال مرييت فى سنواته الأخيرة، وقد صرح بأنه «يجب علينا أن نصون آثار مصر ونعنى بها... وأن نعمل على تمكين العلماء حتى بعد خمسمائة سنة من دراسة الآثار ومشاهدة آثار مصر الموجودة فى

وقتنا الحال»، لقد كان استهتار السياح كالشوكة في جنب مرييت، ومن الأمثلة الصارخة على عبث بعض السياح ما يحكى عن سائح أمريكى أراد إثبات وجوده فى مصر سنة ١٨٧٠، فلم يجد وسيلة ترضيه سوى طوافه حاملاً «فرشاة» ودواة مملوءة بالقطران. ثم أخذ كلما مر على معبد لطفه بالإعلان عن زيارته المستهجنة.

كانت مشكلة التخريب لا تقل فداحة عن مشكلة الصيانة، ومما أشار إليه مرييت أن مقبرة «تى» بسقارة على سبيل المثال «لحقها من التخريب على أيدي السياح فى عشر سنوات أضعاف ما لحقها خلال الستة آلاف سنة الماضية».

وقد تعترينا الدهشة إذا عرفنا أن هدف مرييت من تكثيف حفائره كان العمل على إنقاذ آثار مصر لتراها الأجيال القادمة، ومما وصل إلينا من معلومات عرفنا أن مرييت قد استخدم خلال مدة عمله الوظيفى أكثر من ٢٧٨٠ عاملاً وهو عدد لا يتيسر لى فرد أن يحكم سيطرته عليه بمفرده، لكن مرييت بنى الورش فى إدفو وطيبة وأبيدوس ومنف، لاستقبال الآثار المكتشفة وترميمها، وهى فكرة جديدة لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى.

كان مرييت رجلاً متعدد المواهب ولم يقصر إهتمامه على الآثار، فقد شارك مشاركة فعالة فى حفلات افتتاح قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩، وفى ذلك اليوم افتتحت غريمته القديمة الإمبراطورة أوجينى هذا المجرى المائى على ظهر اليخت الإمبراطورى أيجل وأسعد مرييت أن يكون ضمن بعثة الشرف المرافقة لسموها.

وأراد الخديو أن يستغل مواهب مرييت فى مجال آخر فطرح عليه فكرة طريفة وكلفه بتنفيذها بنفسه، وكان طلب الخديو قيام مرييت بنفسه بكتابة نص أوبرالى (أوبرا عايدة) لكى يلحنها الملحن الايطالى الكبير فيردى احتفالاً بالمناسبة، وبالفعل كتب مرييت النص بمعاونة مواطن فرنسى اسمه دى لود.

فى أواخر حياته الوظيفية الحافلة أحاطت المأسى الشخصية والوظيفة بمرييت من كل جانب ، فحفاثره تعثرت لنقص الاعتمادات المالية بسبب ديون مصر الخارجية - التى أطاحت فى النهاية بالخديو نفسه، وخلفه غيره فى سنة ١٨٧٩، وقبل ذلك بسنة أغرق الفيضان متحف بولاق فضاع بسببه كثير من الآثار ومعظم كتبه ومذكراته القيمة عن السيراييوم، وفى الوقت الذى أخذ صيته يعلو على المستوى الدولى، ومع أن أكاديمية الفنون كرمته، إلا أنه فقد أبناءه الأعزاء الواحد تلو الآخر فأصبح وحيدا لا يجد للحياة معنى.

وصف أحد النبلاء الفرنسيين سنة ١٨٧٢ مرييت بأنه عندما رآه وجده «رجلا ضخما - طويلا عريضا- وكان مسنأ لكنه ليس عجوزاً .. متين البنيان كأحد تماثيله العملاقة .. وجهه محدد المعالم.. نظرتة حاملة تتسم بالكآبة .. لكنه اعتاد الجلوس على شط النيل يتحدث ويعبر عن حبه لمصر العجيبة ونيلها وصفاء سمائها».

بعد تولى الإنجليز والفرنسيين الإشراف المالى على مصر، أخذت الأمور تستقر، وانتظم صرف مرتب مرييت، لكن صحة الرجل أخذت فى التدهور بسبب البول السكرى ، وعاد من أوروبا إلى مصر رغم ضعفه، حيث مات فى سلام فى بيته المجاور للمتحف الذى أسسه وأحبه، وكانت وفاته فى يناير سنة ١٨٨١، قبل أن يظهر كتابه عن السيراييوم فى الأسواق، لكن الأحوال عموماً قد تبدلت.

فقد تأسست دار آثار جديدة مستديمة خوت كافة أشكال آثار مصر القديمة، وتغير الحال فأصبحت الحكومة مسيطرة على قطاع الآثار، وصار نهب آثار مصر وتهريبها عملية صعبة للغاية، والحقيقة أن مصر عرفت لمرييت قدره، وقدرت أفضاله وإخلاصه ، فدفتته بما يستحق من الاحترام عند باب متحفه البولاقى.

فى المتحف البريطانى و وضع فى الحفظ والصون :

تزامن موت أوجست مرييت مع تغير فى أوضاع مصر السياسية، سببها سلبية الخديو فى مواجهة المشاكل، ثم الثورة الشعبية التى قامت ضده فى القاهرة. واهتمت بريطانيا وفرنسا بالموضوع خوفا من تأثر الأوضاع بقناة السويس ولحماية الاستثمارات الصناعية الأجنبية فى مصر، وهددت الدولتان بالتدخل العسكرى وإرسال أساطيلها إلى الاسكندرية عند ظهور أى بوادر تدل على عدم استقرار الأوضاع، وهذه إشارة واضحة إلى الأتراك بأن الأمور فى مصر أخذت تتحول.

أدت ثورة الجيش فى سبتمبر سنة ١٨٨١ إلى تأليف حكومة شعبية لم تستمر فى الحكم سوى عام واحد، كانت هذه الحكومة يرأسها الخديو توفيق إسماء، والضابط الشاب أحمد عرابى فعلا، وطالبت بريطانيا باستقالة الحكومة بحجة تدهور الموقف الأمنى وقتل الأوروبيين فى شوارع الاسكندرية علنا، ولم تلبث بريطانيا أن أرسلت أسطولها فى البحر المتوسط وعليه قوة عسكرية إلى مصر، وفى وقت قصير تغلب الجيش الإنجليزى بقيادة الجنرال السير جارنيت ولسلى على مقاومة الجيش المصرى.

فى أثرها دخلت القوات البريطانية القاهرة وأقرت الأمن والنظام فيها، وانتقلت مقاليد الحكم الفعلية إلى أيدي القنصل البريطانى العام (السير إيفلين بارنج. لورد كرومر فيما بعد)، بينما ظل الخديو حاكما إسميا بلا سلطات تقريباً، واستمر إشرافه على شئون الحكم فى مصر عشرين عاماً، كانت كلمته فيها هى العليا، وسياساته معلاة من مدينة لندن.

وكان الرجل من خبراء الاقتصاد لذلك كان معظم نشاطه موجها لإصلاح اقتصاد مصر المثقل بالديون، وعت إصلاحاته كل المصالح الحكومية ومنها

بالطبع مصلحة الآثار. وسيطر على إدارة الدفاع، وأحوال الشرطة، والشئون الأجنبية، والمالية والأشغال العامة خبراء بريطانيون. لكن التعليم والآثار والفنون ظلت بأيدي الفرنسيين.

عندما اعتلت صحة مرييت إهتمامت الحكومة الفرنسية بالأمر إهتماماً بالغاً، لأنها كانت حريصة على دعم نفوذها في قطاع الآثار المصرية، من أجل ذلك اختارت أحد العلماء الشبان وإسمه ماسبيرو وأرسلته إلي مصر قبيل وفاة مرييت، وكان ماسبيرو ضليعاً في علوم المصريات وخبيراً في الهيروغليفية، وعلى معرفة وثيقة بمرييت منذ سنة ١٨٦٧ وهو طالب.

ولد ماسبيرو في باريس سنة ١٨٤٦، وكان أبوه مهاجراً إيطالياً من ميلانو، ومنذ الصغر شغف ماسبيرو بالمصريات فأصبحت مناط إهتمامه، لذلك اجتهد حتى أتقن الهيروغليفية في وقت قصير، ولم يتح لماسبيرو زيارة مصر إلا في سن الرابعة والثلاثين عندما أرسلته حكومته ليعيد نفسه لخلافة مرييت في إدارة متحف بولاق.

كان ماسبيرو من الأفاض الذين لا يشق لهم غبار في علوم المصريات حتى أنه فاق أستاذه مرييت نفسه في هذا المجال، هذا بالإضافة إلى صغر سنه وحيويته وذكائه المتوقد، ولم يدخر ماسبيرو جهداً في الإحاطة الشاملة بالمصريات فغطت جهوده كافة جوانبها من حفر وتنقيب إلى كتابة وقراءة الهيروغليفية، هذا بالإضافة إلى نشاطه في التأليف.

وكانت لماسبيرو مؤلفات رائجة في زمنه تناولت المصريات وغيرها من الموضوعات، وكان له جمهور غفير من القراء في أوروبا وأمريكا، وكان لكتاباته أثر في زيادة وعي الناس بالآثار المصرية فلأخذ يظهر إتجاه عام يتعامل مع مصر القديمة بروح تتسم بالإهتمام والمسئولية.

تحت إدارة ماسبيرو تم ترتيب وتنظيم المجموعة الأثرية الضخمة بالمتحف، وسهل اللورد كرومر لماسبيرو تأسيس مصلحة الآثار المصرية وتطويرها حتى أصبحت مؤسسة قوية تضم خمس مراكز تفتيشية لتنظيم ومراقبة الحفائر الأثرية في ربوع مصر، وألزم المنقبون الأجانب بإجراء حفائهم تحت رقابة مفتشى المصلحة، وهذا الإجراء وإن حد من الأعمال غير الشرعية، إلا أنه لم يوقفها تماماً، فقد استمرت عمليات التهريب لأن المتاحف وجامعى التحف ووكلائهم كانت لهم طرقهم الملتوية فى تنفيذ مخططاتهم.

كان لدى تجار الصعيد -دائماً- بضاعة حاضرة من الآثار. فلما نشطت السياحة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأخذت وفود السياح تتزايد، زاد الإقبال على شراء الآثار، فحلق أهل القرنة من وراء ذلك مكاسب ضخمة، وكان معين المعروض من الآثار والموميאות لا يكاد ينضب، ونخص بالذكر الأخوين أحمد ومحمد عبد الرسول، اللذين اعتادا على تهريب الآثار داخل لفائف من القماش أو فى سلال الخضروات.

هذان الأخوان كان بدء اشتغالهما بتجارة الآثار بطريق الصدفة البحتة، فقد ضلت للأخوين معزاه (من قطيع الماعز) فسعى وراءها أحمد لبيحث عنها، وأثناء بحثه عثر بالصدفة على مخبأ به موميאות وأثاث جنائزى فى قاع صخرى عميق.

ومنذ ذلك الوقت أخذ الإخوان فى سلب الكنز الموجود تدريجياً وبمقادير محدودة، واستمرا على هذا الحال عشر سنين متوالية، وقد هداهما ذكاؤهما القطرى إلى هذا الأسلوب خشية أن يؤدى إغراق السوق بالآثار إلى هبوط حاد فى أسعار بيعها.

وكان السياح الإنجليز والأمريكيون على وجه الخصوص يتهافتون على الآثار الصغيرة الثمينة، خصوصاً ما كان يحمل منها شعارات ملكية.

ونما إلى علم ماسبيرو نبأ هذه التجارة المربية، فأدرك على الفور أنها تعتمد على اكتشاف سرى كبير فى وادى الملوك، وقد بنى ماسبيرو شكوكه على أساس أن بعض القطع المتداولة منها كانت فريدة فى نوعها، ليس هذا فقط وإنما كان بعضها يحمل الشعارات الملكية، كما أن بعض المومياوات المعروضة للبيع كانت مومياوات فراعنة حقيقيين.

تصرف ماسبيرو يحذر لأن تفتيش آثار الأقصر لم تكن أموره قد انتظمت بعد، لذلك سارع بإرسال بوقية إلى شرطة الأقصر طالبا تشديد الرقابة على تجار الآثار من أهاليها، ثم أرسل مبعوثا خاصا إلى هناك متظاهرا بأنه سائح ثرى مستعد للصرف ببذخ، ويأمر المبعوث بشراء بعض القطع الأثرية المختارة لكسب ثقة التجار، وكانت النتيجة أن التجار بدأوا ينظرون إليه باعتباره (عميل فوق العادة) وأصبحوا يعرضون عليه أنفس ما لديهم، وفى إحدى المرات عرض عليه تمثال جنازى صغير من عهد الأسرة الحادية والعشرين.

أيقن المندوب أنه لابد قد سرق من مقبرة ملكية، واشترى الرجل التمثال بعد مساومة عنيدة، أمكنه خلالها أن يتعرف على أحمد عبد الرسول، واتجهت شبهاة المبعوث وشرطة المدينة إلى عائلة عبد الرسول .

وتأكد أن العائلة كانت تؤثر شخصاً تركياً بعينه على غيره من العلماء ، هذا العميل اسمه مصطفى أغا آيات يعمل وكيلا لقنصليات بلجيكا وفرنسا وروسيا، فكان يتجر فى الآثار ويقتنيها مستظلا بالحصانة الدبلوماسية.

طبقا للقانون كان أغا آيات فوق المساطة القانونية لكن الأخوين عبد الرسول كانا تحت طائلة القانون لذلك اعتقلتهما الشرطة فى ابريل سنة ١٨٨١ وأرسلا فى أصفادهما إلى محافظ قنا لاستجوابهما، ودافع الأخوان بفصاحة عن نفسيهما ونفيا التهمة، واعتمدا فى دفاعهما على أنه لم يعثر على أى آثار فى بيتهما (هما طبعاً ليسا من السذاجة ليحتفظا بدليل الإدانة) بالإضافة إلى ذلك

حشداً جمعاً من الأهالى شهدوا لهما بنظافة اليد والبعد عن الشبهات، ولم يجد معهما الترهيب ولا الترغيب، لذلك أطلق المحافظ داود باشا سراحهما لعدم كفاية الأدلة.

وهناك شك كبير فى أن داود باشا نفسه كان على صلة بهما، وعاد الرجلان منتصرين سعيدين كل منهما إلى داره، وبدأت الأحوال بعض الوقت، ثم نشب نزاع عائلى حاد داخل أسرة عبد الرسول نفسها بسبب قسمة غنائم المخبأ الأثرى حيث طالب أحمد بنصيب أكبر لتعرضه للتعذيب والاعتقال.

وانتشرت أنباء هذا النزاع بسرعة فى طيبة، فانتهزت مصلحة الآثار الفرصة وفتحت باب التحقيق فى الموضوع مرة أخرى، وبعد تضيق الخناق عليه لم يجد محمد مفراً من الاعتراف التفصيلى بكل شيء حتى ينجو بنفسه وبعد ثلاثة أشهر نقل إلى قنا ومثل أمام داود باشا المحافظ واعترف اعترافاً رسمياً وطلب اعتباره شاهداً ملك، وبعد أيام أرشداهم إلى مكان المخبأ، كان ماسبيرو فى هذه الأثناء متواجداً بالخارج، لذلك عهدت الحكومة إلى إميل بروجش بتمثيلها فى هذا الموضوع، ومن ثم فقد كان على رأس القوة التى صحبت عبد الرسول إلى المخبأ.

كان بروجش فى حالة عصبية أثناء اعتقاله التل الصخرى المنحدر ثم نزوله فى القبر العميق حيث يوجد الكنز الأثرى، والحق أننا يجب أن نعذره فى ذلك فقد كان يخشى غدر الأهالى به، لذلك تسليح تسليحاً كثيفاً قبل أن يدلوه فى البئر بواسطة حبل متين ومعه ما يكفى من الشمع لإضاءة القبر.

ولم تكد تمضى بضعة دقائق حتى فوجئ بمنظر لم يخطر له على بال وقد فصل وصف هذا المنظر ماسبيرو فيما بعد بأسلوب درامى من واقع تقدير بروجش، فقد كان بروجش واقفاً تحت تأثير أحمد الذى أفهمه أن المقبرة خاصة ببعض كبار الموظفين، لكن :

« ما اكتشفه العريان كان قبوا كاملا للفراغة .. وأى فراغة أعظم الفراغة
فى تاريخ مصر! تحتمس الثالث، وسيتى الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس
الثانى الفاتح هذا ما عاينه السيد إميل بروجش وهؤلاء زمرة جعلته يسبح فى
الأحلام، وأنا مثله أظن نفسى فى حلم وأنا أرى وألمس أجساد هذه الشخصيات
الفريدة، التى ما كنا نظن أننا سنعرف عنهم سوى أسماءهم».

ووجد بالقبو -أيضا- جرار من النبيذ القربانى، وأوانى كانوبية، ثم توابيت
ملكات مصر الشامخات مكومة فى صفوف.

بعدما أفاق بروجش من دهشته بدأ يرتب أمور نقل الموجودات، وعلى
الفور استأجر ثلاثمائة عامل للقيام بأعمال تنظيف القبو ونقل المحتويات تحت
إشراف موظفى مصلحة الآثار الموجودين، وكلف الرفاص الحكومى المسمى
المنشية بنقل الشحنة إلى القاهرة، وفى ظرف يومين (٤٨ ساعة) كانت الدفعة
الأولى من الفراغة الأربعين مع كثير من الآثار الثمينة قد حملت فوق الرفاص
الذى توجه بها إلى القاهرة.

ويحدثنا ماسبيرو بأن النساء من الأهالى تبعن الرفاص وقد علا عويلهن،
بينما أطلق رجالهم أعيرة نارية على شرف ملوكهم القداماء . وبعض الشامتين
يقول إن العويل كان بسبب ضياع مورد رزق سهل لهن، وفيما بعد فكت أربطة
بعض المومياوات ليتمكن علماء الآثار من دراسة ملامح أشهر فراغة مصر،
وكانت رأس سيتى الأول أحسن الرؤوس حالاً.

«رأس ملك حقيقى رائعة وكانت على شفثيه ابتسامة رقيقة لا تخطئها
العين، وكانت عيناه نصف مغلقتين تشعان من تحت الجفون، وشفافتين ثابتتين
فى محجريهما كما كانا منذ تحنيط الجثة، وربما لو شهد بلزوني ذلك لأسعده
إلى أقصى درجة أن يرى هذا الملك، الذى كان اكتشاف مقبرته أهم إنجازات
بلزوني. وقد وجدت جثته لتشاهدهما الأجيال القادمة.

اضطر ماسبيرو بعد استلام جثث الفراعنة إلى مضاعفة الاحتياطات ،
لذلك عزز الحراسة على المتحف ووضع ضوابط لمنع تهريب الآثار والإتجار فيها
أو بيعها لمتنوبي المتاحف الأجنبية، لكن ذلك لم يكف لردع أمراء المتاحف
الأوروبية والأمريكية عن البحث عن قطع أثرية مزيدة لعرضها في أروقة
المتاحف، لذلك انقشعت السوق السوداء لتجارة الآثار إشباعاً لرغبة العلماء.

كان «واليس بادج» واحداً من أشد مسئولى جمع الآثار المتخفية جشعاً
في القرن التاسع عشر، هذا الرجل بدأ حياته الوظيفية الطويلة مساعداً لأمين
جناح الآثار المصرية بالمتحف البريطاني، وكان دائم السفر إلى مصر والسودان
والعراق لشراء آثار المتحف البريطاني، كذلك كان من مكتشفى الآثار والكتاب
النابهن، وكانت وسائله في جمع الآثار فجة غير مستساغة ، وكان ذلك مما
أسخط عليه كرومر وماسبيرو، وكذلك الإنجليز والفرنسيين من موظفى
الحكومتين.

وهذه قائمة طويلة تمثل النظرة التطورية المتعلقة إلى الآثار المصرية، لكن
بادج لم يعبأ بذلك كله بدعوى ولأنه للمتحف البريطاني وأهدافه الكبيرة، هذا
السائح العنيد زار مصر للمرة الأولى سنة ١٨٨٦ في رحلة هدفها جمع آثار
المتحف، واستعد للرحلة بجمع معلومات عن الآثار المصرية وأسعارها السوقية،
استقاها من «صمويل بيرش» كبير أمراء الآثار الشرقية بالمتحف البريطاني.

وكان بيرش قد اكتسب شهرة كبيرة فى المصريات رغم أنه لم يزر مصر
قط، تسليح بادج بالمعلومات التى حصل عليها وحمل معه خمسين جنيهاً
استرلينياً وحضر إلى مصر لأداء المهمة، لكن السير إيفيلين بارنج (لورد كرومر)
استقبله بفتور لأنه كان ضيق الصدر بسبب عدم رضاه عن أساليب الأثريين
الإنجليز فى جمعها، لكن بادج العنيد لم يهتز وصمم على تحقيق أغراضه بأى
طريقة ولو عن طريق تهريب الآثار.

أنشأ بادج لنفسه علاقات وطيدة ومفيدة فى الأوساط الرسمية ومع الأهالى بسرعة، فى كل من القاهرة وطيبة، ففتحت له المقابر، وكانت نصف محتوياتها قد نهبت بالفعل، ووجد الرجل أن كثيرا من أثارها الجميلة «اختفى بطريقة غامضة» لكنه رغم ذلك وفق فى الحصول على بعض القطع الأثرية النادرة.

والتحق به فى أسوان للتشجيع والمعاونة مجموعة من كبار رجال القوات المسلحة البريطانية، وكانت الشركات الهندسية الملكية قد جذت للمساهمة فى الحفائر ونقل المكتشفات وبالأخص التماثيل الضخمة، وضمن ما جمعه بادج ثمانمائة جمجمة على فترات لكى يرسلها إلى طبيب فى كمبريدج تخصص فى فحص الجماجم الأثرية، فكومها فى أحد أركان كوخه حتى يتسنى له تغليفها.

وحدث أن بنات عرس كانت تتسلل وتهاجم هذا الركن، وأفلحت بالفعل فى سرقة عشرات منها، ولم يجد بادج وسيلة للإفلات من الجمرى إلا بادعاء أنها «فتات عظام للتسميد». ويقول بادج «عندما تعاملت مع الجمارك، وجدت مساومتهم سهلة باستخدام هذه التسمية».

علا قدر بادج بين جامعى المتحف عندما حذر مفتش الأهالى المقيم منه الأهالى باعتباره عميلا ثريا ذا أساليب ملتوية (فكانه أفاده من حيث أراد أن يحد نشاطه)، أدى هذا التحذير طبعاً إلى نتيجة عكسية فأصبح بادج قبلة التجار المحليين يعرضون عليه الآثار من كل لون سراً فى كوخه عندما يأتى المساء.

والطريف أن المتحف البريطانى نفسه قد علا فى أنظارهم لدرجة أنهم أبدوا استعدادهم لتسليم المتحف وتأجيل الدفع حتى يعود المتدوب إلى لندن فيرسل لهم الثمن من هناك.

وكثير من الآثار الجميلة التي حصل عليها توصل إليها بمعونة القنصلية البريطانية في طيبة التي عرفت على عائلة عبد الرسول. وكانت مكافأته على التعارف تزويده بالخرائط التي استخدمها المختصون من قبل في استخراج كنز الدير البحري الذي سبق الإشارة إليه.

وعندما أنهى رحلته كان قد جمع أربعة وعشرين صندوقا حاوية لمختلف التحف الأثرية، كل هذه التحف شحنها إلى إنجلترا رغم اعتراض اللورد كرومر وأمناء المتحف المصري.

وقد نجح في تحديهم بهذا الشكل لأنه وضع الشحنة تحت رعاية البحرية البريطانية، وكان رأى رجال البحرية نفسه رأى بادج الذي ينظر إلى تجارة الأهالي في الآثار باعتبارها عملا مبررا ومعقولا لكسب العيش، واستحق بادج بذلك التقريظ الذي حظى به من المتحف سنة ١٨٨٧ مكافأة له على «نشاطه».

قام بادج بزيارة مصر مرة ثانية وهذه المرة طلبت مصلحة الآثار وضعه تحت رقابة الأمن العام، لكن ذلك لم يؤثر في بادج فقد كان يتقن أساليب الإفلات من الرقابة، ومما يحكى في هذا الصدد أن صاحبنا اشترى من رجل فرنسي في أخميم قبطية، وتمت الصفقة بهدوء (تحت سمع وبصر الرقابة)، ذلك بأن الفرنسي أولم وليمة للرقباء أنفسهم، تحين الرجلان أثناعهما فرصة فانفردا معا وأتما الصفقة.

صادفت بادج في الأقصر بعض المشاكل، فقد صاحبه بعض التجار في ظلام الليل إلى مقبرة في البر الغربي وجدها تحتوى على برديات مهمة، منها واحدة هائلة طولها ٧٨ قدما فيها النص الكامل لكتاب الموتى، ووجد أنها تخص الرجل المرموق «أنى : كاتب الملك والمشرف على قرابين كل الآلهة وخازن غلال آلهة أبيدوس وكاتب قرابين آلهة طيبة» سجل بادج بعناية ما هو موجود على ختم البردية ثم فك جزءا صغيرا من البردية باحتراس فوجد ما بهره لدرجة أنه

كتب يقول «لقد ذهلت لروعة الصور البشرية والحيوانية المصورة وجمال ألوانها حتى بدت لي كأنها حية» وكانت معها برديات أخرى من المقبرة نفسها فتحفظ بادج على ذلك كله وقام بتعبئته في صناديق أخفاها في مكان أمين.

بعد عودته بساعات جلس مع التاجر الذي صاحبه لمخبأ البرديات وشرعا في تناول القهوة، وفجأة داهمتها الشرطة ووجد بادج نفسه رهن الاعتقال، كانت الشرطة قد رصدت عيونا على بيوت تجار الأقصر جميعا، بإيعاز من «يوجن جريبو» مدير الآثار الذي خلف ماسبيرو، والمخ جاسوس جريبو الذي أتى بنبا الاعتقال إلى أن سفينته قد جنحت على الشاطئ الرملى بعيدا عن قنا بنحو إثني عشر ميلا.

وأحاط بادج علما بأن ريس هذه المركب تصادف أن كان عرس ابنته في اليوم نفسه، ومن ثم فإن المركب لن تعوم مرة أخرى، (قبل انقضاء العرس)، وحاول جريبو أن يعثر على ركوبة تقله إلى الأقصر فلم يجد حميرا، إذ كان الأهالى قد قاموا بتهريبها إلى الحقول لعدم رغبتهم في تأجيرها.

لم يمض على ذلك إلا قليلا حتى بلغهم خبر تعويم السفينة وأن السيد جريبو ينتظر أن يصل بين لحظة وأخرى، فقام مدير شرطة المدينة بإغلاق بيوت التجار كافة حتى البيت المرتكز على جدار فندق الأقصر، وكان البيت مخبأ مقتنيات بادج الأثرية، وأراد التجار أن يبعدوا الحراس فدعوهم للسمر وشرب البراندى المسكر، لكن الحراس رفضوا بحزم ترك مواقعهم، ترك التجار الحراس وما هم فيه وتحولوا إلى أسلوب آخر.

وكانت الخطة تتلخص في إرسالهم فريقا من العمال بادعاء أنهم أتوا لفلاحة الحديقة فدخلوها عند المغرب، ولما كان الجدار المرتكز عليه البيت سميكا -حوالى قدمين- فقد قاموا بحفر سرداب تحته أوصلهم إلى بدروم البيت

المخزون فيه التحف، وأعجب بادج بأدائهم فقال «لما راقبت عملهم أيقنت أن هؤلاء الجنائية محترفوا السطو على البيوت، وأن لهم باعا طويلا».

تمت العملية كلها فى تكتم نون إزعاج الحراس المتخذين أماكنهم فوق سطح البيت، ذلك لأن التجار أولوا للحراس وليمة دسمة، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تهريب الآثار عن طريق السرداب، ويفتخر بادج بذلك : «بهذه الوسيلة أنقذنا بردية أنى، وباقى ما اشتريته من آثار، أنقذناه من براثن موظفى مصلحة الآثار، وعمت الأقصر الأفراح» لا يمكننا التشهير بما فعله بادج ولا توجيه اللوم إليه لأنه لجأ لهذه الوسيلة، والحق فقد كان الموظفون تحت إمرة جريبو أنفسهم يبيعون ما يجمعه رئيسهم وهم على ظهر الرفاص للمشتريين المحليين ويشاطرونهم الشراب.

بينما رئيسهم يتناول عشائه غافلا عما يفعلون، وفى القاهرة وبمنتهى الثبات والبرود طلب بادج من جهاز الشرطة نفسه معاونته فى نقل المقتنيات (لأنهم طبعا يجهلون ما تحتويه الصناديق !). وفى اليوم نفسه كانت الرسالة الأثرية (برديات وألواح وخلافها) قد شحنت إلى إنجلترا ضمن الحمولات الحربية الرسمية.

لم يخرج بادج فى تصرفاته عن روح العصر الذى يعيش فيه ، فقد كان كل موظف المتاحف مثله، وكان شديد الاحتقار لهيئة الآثار والعاملين بها، ورغم أنه كان على علاقة لا بأس بها بماسبيرو، ورغم تعاونه -أحيانا- مع متحف الآثار، فقد آمن أن تعاونه مع التجار كان أجدي عليه، وقد انتقدته مجلة Egyptian Gazette لأنه «معروف بطرقه الملتوية فى الحصول على الآثار لمتحفه (المتحف البريطانى)» وكان التكتيك الذى التزم به عدم بخس السعر (أى أن يشتري بسعر معقول).

وكان كثير الانفاق على الشراء وكان يحرض التجار المحليين على الإغارة على الجبانات الخاصة بالفترة قبل التاريخية مرة أخرى بعد انتهاء الحفائر العلمية هناك، ويقول أنه حصل على المخطوطات القبطية «بعد مداولات كثيرة أثناء تناول القهوة أو المسكرات» وكان سببا في ثراء المتحف البريطاني بالتراث القبطي بشكل يحسده عليه باقى متاحف أوروبا.

فى الوقت الذى كانت فيه مصلحة الآثار الممثلة للشرعية تحاول فيه أن تثبت أقدامها وتشب عن الطوق، كان بادج يمثل عدم الشرعية والالتواء والخداع وكل التكتيكات المنفرة للحصول على الآثار، وكان بادج يهوى نزح المكتشفات بالجملة لأنه كان موقنا أن تصريفها سهل.

لقد كان يحاول حماية مصر القديمة ! وقد كان ضمن ما كتبه: «كان كبار لصو^صص المقابر ومحيطيو المومياوات المصريون أنفسهم، والهجمة على هواة الآثار تصرف طائش، وما يوجه لهم من لوم لا محل له ... إذا رفض أحد الأثريين الشراء فغيره سوف يشتري، فإن لم يجد الأهالى مشتريين البتة فسوف يحطمون المومياوات ويستخدمونها وقودا».

ومن مقولات بادج المنطقية الطلية : «مهما وجه اللاتمون اللوم لمن يخرج أثارا من مصر، فإن العقلاء لابد أن يعترفوا بأن الموميا^صء فى المتحف البريطانى ستكون فرصتها من العناية والصيانة أضعاف فرصتها فيما لو تركت فى مقبرتها ملكية كانت أو عادية.

وبعد وصف مستفيض للمصير الرهيب الذى ينتظر المومياوات يعود فيقول: «كان المصرى يبتهل - دائما - لإبعاد الشر عن نفسه، كما يستقى مما هو مكتوب على التمانم التى يدفنونها معهم، وفى المتحف البريطانى فسوف يحفظ بعيدا عن الشرور» ليس هذا فقط، وإنما يدعى بادج أن «المرحوم» صاحب

المومياء سوف يعلو ذكره ويشتهر أمره حيث ستتوفر له الحراسة، وبطاقات التعريف، وسيسهل تصويره، وإصدار بطاقات بريدية عليها صورته.

كان بادج يفاخر بأنه يدعم المصريين القدماء أنفسهم، ويباهى بنفسه مدعياً أن القانون الأخلاقي في صفه وأن نهب مواقع الآثار المصرية عمل مشروع تماماً وحضارى ... بشرط ترك بعض الآثار للمصريين للمشاهدة والفرجة أو للبحث.

السفينة النيلية

وما بها من آثار

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، كانت مصر قد تبوأ مكانها بين المشاتى العالمية، فقد أصبح ميسوراً لطبقة الأثرياء ومحدودى الدخل على السواء أن يسافروا إليها بعد تطور السفن البخارية، وكان هناك خط منتظم للملاحة بين إيطاليا والاسكندرية يقطع المسافة في ثلاثة أيام ونصف.

وكانت أيام الرومان تقطع المسافة في ستة أيام على الأقل، ومنذ سنة ١٨٧٢ صار السفر من الاسكندرية إلى القاهرة ميسوراً بالقطار، ومنها كان يسهل تأجير رفاص أو سفينة بخارية صغيرة إلى فيلة وأسوان وبالعكس، فأصبح بالإمكان تغطية زيارة لأهم الآثار والمعالم السياحية في مصر في مدة تقع بين ثلاثة أسابيع والشهر على أكثر تقدير.

علما بأن الدهبيات التى كانت شائعة قبل ذلك كانت تؤدى الرحلة نفسها في ثلاثة أشهر ولا تتناسب -عادة- إلا مع الفنانين ومن في حكمهم ممن يحتاجون لوقت كاف للتوقف عند كل أثر هام للتصوير أو للدراسة، وأصبح من الممكن للمرفهين الاتصال بشركات الرحلات مثل شركة كوك للتوكيلات

الملاحية لتنظيم رحلة مريحة لهم إلى مصر، وكانت هذه الشركات قد وصلت إلى مستوى يمكنها من تنظيم رحلات آمنة إلى أقصى أجزاء المعمورة.

رغم ذلك ظل هناك من يعتبر زيارة مصر هي «ركوب حمار، وركوب زورق وكلها مشقة وتعب» حسب ما قال عالم الآثار «جين أمبير» بسفريته اللاذعة، لذلك كان البعض ما زال عند حسن ظنه بالدهبيات من أجل الراحة والتسلية والتثقيف، ومنهم من كان يفضل المراكب الكبيرة، وقد علمنا من قبل أن بلزوني منذ خمسين سنة مضت صاحب صديقه اللورد بلمور في رحلة بحرية على شكل قافلة.

مثل هؤلاء كان يمكنهم إذا تيسر لهم الوقت أن يتوغلوا جنوباً حتى أبى سمبل، وأغرى مناخ مصر الجاف بعض الناس بالإقامة الطويلة في مصر، أو التردد عليها باستمرار في فصل الشتاء، خصوصاً من كانت صحته تتأثر بالرطوبة أو يشعر بالآلام في الرئتين، وكثيرون كانوا ينتهزون الفرصة للعيش فترة في الصحراء.

من الذين زاروا مصر وأقاموا فيها فترة طويلة سيدة فاضلة قوية العزيمة اسمها الليدي «لوف جوردين» هذه السيدة أقامت في مصر سبع سنوات متتالية (١٨٦٢-١٨٦٩) واختارت لسكناها مدينة الأقصر حيث أقامت في دار متواضعة في بيت فوق سطح معبد أثري مجاور للنيل اشتهر باسم «البيت الفرنسي».

وكانت هذه السيدة ترتاد باستمرار المناطق المجاورة وتتباسط مع الجميع غنياً كان أم فقيراً، وجيهاً كان أم وضيعاً. لذلك أحبها الجميع.

وقد أمكنها أن تتأقلم مع طباع الأهالي لدرجة أدهشت معاصريها وطوال مدة إقامتها في مصر كان طوفان رسائلها إلى عائلتها بانجلترا لا ينقطع.

وقد جمعت هذه الرسائل ونشرت في مجلدين لقيا رواجاً كبيراً، وكان أسلوب السيدة في الكتابة يمتاز بالرشاقة والحيوية، رغم ما فيه من قسوة في مهاجمة بعض أحوال المجتمع الذي تعيش فيه، وقد عبرت الليدى في رسائلها عن شجبها لحكومة الوالى بسبب سوء معاملته للأهالى، وأتباعها لأساليب القمع والترهيب معهم، مما كان يؤدي إلى إثارتهم وتبرمهم في كثير من الأحوال. لكن أسلوبها كان أكثر تشويقاً عندما نتحدث عن عادات الأهالى في أمورهم الجارية مثل الزراعة والحصاد أو الأزمات التي تصيبهم.. أو عن السياح الذين استرعوا انتباهها.

كانت كتابات السيدة الفاضلة عن الأهالى في البيئة المصرية التي لم يعتدها الأوروبيون تسبب الاندهاش لقرائها، وكانت تنظر للآثار باعتبارها جزءاً لا ينفصل عن معالم البيئة المصرية، وتذكر السيدة أنها التقت بأحد رؤساء العمال المسنين الذين اشتغلوا مع بلزوني، وزارت (ربما معه) مقبرة سيدي الأول بوادي الملوك.

وفي إحدى الرسائل التي أرسلتها لزوجها، وشكرها فيما بعد على هديتها له. ذكرت له أنها تهديه تمثال سبع أثري وأعترفت في الرسالة : «لقد سرقتك من أحد المعابد لأجلك» فقد وجدتهم يستخدمونه موطناً لأقدامهم كي يعتلوا ظهور حميرهم ... وقد سرق فلاح لأجلى خاتماً فضياً جميلاً النقطة من بين أنقاض الحفائر وقال لي «لا تخطري به مرييت» أنت أولى به من مرييت لأنه (إذا أخذه) سيبيعه للفرنسيين، ويستولى على ثمنه، ولو لم أسرقه أنا لسرقه هو. لذلك أخذت الخاتم لنفسى بكل هدوء».

سجلت القنصلية الأمريكية سنة ١٨٧٠ أسماء ثلاثمائة سائح ويبدو أن الذي أغرامهم كي يزوروا مصر كتاب ظهر في ذلك الوقت للكاتب ذائع الصيت مارك توين بعنوان «الأبرياء في الخارج»، كتب فيه طرفاً عن رحلاته بالخارج.

بأسلوبه الممتع الساخر المعروف، وقد زار مصر زيارة سريعة لم تتح له سوى زيارة الأهرام وأبى الهول عاد على أثرها إلى بلاده، وأعجبه في مصر خصوصيتها والأرض المنبسطة الممتدة بلا نهاية، ولون الخضرة التي تكسوها لانتشار محاصيل القلال على مدى البصر، وفي نهاية زيارته للأهرام حاول واحد من مرافقيه كسر شظية من وجه أبى الهول كتذكار.

لكن مارك توين لم يفعل، فقد اهتم بما رآه من العبث بالمومياوات، ووجه اللوم للمصريين لإهمالهم شائها حتى أنه شاهدتهم يوقدون بها قذانات القطارات وقبل ذلك بسبعة عشر عاما زار مصر الروائي الفرنسي المعروف جوستاف فلوبيير الذي وصل في رحلته إلى الصعيد، لكنه كان أشد قسوة في نقده لأهالي إدفو لأنه رآهم قد حولوا المعبد إلى مبولة، كما لم ينس أن يبيث شكواه لكثرة القمل.

أحدث افتتاح قناة السويس تغيراً نوعياً في معلومات الإنجليز وعلاقتهم بمصر، فقد أصبحت مصر بعد تشغيل القناة محطة رئيسية يتوقف فيها موظفو الإمبراطورية البريطانية المتوجهين للعمل في الهند - لقضاء بعض الوقت قبل استئناف السفر، وكانت قبلة هؤلاء الإقامة في فندق شبرد المعروف، هذا الفندق نزل فيه مارك توين ووصفه وصفا لاذعاً فقال «إنه أسوأ فندق على وجه الأرض، فيما عدا واحد آخر اضطررتي الظروف أن أنزل فيه في أمريكا» وكان الفندق يرتب رحلات للنزلاء لزيارة الأهرام ويوفر للسياح وسائل الترف الممكنة.

رغم تعليقات مارك توين اللاذعة، وكان نزلاء الفندق تقريباً من موظفي الحكومة البريطانية المتجهة للهند، والنصف الباقي إما من الوافدين لقضاء فصل الشتاء بمصر وإما من السياح العابرين.

كانت أميليا إدواردز من ذلك النوع الذي قلما نجده - الآن - من الروائيين الرومنطيقين من أصحاب الإنتاج الغزير السيال - تعويضاً عن عدم وجود راديو

أو تليفزيون في ذلك الوقت» وخلال فترة حياتها التي استمرت واحداً وستين عاماً كتبت السيدة أميليا عدداً لا يحصى من المقالات والكتب والمذكرات والتعليقات والمحاضرات، هذه السيدة كان أبوها طبيباً، ممن رافقوا وانجبتون في حملته القارية (إشارة إلى موقعة واترلو)، وقد ظهرت مواهبها منذ الطفولة. وقد بدأت موهبتها الشعرية تظهر في السابعة من عمرها، وعندما شبت عن الطوق احترفت الصحافة وكانت ترأس بعض الصحف الدورية .

وألفت السيدة الفاضلة فيما بين سنتي ١٨٥٥-١٨٨٦ ثمانى روايات ، وبعض الكتب الشعبية التي لاقت رواجاً كبيراً في الفن والتاريخ. ولقد كانت أعمالها هذه تدر عليها ربحاً وفيراً يسمح لها بحياة مترفة وسهلت لها وفرة مواردها المالية سبل القيام برحلات ترفيهية متأنية للمتعة ولتجد مادة صالحة للكتابة، وكان ذلك مما يعتبره الجمهور في ذلك الوقت (منذ قرن مضى) حقاً خالصاً للمؤلف الناجح.

كان اهتمام السيدة إنيواردز بالتاريخ والمدنيات القديمة ما دفعها لزيارة سوريا ومصر زيارة طويلة (١٨٧٣-١٨٧٤)، وكانت النتيجة حدوث تحول في حياتها أدى بها إلى تأليف أجمل كتبها المنشورة وهو كتاب «ألف ميل في أعالي النيل». نشر بعد إنتهاء زيارتها للمنطقة بثلاث سنوات، وفيه تظهر خصائص أسلوبها الحار بكل وضوح.

وكانت رحلتها في النيل رحلة مترفة نموذجية بالنسبة لأغنياء ذلك العصر، كانت رحلتها ضمن جماعة سياحية استأجرت دهيبتين لتقلهم في رحلة بطيئة حتى الشلال الثاني، إحداهما كان فيها خمسة رجال والثانية خصصت للسيدتين المرافقتين ومنهما السيدة إنيواردز.

ووصفت الكاتبة الفوج بأنه نموذج «لعابري النيل صغاراً وكباراً، مهذبين

وغير مهذبين، مثقفين وغير مثقفين، (أى أنهم أثرياء لكن غير متجانسين) ، لكن الجميع كانوا كأقرانهم فى ذلك العصر-العصر الفيكتوري- يشعرون يتفوق حضارة مجتمعهم الإنجليزي على غيره من المجتمعات فى سلوكياته وقيمه وعقائده.

ولم تشذ نظرتهم للمصريين عن ذلك، استغلت السيدة إدواردز رحلتها أحسن استغلال فى تأليف كتابها هذا، فجاء الكتاب فى كثير من أجزائه معبراً مفعماً بالإحساسات، وقد نقلت فيه للقراء صورة حية لشهد النيل الممتد الذى لا يكاد يتغير ووصفت الحياة السياحية منذ قرن مضى وصفاً ممتعاً.

وكتاب الألف ميل هذا كتاب تثقيفى بالدرجة الأولى، لكنه كان بعيداً كل البعد عن الجفاف الذى يميز مثل هذا النوع من الكتب عادة، لقد كان دقيقاً فى سرد الحقائق، وقد راجع ذلك بيرش الموظف بالمتحف البريطانى كما راجعه صاحبنا بادج (كان يرتاب فى صدقها)، لكن الكتاب جاء مسلياً، بثت فيه عواطفها الجياشة وإحساساتها ببراعة.

من الأمثلة على ذلك وصفها ليهو الكرنك الكبير، فهى عندما شاهدته تدفق منها النثر الفنى فى أجمل صورته، واستخدمت تشبيهات بليغة خصوصاً عندما أحست بوجه الشبه بين الأساطين والنخل : ... الأشجار الضخمة تحتاج لكى تزدهر إلى ثلاثة آلاف سنة.

لكنها فى دأبها هذا لا تثير فينا شفقة وتحمل فى طياتها غموضاً مثل العمال (تقصد بناء الأساطين) فمتذ ستة آلاف سنة لم يكسر بها جذر (الأشجار)، ولم ترو بدماء الملايين ودموعهم (تلميح لتسخير العمال)، وأوراقها لا تعرف من الأصوات إلا تغريد الطيور.

ويتخللها فى الليل صفير الريح وهو يعصف على جبال كلاديوس! لكن ..

الأنفاس التي ترد في أبهاء الكرنك المزخرفة ما هي إلا صدى لأنفاس من ماتوا في الحجر أو خلف المجداف أو تحت عجلات الطفافة.

وعندما شاهدت معابد فيلة الجميلة من فوق الذهبية عبرت عن إحساسها بما تراه وانطباعها لرأها :

«روعة الاقتراب من النهر نحو الجزيرة لا تعادله روعة أخرى، إنها تبدو من فوق المركب كما لو كانت أشجارها وصفوف أعمدتها وبواباتها البرجية تخرج من البحر كالأطياف، الجزيرة تحيط بها الصخور من جانبيها، والجبال الأرجوانية تسد الطريق.

وكلما زادت السفينة قرباً كلما زادت البروج علواً حتى تكاد تصل إلى السماء، إنها لا تهرم ولا تتداعى، ولكن تظل متماسكة صلبة كاملة، وهنا يحس الإنسان بالآ شيء يتغير، فلو أن صوت أغنية فرعونية انطلق في هذا السكون، أو أن موكباً من مواكب الكهنة في عباداتهم البيضاء سار رافعاً زورق الإله آمون يطوفون به بين النخيل والأبراج ... لما شعرنا بالعجب».

ثم استؤنفت الرحلة النيلية حتى معبد أبي سنبل حسب البرنامج، ومكث الفوج فيها ثمانية عشر عاماً زاروا خلالها الشلال الثاني، تسلقوا جبل أبي صير كما فعل بلزوني من قبل، وشاهدوا أسماء من سبقوهم محفورة على قمته - ومنهم بلزوني نفسه، أما المجموعة فاحتفت بالمناسبة بطريقتها الخاصة، فقد شربوا «عصير الليمون الثلج» المعبأ في قرية من جلد الماعز.

لكن الذي أسرهم ويهرمهم كان أبو سنبل نفسه، فكانت أميليا تصحو كل صباح لتشهد منظر شروق الشمس ومعجزة نور الصباح يشمل المعبد، فهي تصحو مبكرة: «كل صباح أرى إخوتنا يُبعثون أحياء، ثم ينقلبون تماثيل ... وشعرت أنه سيأتي وقت تشرق فيه الشمس، فينفك سحر التعاويذ، فيبعث هؤلاء المردة ويتكلمون».

وبدا لهم أن يفتحوا مقبرة صغيرة فكلفوا بذلك خمسين عاملاً من الأهالي، واستولوا على ما وجدوه فيها، واستمتعوا بتجربة الكشف الأثري بصورة مباشرة بما فيها من توتر وانفعالات، وفحصوا الصور الجدارية التي ظلت مختفية منذ أحقاب وساموا الكاشف على أجر فتح المقبرة حتى قبل أن يحصل هو ورجاله على «ستة جنيهاً» ، وقدرين من المربي، وصندوقين من السردين، وزجاجة عطر، وصندوق كرات لعب الجولف، ونصف جنيه ذهبي.

كانت زيارة إيواردز لأبي سنبل في وقت نشاط حركة السياحة فكان يعج بالزائرين، ورصدت في مكان واحد ما لا يقل عن ثلاث خيام أصحابها منهمكون في رسم وتصوير المعبد، وكان سرب من الذهبيات مرصوفاً على الساحل وعلى طول النهر انتشر الزوار وتزاحموا عند المعابد والآثار الكبرى، وكانت بطيبة مراكب كثيرة «تنتشر عليها الألوان الإنجليزية والأمريكية» (تقصد أن غالبية الزوار إنجليز وأمريكيون).

وكان هناك جنسيات أخرى: ألمان وفرنسيون، وتجار الآثار بالأقصر يسارعون ببيضاعتهم إلى كل مركب ترسو في المكان، وكانوا : «يطاردونا وتعقبونا أينما سرنا، وكان بين الأهالي بعض الرجال العبوسين يلبسون عباءات طويلة وعمائم كبيرة .. هؤلاء اعتلوا سطح السفينة فاحتلوه وأقاموا فيه .. كل الأسبوعين .. وظلوا هكذا وعليهم سيماء الوقار والصبر، حتى إذا رأونا هبوا واقفين لتحيتنا .. ثم يخرجون من مناطقهم وفي جعبتهم أكياس صغيرة بها جعارين وتمائيل صغيرة .. هؤلاء السادة كانوا خليطاً من العربان والقبط ... وكلهم مهذبون مجاملون ...».

مما أدهش السيدة إيواردز ما لمست من تغير سلوك الزوار حتى هي نفسها عند رؤية «الأنتيكات»، واستبشعت مظاهر العبث والتخريب الذي رآته في المقابر في سقارة ، بعد زوال الصدمة كتبت تقول :

«سرعان ما تماسكنا بعد رؤية هذه المناظر» (تقصد آثار التخریب)
«وتعودنا عليها، ثم اندمجنا فى التتقیب والبحث بین التماثیل التى یعلوها التراب
دون أن نشعر بأى حرج، حتى صرنا مثل محترفى السطو على المقابر الذین
احترفوا الاستیلاء على الجثث المهنطة، هذه هی التجربة التى مورنا بها.. ومن
یدرى لعلنا عندما نستعرضها فیما بعد یصیبنا العجب وربما الندم..

وهذه الخشونة من الزوار وجدناها متفشية على مستوى العالم (تقصد أن
كل الجنسیات كذلك).. كان المسیطر على نفوس الجمیع السطو على الآثار
والاستحواذ علیها .. تملكنى هذا الإحساس لدرجة أننى أعتقد أنه لو تكررت
الظروف نفسها فسوف أتصرف بالطريقة نفسها».

كانت تجارة الآثار فى طيبة تدر على الأهالی ربحا جزیلاً - سواء أكانت
أصلية أم مقلدة؟ وكانت أحسن «الأنتیكات» (تحب المؤلفه هذه الكلمة وتستعملها
بكثرة- المترجم) یدخرها التجار لیبعوها للسیاح الأثریاء أو لمدوبى المتاحف،
لكن الآثار المقلدة كانت رائجة - أيضاً- ولها سوق كبیر، وكانت هناك ورش
تخصصت فى تقلید الآثار لا یعجزها إنتاج أى شىء من لوحات منقوشة إلى
تماثیل مرمرية صغيرة إلى جعارین، وكانت الجعارین تعطى مظهرًا یدو أثریا
بتأکیلها بكثرة للدیكة الرومیه فتنزل مع نواتج الهم «ولها مظهر وقور (أى
للمشترى)».

ولكن التجارة كان لها منفصاتها لدى الأهالی، فكان الذین یحفرون بدون
تراخیص عرضه لبطش المحافظ، ومع ذلك لم یكفوا عن الحفر كما كانت یفعل
أسلافهم منذ القدم، كذلك كما كانوا أيام بلزوى یسكنون بین المقابر - یسوقون
الخمیر وینقلون المیاء صباها، ویحفرون القبور لیلاً.

كل مصرى بالمدينة كان معه «أنتیكات» جاهزة للبیع یمتوى فى ذلك
الموظف الوقور المعمم أو المواطن الفقیر، راجت الآثار فى الأقصر إذ نشط

العمل فى الحفر والتهريب أو فى التزييف فأصبحت مثل خلية النحل فى تجارة الآثار.

كان تجار الآثار المقلدة لا يخشون إلا السائحين الذين قد يكتشفون التزييف، وتحدثنا السيدة إواردز أنها مع إحدى رفيقاتها ألفيا نفسيهما بالصدفة فى إحدى ورش التزييف، دخلت ظنا منها أنها دار القنصلية البريطانية هناك،

فلما دخلت وجدت نفسها فى غرفة عادية بها ثلاث مناضد، عليها كل ما يخطر على البال من آثار خفيفة (مقلدة): جعران وتماثيل جنازية صغيرة... وكانت فى مراحل مختلفة من التشطيب، وكانت أدوات العمل متناثرة حول القطع كما كان هناك صندوق تابوت (أثرى) لحفظ الخشب، ودخل عليها عربى مهندس وطلب إليهما تأثراً أن يغادرا فوراً، وأن القنصلية انتقلت إلى مكان آخر.

وتقول السيدة إواردز : «لقد رأيت هذا العربى المهندس نفسه بعد يومين، لكنه زاغ منى فوراً واختفى فى مكان ما».

فى ذلك الوقت كان هناك نشاط لندوبى مصلحة الآثار فى الحفر والتنقيب ولكن على نطاق محدود، وكانت المومياوات التى يكشف عنها ترسل فى صناديقها مغلقة إلى متحف بولاق.

وقد حظيت مسز إواردز ذات مرة بمشاهدة عملية كشف إحدى المومياوات، فتقص علينا أنها توجهت مع مجموعتها فى وقت مبكر من أحد الأيام إلى الرمس يوم فقد عبروا النهر فى زوارق ثم امتطوا ظهور الحمير وساروا فى السهل الرملى نحو المعبد، وكان إفطارهم فوق ظهور الحمير حتى وصلوا إلى بغيّتهم.

وتقول السيدة إن صباحهم كان مشرقاً جميلاً، وكان منظر الشعير يغطي الوادي بالخضرة على مدى أميال مبهراً، وكان تمثالا ممتون الفارنان يتوهجان تحت أشعة الشمس المشرقة، والزهور البرية تتراعى وسط الشعير فتعطي مظهراً خلاباً .

باختصار كانت الرحلة رائعة لا يمكن أن تنسى، وكان أكثر الأشياء إثارة في هذه الرحلة إكتشاف تابوت حجري منقوش في نفس لحظة وصولهم نفسها، وقد وجدت هذه المومياء سليمة في قاع عميق جدرانه مبنية بالطوب، ووجدوا المحافظ بنفسه هناك يتفقد أعمال الحفر.

قلما رأى السيدة إندواردز دعاها لتناول الغذاء معه في مقبرة قريبة، يستخدمونها كمخزن مؤقت لجمع نواتج الحفر، وتكونت الوجبة من لبن رايب (لبن حامض معروف بالصعيد- المترجم) ثم «صينية بها كعك لا يمكن أن يكون هناك أرواً منه، فاكلوا مع رائحة وعفار الأسمدة (القصد عفار الحفر).

أحست السيدة إندواردز بالعطش والرغبة في تناول المرطبات، والحق أن المجموعة أمتعت نفسها بوجبة أرسنقراطية داخل الرمسيون، حيث فرشت لهم الحصر بين أساطين المعبد، وأخذ الخدم يروحون عليهم ويقفون، بينما كانت بالقرب منهم جاموسة تجلب لهم لبناً شهيئاً سائغاً شرا به ، تفوح منه رائحة زكية وكان «العربان السمر في الخرق البالية، يطوفون عليهم ببضاعتهم المزجاة: جعلان مقلدة وكسرات من توابيت الموتى وتمائيل مزيفة، وكانوا كالعهد بهم طوال الرحلة مؤدبون (إلى حد ما) وكانوا دائمي التحية والمديح لمن يرونهم رسل المدينة الذين كانوا حريصين على الظهور بالمستوى اللائق رغم اغترابهم عن أوطانهم.

كان وصف حياة السياح منذ قرن ينساب في صفحات كتاب السيدة إندواردز تتكلم عن سياحتها، والقارئ للكتاب يجد نفسه هائماً بين البهجة والثقافة

والتتوير والدهشة، وما أن وطأت قدماها أرض الوطن (إنجلترا) حتى بدأت تنشط نشاطاً غير معتاد، فأخذت تلقى المحاضرات في النوادي والجمعيات وتكتب المقال تلو المقال عن تجريتها السياحية في مصر.

وشجبت السيدة إدواردز ما شاهدته من نهب وتهريب للآثار، وتخريب للمعابد والمقابر الفرعونية، وأبدت أسفها واستنكارها للفوضى التي تسود عمليات الكشف عن الآثار، ونعت على المستكشفين التزامهم بالتقنيات السليمة في الحفر والتنقيب، وكان أسفها شديداً لقيام الأهالي بتخريب وتفكيك المعابد الأثرية للاستيلاء على حجارته.

رغم أن قلم أميليا إدواردز كان سلاحاً فعالاً في تشكيل رأى عام يقدر مصر القديمة إلا أن الإهتمام بما يتعلق بمصر كان قد أخذ فعلاً في التبلور بين أوساط المنقبين، فقد أقبل الناس حتى في الأرياف على شراء أحدث وأهم المونوجرافات عن طيبة، وبيعت عشرات الآلاف من نسخ الروايات التاريخية التي تتكلم عن الفراعنة.

وكانت الكتب التي تربط بين مصر القديمة والكتاب المقدس، من أروج الهدايا بين الناس في أعياد الميلاد وعيد الكريسماس، وانتابت الناس حمى الإهتمام بالفترة قبل التاريخية، ويعود الفضل في ذلك إلى كل من : «هينريش شليمان» الذي أجرى استكشافاته في طروادة و«أوستن هنرى لايار» وأقرانه الذين أجروا استكشافاتهم في وادي النهرين (العراق).

وكان التعليم الكلاسيكي مازال يميز الشخص المثقف، وكذلك كانت المعلومات الدقيقة عن الكتاب المقدس في منتهى الأهمية.

وكان لمصر في كل ذلك مكان ملحوظ، وكان كل مثقف ينبهر بالأهرام والمومياوات والأشكال الهيروغليفية، فقبل زمن أميليا إدواردز بكثير، كانت

المصريات قد بدأت تسيطر على الجماهير الأوروبية فاهتموا: بالمعمار المصري والموضات، ودرجة أقل بالأدب الجاد.

ويعود الفضل فى ذلك إلى رجال مثل ويلكنسن وليسيوس من المثقفين بالإضافة إلى آلاف المؤلفين نوى الإهتمامات الدينية، لكن للأسف كان كثير من هذا الإنتاج الأدبى مضللاً بدرجة كبيرة .

والسبب أن من المستحيل على أى كاتب من العصر الفيكتورى له نظرتة الخاصة الضيقة ومبادئه الثقافية (أى القاطعة كالسيف) أن يتفهم البيئة المصرية المعاصرة له بسهولة .. فما بالك بمصر القديمة ؟

على أى حال تحمست أميليا إدواردز للدعوة لاتباع الأساليب العلمية فى الكشف الأثرية، ولم تكل عن النشاط فى هذا المجال منذ رجوعها إلى إنجلترا حتى وفاتها سنة ١٨٩٢، واستمر فيض مقالاتها على نفس الوتيرة نفسها: «لن يقف تهريب آثار مصر وتخريبها إلا باتباع التقنيات العلمية فى الحفر والتنقيب والبحث ، وشغلها الموضوع لدرجة أنها كرست له كل جهودها وكفت عن الكتابة فى أى موضوع آخر.

كان علماء المصريات المتخصصين فى بريطانيا معنيين كثيراً بما يجرى فى مصر (فى مجال الآثار)، وقد طرحت من قبل سنة ١٨٨٠ فكرة تأسيس جمعية لحماية المباني القديمة (الأثرية)، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، لذلك قامت أميليا إدواردز فى مارس سنة ١٨٨٢ بتبنى مشروع يرمى إلى تأسيس «صندوق الآثار المصرية» يكون هدفه الإشراف على الكشف الأثرية على أسس علمية.

وسعت لعقد اجتماع تأسيسى يضم شخصيات لها ثقلها فى المصريات منها المستشرق المعروف «ريجيناالد ستيفارت بول» والطبيب السير «أرازموس

ويلسون» الجراح المشهور الذى مول نقل المسلة التى اشتهرت باسم إبرة كليوباترا من الاسكندرية إلى لندن.

وقد بلغت تكاليف نقل المسلة عشرة آلاف جنيه. وهو مبلغ طائل بمقاييس ذلك العصر، واجتمعت الجمعية التأسيسية للمشروع فى المتحف البريطانى وأسفر عن تأسيس «صندوق دعم الاستكشافات الأثرية المصرية» برئاسة الراعى الأكبر للمشروع. الطبيب ويلسون، وسكرتارية كل من السيدة إدواردز والسيد بول .

وأعلن عن تأسيس الصندوق فى كل الصحف المهمة، واحتوى الإعلان على طلب التبرعات لتمويل الصندوق مع بيان تفصيلى عن الموقع المزمع استكشافها.

وحددت أهداف الصندوق كما يلى : «تنظيم البعثات الكشفية فى مصر، مع العناية ببحث تاريخ وفنون مصر القديمة، وتوضيح ما جاء فى قصص التوراة عن مصر والمصريين» وكان صندوق الكشف المصرى من أوائل الهيئات التى تقدمت للحصول على تصاريح رسمية بالحفر والتنقيب عن الآثار.

وكانت تولى عناية كبيرة للبحوث الجادة، وبهذه الصورة أصبح الصندوق منظمة علمية كشفية قانونية، له الحق فى إصدار مطبوعات عن الآثار، ومبرا من شبهة النهب والتخريب، والجري وراء الآثار المظاهرة.

كانت الحفائر الأثرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر مازالت تجرى بطريقة عشوائية بعيدة عن الأسلوب العلمى، لذلك كان الحفر يودى فى كثير من الأحوال إلى تخريب قد يكون واسع المدى، ولم يكن يسبق أعمال الحفر دراسة ولا تخطيط ، وكان الهدف من الكشف دائما- الحصول على «أكبر كمية فى أقصر وقت» وكانت تقنيات الحفر نفسها متخلفة تؤدى إلى مزيد من الخسائر،

وكانت أساليب مرييت وماسبورو ومن على شاكلتهم ذات أثر مدمر، وقد انتقد «بتري» الإنجليزى هذه الأساليب فى وقت تهيأت فيه رياح التغيير، وعاون على زيادة الوعي بأهمية تغيير أساليب جهود باحثين فى أماكن أخرى، مثل «لابار» فى العراق و«شيلمان» فى طرواده.

وطرح «بسيوس» تقنيات جديدة أخذ بها العلماء الألمان فى الحفر والتسجيل، وأدى ذلك إلى تطور فى مفهوم التنقيب الحقلى فى المواقع الأثرية، وأصبح علماً حقيقياً له قواعده وأصوله، وأصبح له أهداف نبيلة، لا مجرد اصطلياد للكنوز الأثرية، بذلك نشأ علم الحفائر الحديث.

نود أن نشير من بين رواد المصريات الذين تبثوا أساليب حديثة إلى المحامى الاسكتلندى الشاب «إسكندر هنرى ريند» ذى الطبع الهادئ الوديع. هذا الرجل كان يعانى من متاعب صحية فحضر إلى مصر فى شتاء سنة ١٨٨٥ للعلاج . وفى الشتاء التالى حضر إلى مصر وفى نيته التسلى بالبحث الأثرى، وأمضى موسمين باحثاً عن مقبرة سليمة كى يعاينها ويسجلها بأسلوب منظم لأنه حسب قوله كانت «عناية المستشكفين تتجه -دائماً- إلى الاستحواذ على الآثار، فلم يعبؤوا بذكر الظروف التى اكتشفت فيها الآثار» (أى بالتسجيل).

ثم يذكر أن ما قام به دروفيتى وسولت من حفائر فى طيبة عشوائى عنيف غير مسئول أدى إلى كثير من التخريب، ولم يترك لغيرهما سوى فرصة ضئيلة للعثور على مقبرة سليمة.

وبعد طول عناء وجد ريند مقبرة مناسبة لأن آخر من دفنوا بها لم يقربهم أحد» ورصد «ريند» الموقع بدقة.

وسجل خطوات الحفر أولاً بأول، وسجل محتويات المقبرة، وموضع كل شئ وجده فيها، وسجل ما لاحظته من الانتهاك المتكرر للمقبرة. وكشف الغطاء

عن آخر من دفن فيها، وحدد أسماءهم التي وجدها مسجلة على البرديات المصاحبة لجثثهم، وأصدر في النهاية كتاباً عنها تحت عنوان «طيبة : مقابرها وسكانها» وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢.

مما يؤسف له أن ريند مات في ريعان شبابه في الثلاثين من عمره أثناء عودته من رحلته الثالثة إلى مصر، ورغم أنه لم يكن أول من كشف عن مقبرة سليمة إلا أنه يكاد يكون أول من اعتنى بالتسجيل والحفر السليم، ولا نشك أنه لو عاش أكثر لأفاد المصريين كثيراً، لأنه كان يتسم في عمله بالصبر والدقة.

اختار صندوق دعم الكشف أثرياً سويسرياً كأول وكلائها في مصر، عقب الغزو البريطاني، هذا العالم هو «هنري نافيل» أحد تلاميذ لبيسيوس النابغين، وأجرى نافيل أول حفائره في تل المسخوطة بجوار قناة السويس في منطقة الدلتا، وكان ذلك بناء على تعليمات مشددة من الصندوق بالبعد عن الصعيد وتركيز النشاط الكشفى في الوجه البحرى والدلتا لأنها منطقة بكر تحوى أثراً مهمة.

أثارت حفائر نافيل في المسخوطة إهتماماً شعبياً كبيراً، ذلك لأنه منذ سنوات ترسخ لدى العلماء اعتقاداً خاطئاً بوجود مدينتين بناهما الإسرائيلون لرمسيس الثانى، هما «بر رمسيس» و«بيثوم»، وكان هدف نافيل في الموسم الأول التوصل إلى خيط يربط المدينة بالنصوص التوراتية، وأسفر الحفر عن ظهور أطلال أحد المعابد، وأحد أحياء مدينة قديمة ومجموعة تحصينات ومعسكر حربى، وقد ر نافيل أن المدينة بنيت ما بين ١٤٠٠-١٥٠٠ ق.م.

وكان ما وجدته من آثار مكرساً للإله أتوم لذلك استنتج نافيل أن المدينة نفسها بيثوم أى مدينة أتوم التى تقرأ. أحياناً. بر أتوم (يعنى رايه أن بى أتوم وبيثوم شىء واحد).

وهل أمناء الصندوق، ونوهوا بالكشف وعملوا له دعاية واسعة لجمع المعونات للاستشكافات، ورغم أن الكثير من علماء المصريات شككوا في آراء نافيل إلا أن الجمهور أصبح مؤمناً بأن الحفائر الحديثة قد أيدت النصوص التوراتية بدرجة كافية.

كان نافيل مثل الكثيرين من رواد المصريات يمتلك قدرة لا حد لها على العمل الشاق الدؤب، وكان يفضل (مثلهم) اكتشاف الآثار العظيمة والمعابد، وكان مازال متأثراً بأفكار مرييت وماسبيرو اللذين تدرب معهما، فلم يستطع التخلص -تماماً- من السعى وراء المظهريات، ورغم هذه السلبيات كان له إيجابياته، فقد كان يتميز بذكاء حاد وأفكار بناءة.

لذلك أمكن أن يرفع من شأن صندوق دعم الآثار المصرية حتى احتل مكاناً بين المنظمات المهتمة بالبحوث الأثرية، وكانت حفائره التي أجراها في وادي الطميلات سنتي ١٨٨٥، ١٨٨٦ ثم في تل بسطة من سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٨٩ مثار اهتمام كثير من الأثريين.

استمر هذا الأثرى الشهير في العمل لحساب الصندوق حتى سنة ١٩١٣، وكان بينه وبين الأثريين الألمان خصام شديد، ويمكن تلخيص السبب في أن نافيل ذلك الرجل الضخم اللطيف وتلميذ لبسيوس كان يبغض الطرق التيوتونية (أي الألمانية) التي تلتزم بالأسلوبية المدرسية التي تصر على الوصف التفصيلي والتسجيل على بطاقات التعريف.

ولكن المدرسة الألمانية المتزمتة في أساليبها الأكاديمية، كان لها أفضال على المصريات في أواخر القرن التاسع عشر، وتلاميذ هذه المدرسة ليسوا جمعاً من تلاميذ لبسيوس بل من تلمذ على يد جورج مورتيز إبيرس، أستاذ المصريات في ليبزج.

وكان إبيرس الكاتب العظيم فى علوم المصريات، من أعظم المدرسين أيضا، لكن أهم إنجازاته كان سلسلة من الروايات التاريخية ذات القيمة (النبرة أو الحس) المصرية القديمة، وأشهر كتب هذه السلسلة كتاب «الأميرة المصرية» الصادر سنة ١٨٦٤.

وقد ترجمت القصة إلى ست عشرة لغات، وبيعت منها أربعمئة ألف نسخة حتى سنة ١٩٢٢، وتحكى القصة حكاية أميرة مصرية أيام الغزو الفارسى، هذه الأميرة يراودها الفاتح قعبيز عن نفسها، لأن جمالها كان باهرا، وكانت حساسة شامخة لكنها فوق كل شىء «إنسانة»، وهذه الشخصية تكاد تصف الأميرات العصريات المقهورات، ولا شك أن بطلة القصة وكانت «ذات دم أزرق (ملكى) يزيدا جمالا على جمال» عصابة رأسها تتلألا فوق جسدها الرقيق، فتزيدها طولا. كانت تخب لب القارئ، لكن إبيرز يوظف النص فيضمنه أوصافا تفصيلية للصناعات المصرية والعادات والألوات، وكانت مثل هذه الروايات الرومانسية يقبل عليها بنهم سيدات عصره المتعطشات إلى الحب. من أهم رواد المدرسة الألمانية العالم الفذ أدولف إيرمان مدير الآثار المصرية بمتحف برلين، وقد دخل اسمه فى الموسوعة المعروفة التى عرفت به بأنه «إعصار»، وهو الأعظم، بعد شمبليون، كان إيرمان من المهتمين بالهيروغليفية وبحوثه فيها مهمة جدا.

ومن أهم إنجازاته أنه أثبت العلاقة بين الهيروغليفية واللغات السامية، وإيرمان طرح فكرة تقسيم التاريخ القديم فى مصر إلى العصور الثلاثة: العصر القديم والعصر المتوسط ثم العصر المتأخر.

كذلك كان إيرمان من الرواد فى ترجمة وتفسير النصوص الهيروغليفية، وكان إيرمان من النوع الموسوعى سواء فى الفكر أو فى النشاط، فقد اهتم بمجالات كثيرة أهمها الآثار والتاريخ واللغة.

وإيرمان له كتاب مشهور اسمه «الحياة اليومية في مصر القديمة»، وهو كتاب مبتكر في موضوعه يصف المصريين القدماء في حياتهم العادية، اعتمد فيه على مصادر فرعونية بحتة، لذلك خرج الكتاب في شكل رائع لاتزول جدته، والكتاب حتى يومنا هذا من الكتب المتداولة المعروفة الفريدة في بابها.

تضافرت ظروف وأحداث عديدة على إيصال علم الآثار المصرى إلى أعتاب مرحلة جديدة، أدت إلى تغيير جذرى إلى الأفضل.

فقد أصبح لعلماء المصريات الألمان والفرنسيين تأثير كبير وارتفعت أصواتهم وكلماتهم البليغة والمؤثرة، وزاد من تأثيرهم تحسن الاتصالات، وتدفق المعلومات عن المصريين القدماء، وكلها تشير إلى ضرورة توفر المعلومات الموثقة المسجلة الدقيقة.

كانت روايات إبير يقبل عليها القراء بنهم، كما كانت كتب السيدة أميليا إندواردز ومقالاتها ذات صفة تنويرية لقطاع كبير من المثقفين لم يكن موجودا من قبل، وكانت الأمور في مصر قد أصبحت مستقرة تحت علم الإمبراطورية البريطانية، مما هيأت الجو سياسياً لمواصلة الحفائر الأثرية على الأسس العلمية (اللائقة).

قامت السيدة أميليا إندواردز برحلة إلى الولايات المتحدة في ١٨٨٩ - ١٨٩٠ للدعاية لصندوق دعم الآثار، ودعوة الأمريكيين للتبرع له من أجل الاستكشافات الأثرية واستمرارها، وكانت رحلتها ناجحة للغاية، ومحاضراتها تلقى ترحيباً كبيراً، كانت السيدة قد كتبت قبل ذلك منذ سنة ١٨٨٢ «قام الفرنسيون في الوجه القبلى والإنجليز في الوجه البحرى ببذل الجهود المضنية للكشف عن الكنوز المدفونة لأعرق شعوب الأرض».

ثم تستطرد في ثقة «قدماء المصريين المدفونين في ثرى مصر أكثر من

كل الرجال والنساء الذين يعيشون فوق ثراها، وقبل ذلك بست سنوات استأجر الصندوق (صندوق دعم الكشف المصرية) شاباً إنجليزياً ليقوم لحساب الصندوق بإجراء حفائر في الدلتا.

واستمرت العلاقة بين الفتى والصندوق ثلاثة سنوات فقط، هذا الفتى اسمه فلندز بيتري، كتب له أن يكون واحداً من الرموز البارزة في الاستكشافات الأثرية في وادي النيل.

نقوش وأدوات وأماكن واحتمالات

ولد فلندز بيتري سنة ١٨٥٢ في أسرة معروفة بحب الأسفار والاهتمام بالبحث العلمي أحياناً. ولم ينل بيتري تعليماً نظامياً يذكر، لكنه تلقى على يدي أبيه تدريباً جيداً في المساحة والهندسة.

واعتاد بيتري التجول في الريف ومع بعض أدوات أبيه مثل مقياس الارتفاعات والتلسكوب لرصد بعض المواقع عند الحفائر الأثرية.

وكان حسب قوله «يصرف خمسة ونصف على الطعام كل أسبوع، وضعفها على المبيت». ويقول بيتري : «لقد درست الأرض والناس في جنوب إنجلترا كله، وكنت أبيت في أحد الأكواخ». ويعتبر هذا تدريباً جيداً سوف يساعد بيتري فيما بعد في عمله في الصحراء بالإضافة إلى إهتمامه بدراسة العملات والإطلاع على الكتب في المتحف البريطاني.

وكان بيتري وأبوه يوليان اهتماماً كبيراً بالأهرام^(١) المصرية منذ فترة

(١) في الأصل الأهرامات وهي خطأ لغوي والصواب أهرام جمع هرم ، وقد تناحش هذا الخطأ اللغوي على لسان كثير من الكتاب والمذيعين والصحفيين فأرجو أن ينتبه له.

طويلة. وأحد أسباب هذا الاهتمام إطلاعهما على كتاب للفلكي «بيازى سميث» عنوانه «ميراثنا من الهرم الأكبر» ، وهو كتاب تأملى ليس له أهمية تذكر اشتراه بيتري مصادفة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. وأزمع الأب وابنه على القيام برحلة لإجراء مسح شامل للهرم الأكبر، يكون أكثر دقة من محاولات مسحه السابقة.

لذلك اتصلا «بستوننج» سنة ١٨٧٢ ثم شرعا فى وضع خطة مناسبة للمسح استغرق إعدادها عدة سنوات. وفى نوفمبر سنة ١٨٨٠ سبق بيتري أباه فى السفر إلى مصر ليبدأ حياة جديدة، وكان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره . وتأثر بيتري عندما علم أن أباه صرف النظر عن اللحاق به فى مصر وأثر البقاء فى وطنه.

المهم أن بيتري وصل إلى الاسكندرية بعد رحلة عاصفة استغرقت شهراً كاملاً. ولم يمض أسبوع على وصوله حتى كان قد استقر فى هدوء داخل مقبرة عند الهرم فى الجيزة، بعد أن حصل بسهولة على التصريح اللازم لأنه لم يكن يسعى لإجراء أى حفائر يمكن لمرييت أو مصلحة الآثار أن تعترض عليها.

كان مسح بيتري للهرم مبتكراً حسب المقاييس المعاصرة فى ذلك الوقت، فقد أمضى عدة أسابيع فى اختيار نقط الرصد ودراسة تركيب الأهرام، وقد توفر لديه وقت كاف ليراقب أسلوب مرييت ومعاونيه فى الحفر، فوجده منفراً متخلفاً.

كان مرييت لا يبالى بنسف كل الحجارة الجرانيتية الساقطة من المعبد ترافقه كتيبة ضخمة من العسكر، ولا يبالى برفع الحجارة ونقلها باستخدام الروافع... لم يكن العمل يجرى بنظام وانسجام، ولم تكن هناك خطة (للتنفيذ)، وما أن يبدأ العمل فى مكان حتى يترك دون إكمال، ولم يكن هناك أى اعتبار للمستقبل فى مجال الاستكشاف، كما لم تتبع أساليب متحضرة أو وسائل

مناسبة لحماية العمال. إنه لشيء مؤلم أن نرى المدى الضخم لتخريب كل شيء... وكان آخر ما ينال الإهتمام هو الحفظ والصيانة.

استرعى المسح الذي أجراه الشاب الإنجليزى الأثريين الجادين، فزاره كثيرون فى بيته المقبرى، منهم الجنرال الكبير «لين فوكس بت ريفرز» أحد رواد الحفائر الدقيقة، وأبدى حماساً شديداً وتشجيعاً لجهود بيتري. وقد افقتن بيتري بكرانكات الهرم ومقاييسها. (كرانك معناها ذراع.. والمعنى هنا مبهم - المترجم).

وفى أوقات راحته من أعمال المسح كان بيتري يجمع الشقفات الخزفية وما يستطيع من أدوات أثرية خفيفة. وكان ماسبيرو قد نصحه بإخفاء الآثار الخفيفة فى جيوبه هرباً من التفتيش. كان ماسبيرو يستخف الآثار الخفيفة، أما بيتري فكان يعتقد أن مثل هذه الآثار كالألوانى الخزفية المزججة فيها ما يعين على كشف الغموض عن مصر القديمة.

وهذا بالإضافة إلى ما رآه حوله من آثار التخريب هو الذى دفع بيتري كى يحول اهتمامه من مجرد المسح على الحفر نفسه.

كانت عمليات المسح التى يقوم بها تؤيدها الجمعية الملكية، فلما عزم على الحفر توجه لصندوق دعم الكشف لدعمه مادياً. وفى البداية كان أعضاء مجلس الإدارة ساخطين على هذا المارق حتى السيدة أميليا إدواردز نفسها.

ولكن نجاحه فى مسح الهرم دفعهم للسماح له ببعض البحوث لكن بلا تمويل. ولم يمض إلا قليلاً من الوقت حتى وصلت من بيتري رسالة إلى السيدة إدواردز: «إن مجال الحفر الأثرى فى مصر يستهوينى كثيراً، وأرجو أن تكون النتيجة محققة للأمال وأشعر أن الأسلوب المناسب يتلخص فى العناية بالتدوين والمقارنة بين التفاصيل الدقيقة .. (وليس) فى السعى وراء جمع (الآثار) بالجملة والارتجال فى تنظيف (المواقع)».

كانت الاستكشافات الأثرية المصرية في وضع خطير، وكان بيتري مدركاً لأوجه النقص في هذا المجال من اتصالاته بالمتحف البريطاني ، وكان مدهوشاً من هذا القصور. ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق بيرش طلب من بيتري أن يرسل له صندوقاً يحتوى على فخاريات متنوعة من «كل موقع مهم» لمساعدته في تتبع التسلسل التاريخي في مصر.

ويقول بيتري إنه «بعد سنة من وجودي في مصر أحسست أنها مثل البيت المشتعل بالنار ... فقد كان التخریب يجري بسرعة مذهلة. وكان يتعين على جمع ما أستطيع جمعه بسرعة، كي أحفظه حتى أبلغ الستين من عمري فانتفرغ له ولم يكن هناك أي إهتمام بالدقة والإتقان.. أما النهب والسلب فكانا على أشدهما».

أسرع بيتري بالعودة إلى مصر، وبدأ يدخل في الحفر في بعض المواقع ومنها تانيش ونوقراطيس. وكانت الأرض فيها «غنية بالخزف الإغريقي القديم (الأثري)، لدرجة يشعر المرء معها (بالذنب) كما لو كان يدينس المكان وهو يدوس أكوام الفخار الأسود اللامع فتتخطم تحت وطء قدميه.

وانفرد بيتري عن سبقوه باتباع أسلوب تأجير العمال وإيوائهم بنفسه دون وساطة الشيوخ ليأمن مكرهم واستغلالهم للعمال. لأنهم اعتادوا على إبعاد العامل الذي لا يدفع «المعلوم» وبهذا الأسلوب اختزلت مشاكل العمل بشكل ملحوظ.

سرعان ما اكتشف بيتري أن مارييت كانت له أساليب مختلفة. كان مارييت يترك الأمر برمته للمشرفين، فكانوا يتعهدون بإحضار العمال من القرى، ويتولون صرف أجورهم . فكان من الطبيعي أن يميل المشرفون إلى التفاوض عن تعبئة الموسرين من الفلاحين لأنهم أقدر على دفع الرشوة .

أما فقراء الفلاحين فكانوا يساقون قسراً للعمل. وكانت أغلب الحفائر المحلية تجرى بصورة عشوائية، وكان الحفر الذى يقوم به الأهالى كما يقول بيتري ينحصر فى «عمل حفرة عميقة مستديرة ينثرون حولها ما يجنوه بلا نظام، وقد قاسيت الأمرين لحثهم على حفر خنادق مستقيمة ضيقة.

ورغم أن طرق بيتري فى تنفيذ الحفائر كانت أحسن من غيره، إلا أنها بالنسبة للطرق الحديثة كانت متخلفة ومخرية. كانت طبقات ثلاثة من العمال : الحفارون، والغواصون (الذين ينزلون إلى الأبيار)، والنزاحون (لرفع المخلفات وإخلاء المنافذ.

وكان بيتري يحرص على توفير الرقابة على العمال، وإن كنا نجهل كيفية ذلك بالضبط ولم يمانع بيتري فى استخدام الفتيات فى الدق والتكسير. وكانت تسلقه بلسانها بلا توقف، ولا تكف لسانها السليط حتى وهى تنهال عليه بمقطفها» .

كان العمل يبدأ فى الخامسة والنصف صباحاً وينتهى فى السادسة والنصف مساءً، مع فترة راحة قصيرة عند اشتداد الحرارة فى الظهر. وأحياناً كان بيتري يذهب لخيمته للإفطار، ومن هناك يراقب العمل بالتلسكوب. وفى الأوقات الأخرى تجده دائماً فى مواقع العمل وعينه كعين الصقر لا تغفل عما يجرى.

هذا بينما كان مرييت لا يزور مواقع الحفر إلا مرة واحدة كل فترة (ثلاث أسابيع أحياناً). وفى كل زيارة كان يعطى تعليماته بما يراه جاهزاً فى زيارته القادمة.

وكان يطلق يد المشرفين فى قيادة العمال فحققوا من توظيف العمال والرشاوى أرباحاً طائلة. وكان هؤلاء يتخوفون من أن الإنتاج إن لم يكن غزيراً،

فإن أعمال الحفر قد تتوقف، فكانوا إذا تعثرت الحفائر لا يتورعون عن شراء بعض الآثار الخفيفة من تجار الآثار بالقاهرة حتى تظل شهية مرييت مفتوحة للحفر.

أما نواتج الحفر المهمة فكانوا يخفونها حتى تحين الفرصة المناسبة التي تحقق لهم ما يطمعون من ربح فيظهرونها (المقصود طبعاً المنح الإضافية والبقيش... إلخ).

لذلك لا نستغرب كثيراً إذا ما كان يصرح به متحف القاهرة من احتوائه على كل ما ينتج من أعمال الحفر التي يقوم بها الأجانب موجود بالمتحف ، لا يعنى سوى خدعة كبيرة (أى لا أساس لها من الصحة).

حصل بيتري من حفائره على نتائج جيدة مفيدة إذ تمكن من تنظيف وكشف جزء من معبد وفناء كبير مسور للفرعون بسوسنس الأول من الأسرة الحادية والعشرين، واكتشف كمية كبيرة من الفخار ومن الصناديق المليئة بالبرديات التي حمل بعضها فيما بعد على الزجاج ثم ترجم. وقد أرسل الكثير مما اكتشفه إلى إنجلترا وعرض في معهد الآثار الملكية بلندن.

وأهم من ذلك كله أن بيتري أثناء وجوده في إنجلترا أمضى وقته في تسجيل نتائج أعماله كي تنشر نتائج أعماله بسرعة.

وكانت أميليا إواريز تطلب ما ينشر له في الصحف المتخصصة، وتعتمد عليها في كتابة مقالات مشوقة تنشرها في جريدة التيمز اللندنية . كان هذا على وجه الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدمة في الكشف الأثري التي استغرقت حياة بيتري كلها بعد ذلك في مصر وفلسطين. على الرغم من أن حفائر فلنדרز كانت أكثر انضباطاً ممن سبقوه، إلا أن تقنياته كانت متخلفة حسب المقاييس الحديثة. فقد اعتاد على استخدام قوة عمل كبيرة تزيح بالكامل تلالا من الترسبيات الأثرية.

ففى حفائره فى نواقراطيس سنة ١٨٨٥، استخدم بيتري مائة عامل وسبعة عملوا تحت إشراف اثنين فقط من الأوروبيين، مما أربك عملية صرف البقشيش (المكافأة) نظير العثور على الآثار الخفيفة،

وكان بيتري فى الواقع يتنافس فى ذلك مع تجار الآثار المحليين، مثل من سبقوه. وحاول حل المشكلة على أساس نوعى. كل نوع له ثمنه، فإذا حدث خلاف على السعر رفض شراء الأثر. والظاهر أن هذه السياسة أثبتت نجاحها. أدرك بيتري الأهمية القصوى للتبويب حسب التسلسل التاريخى أثناء إجراء حفائره فى نواقراطيس، وأهمية طبقات الحفر وأعماقها فى تصنيف التسلسل التاريخى للآثار. ونجح فى كثير من الأحيان فى تحديد تاريخ إنتاج الآثار التى حصل عليها. وحاول تحديد عمر المعابد والمباني بربطها بالطبقات الرسوبية.

ومن حسن حظه أن لكثير من الآثار الخفيفة على أعماق مختلفة يتألف من جعارين و عملات وأشياء منقوشة يسهل تحديد عمرها من النصوص المنقوشة عليها إذا وجدت من يحسن قراءتها. هذا الاتجاه كان جديداً تماماً لم يستخدم فى مصر قبل بيتري.

فى سنة ١٨٨٧، ترأس بيتري بعثة كشفية مهمة فى الفيوم عقب إنهاء عقده مع صندوق دعم الآثار اللندنى للعمل كوكيل مستقل. كان اهتمامه فى الفيوم. موجهاً إلى هرم هواره الذى أشاد به بلزوني منذ سبعين عاماً. ولم تكن ظروف العمل مريحة. إذ عسكر بيتري فى خيمة صغيرة، وكتب شاكياً «تصور كيف يمكن لإنسان ما أن يتكوى فى مساحة طولها ستة أقدام ونصف وعرضها مثل ذلك.. ومع السرير كان معى تسعة صناديق تحوى كل أنواع المؤن، بالإضافة إلى بانيو (الحمام) وموقد للطبخ ووزير (للشرب) وحامل للزير ذى ثلاثة أرجل ... وبعض الآثار (أيضاً). هكذا كتب على أن أعيش وأنام واغتسل ...

واستقبل زوارى». وكان يحفظ المومياوات المهمة تحت سريره زيادة فى الاحتياط.

وكان يعمل مع بيتري عدد ضخم من العمال، بدا له أنهم أحبوا العمل معه : «كان النفخ فى المزامير مستمرا، يصحبه الغناء والتصفيق والصياح، وحالة عامة من المرح وشق العمال خندقا يصل إلى قلب الهرم مصحوبا بالاستكشاف أولاً بلول داخل الهرم. ولم يؤد الخندق إلى شيء، إذ انتهى إلى سقف غرفة سميكا جدا ولم يكن الوقت المحدد لإنهاء الاستكشاف يسمح بنقبه.

ولكن بيتري حوال ذلك الوقت كان قد وجه اهتمامه إلى مجموعة مومياوات رومانية واردة من جبانة مجاورة ، قدر عمرها بسنتى ١٠٠ و ٢٥٠ ميلادية. كانت ألواح التوابيت الخشبية الخاصة بالمومياوات عليها نقوش بالشمع الملون تمثل صور وجوه بشرية (بورترية).

وهذا النوع معروف أنه كان قبل الوفاة ويلق على جدران البيوت ثم يسوى منه التابوت ويوضع فيه الميت ثم يدفن. وكانت الجثث تدفن فى أبنار جماعية لكل أسرة تحفر بجوار البيوت وتستعمل لجيل من الأفراد وربما أكثر، ثم تنقل من المقبرة الأسرية إلى الجبانة إلى الماعية الكبيرة المجاورة للهرم.

كل هذه البورترية ومعهما ستون صندوقا حاوية لكثير من الآثار الأخرى شحنت إلى متحف بولاق حيث كومت فى العراء تحت رحمة الرطوبة وأمطار الربيع. والتلف. وكاد بيتري يصيبه الفئيان وعندما أصر المتحف على الاحتفاظ بأحسن ما فى الرسالة من البورترية والمنسوجات.

رغم ذلك بقى لبيتري مامكنه إقامة معرض جميل لبعض البورترية والمومياوات فى صالة كبيرة من الجناح المصرى فى بيكادالى، هى القاعة نفسها التى أقام فيها جيوفانى بلزوني معرضه من قبل.

وكانت هناك فرصة بالطبع لدى الزوار الذين طال بهم العمر، لكي يجروا مقارنة بين المعرضين على أى حال كان معرض بيترى ناجحاً وحضره جمع كبير، وقد أظهر من الإقبال على المعرض أن المصريين قد ثبتت أقدامها وأصبحت علماً له احترام وتقدير كبيران.

فى الموسم التالى عاد بيترى إلى الموقع ودخل الهرم بنفسه، وقد وجد أحد صائدى الكتوز الألمان يعمل فى الفيوم بتصريح رسمى. لكنه لم يحقق نجاحاً فتحول إلى المواقع التى أعدها بيترى للحفر فى الأسابيع التالية. من أجل ذلك قام بيترى بتكليف رجلين بالحفر فى المقابر الملحقه بهرم اللاهون، كما كلف اثنين آخرين بالحفر فى أبو غراب حفظاً لحقوقه. هذان الموقعان الإضافيان كان بيترى يضطر لزيارتها مشياً على الأقدام لمسافة ١٧ كيلو متراً كل أسبوع.

وقد أبدى بيترى ضيقه لذلك فقال «كانت متعبة للغاية». احتاج كسر السقف العالق لغرفة الدفن بهرم هواة إلى شهر كامل لأنه كان من الكوارتز الصلب بطول ٢٠ قدماً وعرض ٨ أقدام وسمك ٦ أقدام. بعد أن دخل الغرفة وجد بها تابوتين حجريتين فارغتين، وكانت المياه تغمر الغرفة حتى وسط الزائر. بعد ذلك عثر على خرطوش يحمل إسم الملك أمنمحات الثالث (١٨٠٠ ق.م)، فتم بذلك تنسيب الهرم لصاحبه وتعريفه.

استمر العمل فى كشف هواة واستؤنف تنظيف وكشف المدخل الأصلي لحجرة الدفن. كانت الممرات كلها مسدودة بالطين نزع بيترى ملابسه وانزلق للداخل ليجرى قياساته. وفى هذه الأثناء كانت مجموعات العمال ترفع النفايات والأقذار، حتى أمكن رصد مكان باب الهرم الرئيسى. وجدت حجرة الدفن على عمق ٤٠ قدماً داخل الهرم ووجد بها مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتي وتابوت حجرى ضخيم. كانت كل الموجودات غارقة حتى الوسط فى الماء وقد أصابتها ملوحة شديدة تكفى قطرة منها لجعل العين تلتهب.

ويمكن بيتري من تحريك تماثيل الأوشابتي بالرقود في الماء وتحريكها
بقدميه. وكان تحريك التابوت الحجري أكثر صعوبة فدفقت خروم في غطاء
التابوت، لوضع البكرات حبال رفع ذات خطاطيف، بينما كان بيتري نفسه
وسط الأملاح ينظف التابوت من الرمل العالق به.

وقال عند ذكره لهذه الواقعة: «كنت راقداً أنظر مثل الجاموس». المهم أنه
أمكن نقل التابوت إلى مكان مضيء، لا يضطر فيه بيتري للخوض في ماء
عميق «وسط الخشب العفن والجماجم».

استمر العمل بكثافة في موسم ١٨٨٨ في اللاهون ومدينة العمال بكاهون
وهي القرية التي بنيت أثناء الأسرة الثانية عشرة لإيواء العائلات التي اشتركت
في بناء اللاهون .

أخلى بيتري كثيراً من بيوت كاهون للفحص فوجد بالبيوت أدوات نحاسية
ومساند قناديل وأثاث خشبي بالإضافة إلى أدوات أخرى نافذة. وعلى أساس
حفائر كاهون فبنى بيتري تصوراً معقولاً عن الحياة اليومية للعمال أثناء الأسرة
الثانية عشرة.

أما من سبقوه فكانوا يركزون إهتمامهم على الآثار والمقابر الضخمة على
حساب المدن والقرى البسيطة.

ومما يستحق الذكر أن مكتشفات بيتري الأثرية في كاهون كانت الأساس
الذي اعتمد عليه أنولف إيرمان في تأليف كتابه المعروف «الحياة اليومية في
مصر القديمة» الذي صدر سنة ١٨٩٥.

كانت كشوف بيتري في أبي غراب أقل أهمية من الناحية الأثرية، لكن
موقع المدينة نفسه كان له دلالة تاريخية. وقد قام بيتري بتنظيف وإخلاء جزئي
في المدينة وبالأخص الساحة الكبيرة المسورة بجوار المعبد. وأظهرت المعاينة أنها

كانت مخصصة لسكنى مجموعة من الأجانب. ولاحظ بيتري وجود فخاريات على الأسطح وشقفات تنتمي إليها فى البيوت.

وبالفحص ثبت أنها مصنوعة فى مرسينا ومماثلة لما عثر عليه شيلمان فى ميسنا باليونان، وما عثر عليه غيره فى الجزر الإيجية. من ذلك يثبت وجود علاقات تجارية بين المصريين والإجيين ترجع إلى سنة ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

زار بيتري ميسينا بنفسه بعد ثلاث سنوات وتحقق من وجود هذه الأشياء التى كانت مصر تستوردها، وتنتهى لنفس الفترة ومطابقة لما وجد فى أبو غراب (الفترة هى الأسرة ١٨).

من كل ذلك أظهر بيتري أن علاقات مصر التجارية مع ميسينا بدأت حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. التاريخ الذى بدأ فيه حضارة ميسينا، ثم تجددت بين سنتى ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا الأسلوب يعتبر من الأمثلة المبكرة على الاستفادة من الآثار بأسلوب يعرف بالمقابلة التاريخية أى إسقاط تاريخ أنوات ما معروف بتاريخ إنتاجها على الموقع الأثرى فى البلاد البعيدة لتحديد عمر هذا الموقع، وهو أسلوب مازال متبعاً حتى الآن فى دراسة الأزمنة العتيقة.

تحمس علماء الآثار العاملين بميسينا لهذه النظرية خصوصاً «جاردنر» تلميذ بيتري الذى قرر أن بيتري «أنجز فى أسبوع واحد أكثر مما أنتج الألمان فى عشر سنوات لتأكيد العلاقات بين ميسينا ومصر» وكان علم التاريخ وتسلسله قد استقر منذ عدة سنوات . وعليه كان يعتمد السير «آرثر إيفانز» فى تاريخه لقصر مينوس فى كريت، وأمكن للمرة الأولى إثبات أن المدنية المصرية لم تزدهر فى عزلة أو فراغ، ولكن فى ظل علاقات تجارية نشطة مع المجتمعات الأخرى. كذلك ثبت أن العلاقات التجارية قد عكست آثارها على السجل الأثرى.

تميز فليندرز بيتري عن غيره من هواة جمع الآثار بمعلوماته الواسعة النقدية الشاملة عن الشرق الأدنى وعلم الآثار الأوروبي. وقد يكون مع زملاء آخرين دائرة من الباحثين تهتم بالتعميم أكثر من التخصص وذات نظرة شمولية أكثر من التركيز على موقع واحد أو على مصر وحدها.

واعتماد تلاميذ «شليمان» و«إيفانز» و«بيتري» في أواخر القرن التاسع عشر على إحاطة بحوثهم الأكاديمية بجو من الزيارات الميدانية المتبادلة والمناقشات الحرة. بالإضافة إلى ذلك أتجروا في الآثار، وتراسلوا مع شخصيات العصر الفيكتوري النشطة بصورة جعلت أكثر الباحثين انشغالا في القرن العشرين يصيبهم الرعب من جدول أعمالهم (العبارة مبهمة ولعلها تعنى أن الباحثين وجدوا أن النهب كان على أشده).

كان بيتري يوقن أن الشهرة آتية لا ريب فيها، فلم يتعجلها. وفي نهاية الموسم كتب إلى صديق له يقول «أعظم ما يسعدني أن أتمكن من إصدار سلسلة من الكتب تظل أجيالاً وقروناً مرجعاً للحقائق والمعلومات في موضعها» وهذا الاتجاه يتعارض تماماً مع اتجاهات من سبقه، لأنهم نادوا ما اهتموا بنشر أى شيء عن أعماله، أو اعتنوا بتسجيل مصادر الآثار التي اكتشفوها.

كان بيتري من المؤمنين بضرورة استيفاء السجلات والشروح (الوصف)، وبالأخص السجلات، وقد ذكر خمساً من الخبرات التي استخدمها هو شخصياً في عمله :

أولاً: «الفن الرفيع المسمى فن اقتناء الآثار، وجمع المعلومات الضرورية عنها وتقدير أهميتها بدون مبالغة أو شطح، وإثبات الفروض واختبار صحتها باستمرار أثناء العمل، والمحافظة على كل ما هو مهم. ليس لنفسى فقط، ولكن لغيرى أيضاً».

ثانياً: «نسخ (تركيب) تاريخ يعتمد على الأدلة المتناثرة باستخدام المواد المتاحة مثل النقوش والأنوات والمواقع مع الأخذ (بكافة) الاحتمالات».

أما الخبرات الأخرى التى سجلها فهى :

ثالثاً: البيئة المائية (أى الموجود بها الأثر).

رابعاً: المسح الأثرى (الحفر والتنقيب).

خامساً: الأوزان (لعله يقصد إجراء المقارنات. المترجم).

هذه هى الخبرات والفنون التى يقول بيتري أنه التزم بها.

كان هدف بيتري هو النشر، والتخطيط الدقيق، والحفاظ المتقنة، وإمساك السجلات (التسجيل الدقيق). والتزم بذلك فى كل الأحوال، وهو ما يتعارض بشكل ملحوظ مع مرييت الذى استغرق ظهور كتاب عن السيرابيوم منه أربعين عاماً.

فى هذه الأثناء دخل بيتري -من حيث لا يدري- فى نوامة الصراع السياسى الشائك بسبب تصاريح الحفر وتصدير الآثار. وكان الفرنسيون منذ أيام مرييت قد سيطروا على الإدارة فى قطاع الآثار ولاحظ بيتري أن البنية الإدارية بالقطاع فاسدة وعاجزة، كما لاحظ أن تصاريح الحفر كانت تعطى لتجار الآثار أو للمستكشفين غير المؤهلين.

وكانت حالة المتحف نفسه يرثى لها. والموظفون يتسمون بعدم المبالاة. فتركوا الموميائات والتماثيل الثمينة مكسوة فى الممرات والهواء الطلق عرضة للصدأ والتلف، كذلك كان كثير منهم ضالعين فى معاملات مشبوهة مع تجار الآثار بالقاهرة.

وحضر بيتري نفسه إبرام صفقة من هذا النوع بين تاجر كبير وأحد أمناء

المتحف، ذكر أحد أصدقاء بيتري بعدها أن التاجر «انصرف وملء ذراعية كراتين (صناديق ورق مقوى)». كذلك أشار بيتري إلى أن «المتحف كانت له أحوال غريبة من المتاجرة بدون رقيب ولا حسيب».

فى ذلك الوقت ارتفعت الأصوات فى انجلترا مطالبة بالحد من تدمير الآثار المصرية وضرورة المحافظة عليها. وكان تبنى هذه النظرة نتيجة للمعارض التى أقامها بيتري ومحاضرات أميليا إيواردز ومنشوراتها. من أجل ذلك تأسست «جمعية الآثار المصرية» من نوى النفوذ والمكانة. وعند التأسيس طالبت الجمعية بضرورة توظيف مفتش مستقل من انجلترا، وهذا الاقتراح وقف ضده الفرنسيون بكل حزم.

شكلت لجنة للآثار لدراسة المشكلة، سيطر عليها الفرنسيون خصوصاً «جريبو» الذى كان متعاوناً مع التجار حسب ظن بيتري، استجابت بلا تردد لمشروع بيتري، وسرعان ما صدرت تشريعات جديدة تنظم تصدير الآثار جعلت من المستحيل على أية بعثة أجنبية أن تنقب عن الآثار فى مصر حتى بيتري نفسه حُرِّم من إجراء أى حفائر.

عند ذلك «اشتعل الموقف وانهالت الرسائل والاستجابات على البرلمان (الإنجليزى) بكثافة، كما قال بيتري وهو فى حالة انتشاء «وبذلت جهود سياسية مكثفة أدت إلى صدور قوانين حازمة لكنها أكثر مرونة تحدد بوضوح مواصفات الأعمال الاستكشافية، منها ضرورة النشر، وتضييق الخناق على التجار حتى لا يحققوا أرباحاً بأسلوب انتهازى».

كان الباحثون منذ سنين يسعون للكشف عن أصل المدنية المصرية قبل ظهور حضارة عصر الأسرات، وكانت هناك نظرية تدعى أن أول من حملوا مصر الموحدة غزاة أصلهم من بين النهرين (العراق). وتستطرد النظرية فتقول أن هؤلاء حملوا معهم إلى مصر مدنية وادى النهرين الأكثر تقدماً.

لكن ببيتري عثر سنة ١٨٩٤ على جبانة شاسعة بجوار بلدة نقادة، وبالحفر في الموقع استخرج هياكل عظمية مع كثير من الأواني والأثاث المقبرى. ولاحظ ببيتري أن الأواني الفخارية لهذه الحضارة لا تنتمى إلى الحفائر الذى عثر عليها في مقابر الدولة القديمة إذ كان أكثر اتقاناً وينبئ عن حضارة تأصلت وأسست جنورها في وادى النيل في البيئة المصرية الصميعة.

كان أول انطباع لدى الأستاذ في موقعه الأكاديمى الجديد أن حضارة نقادة وافدة من ليبيا (لا العراق). لكن مع استمرار الحفائر لاحظ ببيتري أن الجبانة كانت مكتظة بالجثث منذ العصور العتيقة.

ثم واصل ببيتري حفائره للكشف على ما فيها، وتمكن في سنة ١٨٩٤ من الكشف عن ألفى مقبرة، وبعد سنوات قليلة من مواصلة الحفائر عثر على مدفن ملكى في نقادة نفسها، وهو دليل قاطع على التواصل بين الحضارة العتيقة بثوائل حضارة عصر الأسرات، بذلك ثبت أن الحضارة المصرية القديمة جنورها ممتدة إلى حضارات سابقة له في العصور العتيقة قبل عصر الاتحاد، وأنها نمت وتأصلت في وادى النيل نفسه. وكان لبيتري أسلوبه المميز الذى ظل يطوره بنفسه في الحفر والكشف واستخراج الآثار الموجودة بجبانة نقادة .

يلخص ببيتري أسلوبه هذا كما يلى :

الخطوة الأولى إرسال أولاد (مهاراتهم محدودة) لتحسس الأماكن سهلة الحفر (اللينة) في أرض الجبانة، وحالما ينظفون حافة المرقد المقبرى يصرفون على الفور. بعد ذلك يتولى العمل عمال عاديون (مهارتهم غير عالية) يقومون بتنظيف المرقد حتى يلمسوا (بالفتوس) الأواني الفخارية داخل الحفرة.

بعد ذلك يتولى عمال من الدرجة الأولى (في المهارة) يقومون بإزالة الأتربة حول الأواني الفخارية والمومياءات دون أن يحركوها من مكانها وأخيرا

يأتى نور (على السوفى) البارع لتنظيف الموجودات تماما من آثار الأتربة، بحيث يكون كل شىء فى الحفرة وما بها من عظام وأزدار... إلخ - ظاهراً للعيان وهنا ينتهى العمل».

يقول بيتري : «درست الفخار الموجود فى القبور بعناية حسب أشكاله وزخارفه». ومما لاحظته بيتري حدوث تغير تدريجى فى حجم الأواني، كان أكثر ظهوراً فى مقابض نوع معين من الجرار. كانت التصميمات الفخارية المبكرة ذات وظيفة عملية لتسهيل الاستخدام اليومى، ثم بدأ يضاف إليها أشكال زخرفية تحولت مع الزمن إلى مجرد خطوط ملونة. وكشف عن جرار شبيهة فى مواقع أخرى مثل نيوستوبوليس بارفا تمثل حضارات ما قبل الأسرات كانت منسجمة مع الآثار الجنائزى.

بعد ذلك اكتشف بيتري مقابر أخرى، استطاع بعد فحصها من تصنيف الآثار الجنائزى فى مجموعات على أسس «مرحلية» تنسب لفترات متتابعة دل عليها التطور الأسلوب فى صنع الجرار.

أطلق بيتري على أولى المراحل اسم المرحلة الثلاثينية، وهى مرحلة لم يعثر فيها على ما يدل على وجود مجتمعات قبل أسرية. وتوالى مراحل التصنيف، وبعد خمسين مرحلة وصل إلى المرحلة الثمانينية، التى واكبت المرحلة الأسرية زمنياً، هذا التصنيف يعتبر أول محاولة لوضع تسلسل زمنى لمصر ما قبل الأسرات، ومنذ ذلك الوقت التزم بيتري وغيره بهذا الأسلوب فى كافة الحفائر فى وادى النيل بعد ذلك.

تعتبر نظرية بيتري عن التتابع التاريخى واحدة من أهم إنجازاته لأنها تسهل دراسة الآثار التى يستعصى تنسيقها بوسائل أخرى. وتزيد دقة التقديرات كلما زادت كمية الآثار المكتشفة. وقد علق بيتري على ذلك فقال : «لا أجد ما يبرر الغرض من أهمية العصور التاريخية الموثقة».

وهى نظرية تفاؤلية ذكرها بيترى فى كتاب له ظهر سنة ١٩٠٤ بعنوان «طرق وأهداف البحث الأثرى» ضمنه ما توصل إليه فى هذا المجال، هذه النظرية فى فحواها ليست أكثر من شكل معدل لترتيب الآثار لا يعرف تاريخها على أساس تطورى. على أى حال كان ظهور هذه النظرية خطوة جريئة ساهمت فى تحسين الأساليب التاريخية للآثار المصرية.

أدت استكشافات بيترى ذات الطابع الابتكارى إلى القيام برحلات عديدة بطول مصر وعرضها. لكن الصراع بينه وبين مصلحة الآثار والمتحف لم يهدأ، إذا لم يسكت بيترى عن الاعتراض والإدانة للصفقات سيئة السمعة بين المصلحة وتجار الآثار.

وفى سيرته الذاتية المعنونة «سبعون عاما مع الآثار» يروى لنا بيترى كثيرا من «خطايا الزملاء الفرنسيين». من ذلك أن باحثا عالميا (فرنسيا) قام بكشف فى مقبرة أبيدوس الملكية، فلم ينشر دراسة عنها، والأدهى «أنه استعمل ما وجده من الأعمال الخشبية الخاصة بالأسرة الأولى كوقود فى مطبخه». أما ما اقتناه فقد تبعثر بين شركائه الذين مولوا الكشف حتى بيعت فى مزاد علنى بباريس.

وكان بيترى يرى أن خلفاء ماسبيرو فى إدارة المتحف كونوا صفا من الموظفين عديمى الكفاءة. ووصلت الأمور إلى الحضيض فى عهد آخرهم. فيكتور لوريه. ويذكر أن لوريه بلغت به السلبية واللامبالاة شأوا بعيدا، وكان كما يقول بيترى إذا نبهه أحد إلى إحدى حالات السطو والتلاعب فى الآثار ولو كانت واضحة، لا يزيد على أن يصيح «هذا مستحيل هناك قانون».

فى هذه الأثناء تجدد عقد ماسبيرو بشروط جيدة وراتب مجز بلغ ١٥٠٠ جنيتها فى السنة خلاف البدلات. وصرح ماسبيرو لبيترى بالحفر فى أبيدوس ومعالجة القوضى الضاربة هناك.

وتمكن بيترى عند بدء العمل هناك من كشف مقابر أربعة ملوك من
فراعنة الأسرة الأولى الثمانية، ومقبرة إحدى الملكات.

وهؤلاء جميعا تمكن من تمييزهم وتحديد أسمائهم وشخصياتهم.
وبالإضافة إلى ذلك كشف بيترى عن أكثر من ثلاثة آلاف مقبرة من مقابر
الخدم والعاشية. واستغرق العمل فى هذه الكشوف من ٢٢ من يونيو سنة
١٨٩٩ إلى مارس سنة ١٩٠٠.

ونالت كشوفه فى أبيدوس ما تستحقه من أهمية لأنه قام بتسجيلها
ونشرها. وفى ٢٢ من يونيو من نفس السنة (١٩٠٠) انتهى بيترى من فهرسة
التواريخ وكان للفهارس وقعا عظيما لأن نشرها واكب عرض مكتشفاته فى
لندن.

كذلك شعور جماهيرى جيد، فبدلا من الإهتمام بفنات الزينة والآثار
المهرية، تجمهر الزوار حول المناضد يشاهدون بافتتان المعروض عليها من
كسرات وشظايا الأسرة الأولى حتى أن بعض العمال أمضوا استراحة ساعة
الغذاء فى غرفة العرض.

لم ينقطع النزاع بين بيترى وأصوص الآثار والتجار فى الجزء الأول من
المدة الطويلة التى قضاهما بيترى فى الاستكشاف. ورغم أن أبيدوس لم تكن
المكان الذى يسهل فيه ممارسة السلب والنهب، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرض
بيترى لممارسات من هذا النوع. وفى إحدى المرات كان بيترى يعاين اثنى عشر
مبناً ملحقاً بالمعبد الكبير، أثناء ترميمها. وأثناء تجوله للإطمئنان على جودة
التشطيبات وألوان الأخابيد، تسلل لص إلى حديقة بيته محاولاً سرقة تمثال ثقيل
وزنه مائة رطل والهروب به.

لكن قدميه لم تسقطا فوق على الأرض وأمكن اعتقاله. لكن اللص أطلق
سراحه لأنه قدم رشوة لرجال الشرطة. وفى مرة أخرى اقترب رجل من الكوخ

وأطلق غدارته عشوائيا فكادت تصيب الرصاصية السيدة بيتري، ولكن الله سلم وطاشت الرصاصية .

عندما أعيد اكتشاف مقبرة في لاهون سبق أن تعرضت للنهب، اتخذت احتياطات أمنية مكثفة. ووجد بيتري التابوت الحجري في المقبرة فارغاً، فلم يتوقع أن يعثر على شيء ذي بال. ووجد بجوار التابوت اختاماً اسطوانية ذهبية دقيقة الصنع، فصرف العمال فوراً ولم يستبق منهم سوى واحداً مع تلميزة «برانتون» لإحساسه أنه يصدد الكشف عن خبيثة ثمينة. شرع بيتري وبرانتون في جمع القطع الذهبية.

وكان برانتون يلزم المقبرة صباح مساء لتخليص الكنز في المقبرة وتنظيف الاختام متحاشياً إتلافها، ثم تصويرها وتغليفها أولاً بأول.

رغم ذلك كان بيتري يخشى تعرض الكنز للسرقة فحذر كل العاملين معه وأمرهم بالكتمان وعدم الحديث أو الكتابة عن الكنز الذهبى المكتشف.

وثبت أن المجموعة تنتمى إلى الأسرة الثانية عشرة. هذا الكنز اشتراه متحف المتروبوليتان بنيويورك بعد مفاوضات طويلة لم تنجح في بيعه للمتحف البريطانى.

كان نشاط بيتري وسرعته فى الإنجاز مثار دهشة الباحثين بعده. وكان من عادته قضاء الشتاء بطوله فى مصر منهمكا فى الاستكشاف الأثرى، ثم يعود لولده حيث يقضى الربيع والصيف ليكتب عن كشوفه ويقيم المعارض. وكان بيتري يتميز بغزارة الإنتاج، فيصدر كل سنة كتابا على الأقل، بالإضافة إلى محاضراته الجامعية والعامة.

وكان ينظم ويحضر حلقات البحث فى مقر عمله بجامعة لندن. وفى حياته الكشفية التى استغرقت اثنتين وأربعين سنة زادت كشوف بيتري عن كشوف

مريت نفسه. وقد حقق من النتائج أكثر مما حقق سابقوه أو الحقوه. ويمثل اكتشاف مدينتي نقراطيس وكاهون عن نقوش العمارة ومقابر أبيدوس والأختام الذهبية بها جانبا يسيرا من إنجازاته.

ويمكن اعتبار بيتري باحث حضارة مصر العتيقة بعد أن كانت راقدة في نقادة، وفي ديوسبوليس. وبيتري هو الذي عثر على لوحة مرنبتاح. أول أثر مصري يشير إلى الإسرائيليين، حتى أن أحد زملائه علق على الكشف بقوله «فليهننا الكمجليون» أي الحاخامات.

والخلاصة أن بيتري كان من المبتكرين في فنه، وسابقا لعصره، ورغم ذلك كان يجد نفسه مضطرا لبيع الآثار التي يجمعها إلى متاحف أوروبا ليمول استكشافاته. مع كل هذه المزايا كان بيتري ضيق الصدر حاد الطبع لا يعبا بشخص ومركز من يجادله، لدرجة أن الكاتب الموهوب «جيمس بيكي» الذي له مؤلفات كثيرة عن مصر القديمة لم يسلم من حدة لسانه، فقال يسخر منه «إنه رجل أنيس (يقصد محبا للثروة).. يجادل كل من هب ودب بلكنة يونانية ويفنى الأغاني الاستكلندية بطريقة منفردة».

ولما كان بيتري لم يتلق تعليما نظاميا فإنه لم يهتم أويعبا بالإطلاع على مؤلفات معاصريه مهما كانت قيمته. كذلك كان من طبعه الإصرار على أن الحق دائما معه. ولاشك أن هذا شيء غير مستساغ ولا مرغوب فيه في مجال علم الآثار.

لم تقتصر إنجازات بيتري على تأسيس مدرسة إنجليزية في المصريات، ولا على إدخال أساليب جديدة لها احترامها في الحفر والتنقيب إلى مصر، بل زاد على ذلك أنه درب بنفسه جيلا كاملا من الأثريين الذين تتلمذوا عليه في الهيروغليفية وتلقوا عنه أساليبه في الحفر والبحث عن الآثار.

ومن تلاميذه من أدخل بعض التحسينات على هذه الأساليب.. كان «هوارد كارتير» ممن عملوا معه، كما عمل معه آرثر جاردنر في نقراطيس قبل انتقاله إلى أثينا ليدبر مدرسة الآثار بها. وهناك عاون أستاذه في الكشف عن واردات ميسينا من السلع المصرية. ويجدر بنا أن نذكر أن السير «آلان جاردنر» من ألمع علماء المصريين في العصر الحالي، وكان متحمسا لبيتري وقضى عمره في دراسة الهيراطيقية ونصوصها. ويعتبر كتابه قواعد اللغة المصرية «الصادر سنة ١٩٢٧ مرجعا أساسيا للطلبة في دراة اللغة المصرية القديمة.

ومن تلاميذه النوابغ «جى برانتون» الذي دخل دائرة الضوء بكشفه عن كنز اللاهون، ثم أصبح واحداً من أشهر الأثريين لاكتشافه بعض مقابر وقرى عصر ما قبل الأسرات.

أما تلميذته العظيمة «جرتروود كاتوين طومسون» فكان لها السهم الوافر في اكتشاف أقدم المزارع المصرية في منخفض الفيوم في عشرينات القرن العشرين، قبل أن تتوجه للواحات الخارجية بحثا عن حضارة صيادي العصر الحجري القديم. هذه الباقية من التلاميذ النوابغ ما أحراها بالتنويه.

خلاصة

انقضى أكثر من مائة وخمسين عاماً منذ نفخ بلزوني عن قدميه غبار الاسكندرية لأخر مرة، لكنه لو قدرت له العودة لوقعت عيناه على كثير من المناظر المألوفة له .

فالأهرام مازالت شامخة في مكانها كالقلاع، وأبو الهول مازال رابضاً في مكانه يحوم حوله السياح الفضوليون، والشمس مازالت تشرق وتغرب الصحراء الشاسعة بنورها، وتنتشر على الأراضى الزراعية الخضراء على ضفتي النيل،

وما زالت حرارة وسط النهار الحارقة تطوق هواء المعابد الكثيف أو المقابر الملكية كما كان الحال منذ قرون، وما زالت السفن ذات الأشرعة البيضاء تمخر عباب النهر في المسار نفسه الذي كانت تسير فيه الزوارق والقوارب التي استخدمها بلزوني وهو يحقق اكتشافاته العظيمة.

فهناك نوع من الخلود في وادي النيل لا ينال منه مر السنين والأحقاب ، ومن يزور مصر يستنشق ما كان يستنشقه المصريون القدماء أنفسهم من غبار ساخن ومن رائحة عشبية، ومن روائح النيل المنساب إلى الشمال، وكل سنة في دقة الساعة يأتي الفيضان ليقلب الخصب ويرعى الزراعة التي لم تتبدل طرقها كثيراً من أيام الفراعنة (هذا رأي المؤلف ويبدو أنه غير مطلع على النهضة الزراعية في مصر وطرق الزراعة الحديثة المتبعة الآن. المترجم)، هنا يحس المرء بحالة من التوازن الحق والصدق كما كان القدماء المصريون يحترمونه (أي القانون) ليتلاموا مع بيئتهم المستقرة (التي لا تتغير).

كان حضور بلزوني إلى وادي النيل مواكباً للوقت الذي ظهرت فيه الدنيا للمرة الأولى أمجاد حضارة مصر القديمة، وكان ما جمعه علماء بعثة نابليون (وعرضوه في أوروبا) قد بعث الحرارة في علماء أوروبا، وتسبب في تهاافت المثقفين على المتحف المصرية في العواصم الأوروبية.

وكان المتحف البريطاني قد تسلم لتوه حجر رشيد، كما كان اللوفر قد فرغ بالكاد من فك العبوات المحتوية على الآثار التي جلبوها من مصر، وامتلات نفوس الناس بالرغبة الجارفة في حيازة كل جميل غريب، فعملت المتاحف القومية على اقتناء كل ما هو فريد من نتاج المقتنيات الغريبة.

وكان من الأولويات في قوائم الشراء لأمناء المتاحف. التحف والآثار المصرية، ومن ثم بدأ التهاافت على نتاج المدنية المصرية القديمة، وبدأت حملة

شرسة هدفها نهب آثار مصر تحت دعوى الظروف الدبلوماسية أو البحث الثقافي من قبل أناس فارغين (المقصود أغنياء منعمين لكن غير مؤهلين. المترجم).

وتفاقم الوضع حتى أدى إلى التخريب، والطمع والكسب غير المشروع، وقد بدأ علم الآثار سواء في مصر أم في غيرها من الأمم بسلب الكنوز الأثرية، وبالتدريج تحول إلى نظام عام مسلح بالطرق والتقنيات التي عرفت في الزمن المعاصر (القرن العشرين) وأصبحت متبعة في تنفيذ العمل الميداني في مواقع الآثار.

لكن عندما بدأ تطبيق هذه التقنيات الحديثة كان الكثير من تراث مصر القديمة قد فقد إلى الأبد، إما على أيدي صائدي الكنوز، أو جامعي الآثار معدومي الضمير، أو السياح الفضوليين.

لم يكن رجال حملة نابليون في تكالبهم على جمع الآثار المصرية يشذون عن القاعدة الإنسانية في حب التملك. وكان الأثريون القدامى - دائماً يسيطر عليهم حب البحث عن الآثار ونهبها، أو على الأقل نقلها إلى مكان آخر حيث يمكنهم ملاحظتها وتأملها في هدوء بعيداً عن جوها المحلي (واضح أن كل هذا الكلام المعقد معناه استسهال زيارتها في أي وقت).

وسرعان ما تدخلت عناصر القومية والطمع الأجوف من جانب الدبلوماسيين والحكام الإلمام بمصر القديمة والتعرف على حضارتها المبهرة، وليس هناك شك في حقيقة أن مصر كانت أعظم ممثل للحضارات القديمة، كان مجتمعها قوياً متماسكاً قمع الإسرائيليين، وعانى من الأوبئة الفتاكة (الطاعون). فصعد للمحن حتى احتل مكاناً مرموقاً في التاريخ، ولكن ما يدعو إلى الأسف أن المعرفة عادة ما تقترن بحب التملك والتربح في ذهن كثير من الناس.

ليس اسهل أن توجه اليوم اللوم إلى أمين متحف أو جامع آثار في عهد
ولى منذ مائة وخمسين عاماً، على مبادئ السلوكيات التي كانت تحركهم، لقد
كانوا حينما تولوا لا يرون إلا معابد تحطم وتماثيل تكسر ومقابر تنهب بحثاً عن
الجواهر(الكنوز).

لم يكن الأمان متوفراً في مصر، لكن إذا وقعت بردية في يد المتحف
البريطاني فسوف تفيض وتفرد بعناية وتنجز من التلف تحت رعاية أعظم متاحف
العالم، وعلى رأى «زواليس بادج» فإن أى مومياء تعرض في المتحف البريطاني
ستكون في وضع أفضل كثيراً، من نظيرتها في مقابر طيبة المعرضة للنهب.

فمثلاً لا يجرؤ أحد على انتهاك أى مومياء بالمتحف البريطاني أو
تحطيمها، كانت التكتيكات الشرسة التي تجرى في تجارة الآثار عن طريق
القطاع الخاص، مع القيام بالحفائر الأثرية سرا تحت حماية السلطة (الظاهر
أن السلطة المقصودة السلطة الدبلوماسية) كان مما يمكن التفاوض عنه في
مقابل عدم وجود أى وسيلة أخرى (في ذلك الوقت) لإنقاذ تراث مصر القديمة
من الضياع.

وقد أثار كثير من الناس السؤال الآتي: «ما حاجة المصريين لماضيهم؟» ثم
إن حكومة الباشا كانت لا تكف عن تحطيم الآثار وإهدائها (للأجانب) طول
الوقت، فإذا انتقلنا إلى الفلاحين لوجدناهم لا يراعون حرمة المقابر والمعابد
القديمة ولا يشعرون بالانتماء إلى مصر القديمة. كل ما يهمهم كان ثمن الجثث
(المحنطة)، لم يكن في مصر احساس قومي مثل ذلك الذي ثار في اليونان
عندما استولى اللورد «الجرين» على الأقاريز المرمية من بوابة البارثينون
(موجودة بإسمه في المتحف البريطاني الآن)، وأمن معظم مندوبي المتاحف
والسياح منذ قرن ونصف أن المصريين القدماء أنفسهم استباحوا محتويات
المقابر الملكية.

لقد انتهكوا أكثر الأماكن قدسية والمقابر الملكية جريا وراء الذهب والثرء الذى يمكنهم من الحياة حياة ناجحة ومقابلة تكاليف الحياة اليومية. وهذه الخطيئة التى بدأها الأسلاف ورثها الأخلاف، وكان جامعو الآثار فى القرن التاسع عشر ينظرون إليها بإزدراء، وإنما حقا لمعجزة أن يكون قد بقى شىء حتى الآن نتمتع به (من ذلك التراث).

أمكن لرواد الكشف الأثرى مثل بلزونى وباج أن يستتقنوا كثيرا من النتاج الرائع للعصور الفرعونية، رغم أنه لا يمكن التقاضى عن أساليبيهما البدائية العنيفة فى الحفر، وعلى سبيل المثال لا الحصر أمكن استنقاذ بردية أنى وكتاب الموتى والمخطوطات القبطية.

وهى موزعة بين المتحف البريطانى والوفر. هذا بالإضافة إلى عدد من التماثيل والمسلات والكنوز الأثرية الجميلة، وهؤلاء الرواد رغم عيوبهم وأخطائهم كان لهم الفضل فى جذب أنظار العالم إلى مصر، وإلى الاهتمام بآثارها، والإيمان بضرورة صيانتها وحفظها للأجيال القادمة ولولا جهودهم لفقدت واختفت من الوجود^(١).

والذى يدرس تاريخ المصريين سوف تقابله أسماء عمالقة، نخس بالذكر منهم شمبليون وويلكنسون اللذان فتحا الباب للدارسين بالتغلب على مشكلة قراءة الهيروغليفية، وهناك مرييت -أيضا- الذى بدأ حفائره فى مصر ممثلا لمتحف الوفر.

وما لبث أن أصبح كبير الدعاة للمحافظة على الآثار وصيانتها من أجل

(١) قلت : أرى أن تطالب مصر بهذه الآثار بعد أن عرفنا قيمتها وصورتنا نحافظ عليها فهى تاريخنا ، ونحن أحق بها مع نشر المزيد من الوعى بقيمة آثارنا ، وأن يدرس بالمدارس والجامعات مادة الوعى الأثرى والسياحى ضمن مادة التربية الوطنية ، وأن يدرس أيضا باب عن أهمية المحافظة على الممتلكات العامة الحديث منها والقديم ، وأن تنتشر هذه المادة فى أجهزة الإعلام خاصة التليفاز .

العلم والسياحة الرشيدة، وأخيراً وليس آخراً لا يجب أن ننسى بيقى أول من أدخل التقنيات الحديثة فى الحفر والتقيب عن الآثار.

وأدت دعوة شمبليون العبرى، ومرييت صاحب الحماس والحيوية إلى تأسيس متحف للآثار يحميها من النهب والتخريب، وأصبحت مصر أول دولة فى الشرق الأدنى تقوم بتأسيس المتاحف القومية لحفظ الآثار، ولا يقلل من شأنها أنها بدأت متواضعة فى أحد الحدائق الخلفية فى القاهرة، ولا تأثرها فى عملها بالضغوط السياسية أحياناً، فقد كف الدبلوماسيون بالتدريج عن إقحام أنفسهم فى مجال الآثار وعادوا للإهتمام بأعمالهم الدبلوماسية الأصلية.

كذلك أصبح السياح أكثر اهتماماً بزيارة الأماكن الأثرية والاستمتاع بالتراث وأبعدوا أنفسهم عن الانغماس فى سلب الآثار أو تخريبها، كذلك أصبحت مصر نفسها بلداً مهماً فى ذاتها وأصبحت قبلة للسياح الذين أصبحوا يزورون معالمها الأثرية كالأهرام والمعابد كجزء من البرنامج السياحى للزيارة

يمكن القول إن السياح والمتقنين - إلى حد ما - كان لهم دور فى إنقاذ آثار مصر، وظهر أول قانون لحماية الآثار فى مصر سنة ١٨٢٥، وكانت فعاليتها محدودة لعدم توافر وسائل تنفيذه، وكان عرض آثار مصر المنهوبة فى أوروبا المنبه الذى أيقظ رأى العام العالمى لضرورة وضع حد لنزيف آثار مصر لأنها ملك للإنسانية جمعاء.

وأدركت الجماهير أن عنف مرييت فى رفض طلب أوجينى إمبراطورة فرنسا للحصول على مجوهرات أثرية تخص متحف بولاق، كان له ما يبرره، ومن جهة أخرى كانت السياحة قد تطورت إلى نشاط، وتجارة ونشطت حركتها، لذلك تساعل المهتمون بالسياحة كيف يمكن أن تزدهر الحركة السياحية إلى مصر أن خلت من المعابد والمقابر القديمة ومن متاحف الآثار؟ وماذا يفعل السياح وماذا يزورون؟

كان المنطق المدروس والبيروقراطية البريطانية الفعالة في مصر- في ذلك الوقت- وراء ظهور اتجاه يرمى لتغيير بعض عادات الجمهور المصري ، وكانت سياحة أميليا إواردن في مصر قد تمت خلال مدة طويلة تميزت فيها الحالة السياسية بالاستقرار.

وكانت مصلحة الآثار قد أخذت في تشديد الحراسة على الآثار وتعيين المفتشين والوكلاء النابهين لحماية الآثار من النهب والتخريب، والاستيلاء عليها بطرق غير قانونية.

وبالطبع لم يسلم الأمر من وجود حالات صارخة من العبث والنهب المشبوه للمقابر الأثرية، ارتبط بعضها بأسماء متاحف أوروبية محترمة، لكنة الاتجاه الجماهيري والأخلاقيات الأثرية كانت قد تحولت لصالح المحافظة على الآثار واتباع الطرق العلمية في الكشف الأثرية.

وحتى أولئك الذين استهواهم تلطيخ الآثار بكتابة أسمائهم (أو تعليقاتهم) عليها أصبحوا يواجهون بالشجب والاستهجان لهذه الخطيئة الشنعاء، وصارت عملية نزع الآثار من مصر أكثر صعوبة، وأصبح هناك تأييد لدعم متحف الآثار بالقاهرة ليكون على رأس المتاحف التي يحتفظ فيها بالتراث المصري القديم على مستوى العالم، وسرعان ما سوف تتكون هيئته من المصريين بالكامل.

أدت غطرسة الامبراطورية البريطانية وتعاليتها إلى تنامي الشعور بالوطنية في مصر، وحلت في النفوس رغبة مكبوتة في التخلص من النفوذ الإمبريالي البريطاني، وصاحب ذلك تزايد الإحساس الوطني بالتواصل التاريخي مع الماضي.

وانعكست هذه الوطنية على الأحداث التاريخية التي يعرفها الجميع، لكنها انعكست -أيضا- على رفض «الامبريالية الثقافية» التي ترمى إلى نقل خير ما

فى مصر من تراث الماضى إلى بيئات أجنبية، وقد ألهب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ (المقصود كشف مقبرته) الشعور ضد الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية بواسطة الأجانب على الرغم من تخلى عائلة اللورد كرنرفون عن محتويات مقبرته للمتحف المصرى .

وفى عشرينيات القرن العشرين بدأت نقل بالتدريج قرص الكشف الأثرى أمام الأجانب، وفى الوقت نفسه بدأت الخلافات بين المتحف المصرى والمتاحف الأجنبية تزداد حدة لرفض المتحف السماح بنقل الآثار للخارج.

لكن الخلافات خفت حدتها بعد مدة ورأت مصر فى المصلحة أن تستأنف السفاح للآثرين الأجانب بمعاودة الاستكشافات الأثرية، وهذه المرة كان السماح مشروطا فى ظل ظروف جديدة وتحت السيطرة المصرية.

تغيرت فى وقتنا الحالى الأجواء الفكرية بالنسبة للآثار بحيث أصبحت عاملا فى زيادة الانتماء القومى وأصبح الناس أكثر إدراكا لأهمية الآثار والوعى بإدراك بما يمكن أن يؤدى إليه التنظيم فى مجال الدراسة الصحيحة للجنس البشرى، ويوجد تراث مصر القديم- الآن- مبعثرا فى كثير من الدول.

وتتراكم التوابيت والتماثيل المصرية القديمة فى مخازن المتاحف وأروقتها وقد علتها الأتربة، وكانت هذه الآثار أصلا من مقتنيات هواة جمع الآثار، تنازلوا عنها بعد ذلك للمتاحف، وجاءت نتيجة تكثيف الحفائر فى مواسم قصيرة يقومون (هواة الآثار) بتمويله. وكان اهتمامهم بالكم -دائما- فوق اهتمامهم بالكيف، وحل محل هذا العبث الذى استمر خمسين عاما موجة من الإتجار فى الآثار بطرق غير قانونية يحكمها مبدأ العرض والطلب لاستيفاء رغبات المتاحف والعملاء الأثرياء، هذه الظاهرة سجلها الصحفي المعروف «كارل ماير» فى كتابه «الماضى المنهوب، واستهجنها» وأدان هذا العمل الذى تمتد جذوره إلى بلزوني ومن يشاكلونه.

والكتاب يشبه عريضة دعوى ضد التخريب الذى ينال آثار مصر فى القرن العشرين، ويصف «ماير» الوعى الجماهيرى بخطورة المشكلة بأنه مفقود «فى درجة الصفر» ويقول إن ذلك سببه سهولة تفهم أهمية الآثار للبشرية من الوجهة النظرية، وصعوبة تكوين وعى أثرى لأن المشكلة نادرا ما تثار فى الصحف، ويخلص المؤلف إلى أنه من الصعب إقناع دافعى الضرائب بجذوى الصرف على تمويل الكشف الأثرية على حساب أولوياته الأخرى.

حدثت الحكومة المصرية من السماح بالتنقيب عن الآثار، متبعة فى هذا الصدد. سياسة قومية، لكنها كانت تصرح أحيانا ببيع الآثار المكررة التى لها نظائر بمتاحفها ولا تألوا جدها فى الاتصال بالمؤسسات الخارجية لصيانة ما لديها من تراث مصر الفرعونية والمحافظة عليه.

ورغم ذلك لم يتوقف السطو على المقابر ولا التخريب فى معبد دندرة، ومازال اللصوص يبحثون عن البرديات ، ومازالت تجارة الآثار بصورة غير قانونية موجودة، وهذا كله ممكن فهمه، فدأب المتلاعبين -دائما- الخروج على القانون سواء فى الآثار أم فى غيرها، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ... والمهم أن قطاع الآثار -حاليا- تحت السيطرة الحكومية.

لتشجيع السياحة والحفاظ على الماضى، توجه المصريون بنداياتهم إلى العالم كله لأن التراث ملك للبشرية جمعاء، وعند بناء السد العالى تم الاتصال بالهيئات الدولية وجرت محاولة تحت إشراف اليونسكو لإنقاذ معبدى أبى سنبل وآثار النوبة من الغرق خلف السد تحت بحيرة ناسر.

وقام مئات من الأثريين بتمشييط المنطقة التى سوف يفرقها السد وهى آلاف من الأميال المربعة، وأفلح النداء الذى وجه للعالم فى زيادة الاعتمادات، لنقل تماثيل معبد رمسيس الثانى إلى موقع جديد عال مرتفع عن مستوى ماء

بمحيرة ناصر وقد تولى التنفيذ هيئات دولية استعانت بالمقاولين والأثريين وجاءت النتيجة باهرة تماماً.

والآن، مازالت الشمس تشرق على باب المعبد الأصلي كما كانت أيام بزلونى وصحبته، وإن كان المكان غير المكان، والكاشف وقراه قد اختفت إلى الأبد، وقد كوفى المشرقون على النقل بالسماح لهم بالاحتفاظ ببعض الآثار الصغيرة التى وجدوها، ومما يقلل من حدة المشكلة أن المواقع الأثرية التى لم يمكن انتشالها سجل معظمها بدقة قبل أن يندثر إلى الأبد.

بعد ذلك نفذت منظمة اليونسكو مشروعاً طموحاً، هو إنقاذ معبد إيزيس بقيلة بنقله من موقعه الأصلي الذى كان يتعرض للغرق سنوياً. منذ إنشاء سد أسوان القديم، وقد أمكن للمهندسين بناء صورة طبق الأصل من الجزيرة الأصلية نقلوا إليها محتوياتها قطعة قطعة إلى مكانها نفسه (الملخص أن جزيرة فيلة بما عليها قد استنسخت بكاملها)، والآن ليس هناك من يعرف عن فيله الأصلية أى شئ، أما العالم فأسعده هذه النسخة منها حيث حافظت على التحفة المعمارية الرائعة (المعبد) سليمة.

لكن مشروع السد العالى له سلبياته، فقبل ذلك كان ماء الفيضان يغسل التربة ويمدها بالخصب، ولكن بعد السد ازدادت ملوحة التربة، وظهر تأثيرها على المحاصيل وعلى المعابد أيضاً، وهناك جهود تبذل من عدة مؤسسات نخص بالذكر منها مؤسسة جيتى ومعهد الدراسات الشرقية التابعة لجامعة شيكاغو (أسسها جيمس بريستيد) هذه الجهود هدفها تسجيل النقوش وترميم المعابد، للحفاظ على ما يمكن إنقاذه قبل قوات الأوان، وهذا للأسف سياق ضد الزمن وليس فقط ضد لصوف الآثار، فتغير المقتنات المائية لها تأثيرها على المدى القصير والطويل. حيث تزيد الملوحة فتؤدى إلى تدهور حالة الآثار، هذا بالإضافة إلى كثافة السياحة إلى هذه الأماكن وما تنطوى عليه من سلبيات.

أثرت طائرات الجامبو على النسيج السياحي المصرى وأدت إلى تغيير جذرى فى النمط السياحي، فقد كان السياح حتى ستينيات القرن الحالى (العشرين) يستعملون وسائل بطيئة نوعا كالسفن والطائرات المروحية وطريق قناة السويس، فمنهم من كان يمضى أياماً قليلة فى السياحة، ومنهم من كان يقضى الشتاء كله فى مصر، لكن النمط الذى أصبح سائداً -الآن- هو السياحة الكثيفة السريعة.

لذلك صار ضغط الزوار ثقيلًا على الأقصر والكرنك ودندرة ووادى الملوك، وهذا وضع مرهق بالنسبة لموظفى الآثار، ومن سلبيات الزيارات الكثيفة أنها بدأت تتسبب فى ظهور تلفيات فى المعابد والمقابر، من ذلك أن ألوان نقوش مقبرة سيتى أخذت تبهت، فأغلقت فى وجه الزائرين لترميمها.

والمفروض للمحافظة على الآثار أن تغلق إلى الأبد عشرات من المواقع الأثرية مثل وادى الملوك ولا يسمح للجمهور بارتياحها، ولكن ذلك سوف يكون له تأثير سلبى على الحركة السياحية، وهكذا يجد المشرفون على قطاع الآثار أنفسهم بين نارين- نار المحافظة على التراث ونار تشجيع السياحة وتنمية الاقتصاد، ووسط هذه الحيرة يقف المسئولون عن الآثار وأيديهم على قلوبهم حائرين خوفاً على تراث مصر الخالد.

يشاع أن المصريين القدماء لديهم قوة سحرية تسرى فى كل مكان فيما يعرف بسحر القراعنة، لذلك افقتن الناس عندما سمحت مصر فى سبعينات القرن العشرين بعمل معرض متجول لمجموعة قيمة من آثار توت عنخ آمون، وكانت صنوف الزائرين تتكدس خارج أماكن العرض مثل المتحف البريطانى والمتحف الإقليمى بلوس أنجلوس ومتحف الفنون بـسياتل (الأخيران أمريكيان)، فاضطرت المعارض لعمل سياجات تنظم مرور الزائرين وتقلل من زمن الزيارة بقدر الإمكان.

وفى هذه المناسبة دعى المئات من الأثريين الذين لديهم علم بالكشف عن هذه الكنوز لإلقاء محاضرات عامة عنها، وكان إقبال الجمهور على هذه المحاضرات كثيفا، إذ قدر عدد من حضرها فى شهر واحد بنحو ثمانية عشر ألف شخص.

لذلك أطلق على هذه الظاهرة الاجتماعية الفريدة توتمانيا ، بعد ذلك ببضع سنوات أقيم معرض محدود لرمسيس الثانى شهد هو الآخر إقبالا منقطع النظير، وسحر الفراعنة اصطلاح غامض لم يفسره أحدا تفسيراً مقنعاً حتى الآن، أهذا مثلاً ما يشاع من أن هناك ما يسمى «قوة الأهرام» أى يعتقد البعض أن هذه الصروح الجبارة قادرة على الوصول بالمشاهد إلى قمة السكون النفسى (حالة النرفنا)؟

أم هذا تأثير المومياة وإفانفها الكثيفة (أى تأثير كيماوى)؟ أم هذا تأثير الذهب الثقيف الذى يغطى توت عنخ آمون نفسه؟ أم هذا مجموع الحضارة المصرية نفسها تلك الحضارة الغربية عن الأوروبيين، والتى وادت لديهم الاعتقاد بأنّها تفسر الحياة نفسها، أيا كان السبب فى تفسير هذا السحر فإن افتتان الناس بالآثار المصرية والتكالب على اقتنائها أحد العوامل التى تسهم فى تخريب المتبقى من آثار هذه المدنية الفذة بين المدنيات القديمة.

لم يخف على متاحف العالم أمر افتتان الناس بمصر وآثارها، والجمهور بطبيعته متقلب المزاج ولا بد من العمل على اجتذابه والتنافس عليه مع وسائل الترفيه الأخرى.

ومصر القديمة تعتبر ورقة رابحة فى أيدي المعارض، فعندما أهدت مصر للولايات المتحدة معبد بन्दور تقديرا لجهودها فى إنقاذ آثار النوبة تنافست عليه ثلاثة متاحف للفنون هى : متحف المتريولايان (الشهير فى نيويورك) ومؤسسة سميت سوينان وأخيرا أسرة كيندى.

وكانت تنوى إقامته بجوار شواطئ البوتوماك الرطبة الباردة بجوار مجمع كيندى، ثم استقر أخيرا فى متحف الميتروبوليتان، وفى الوقت الذى فاز فيه هذا المتحف بالمعبد كان قد فرغ لتوه من بيع آثار مصرية خفيفة : مومياوات وجعلان وخرز وفخار من نتاج حفائر سابقة.

وهذا التصرف بالبيع رغم مشروعيته أسخط المصريين لأن فيه إهدار لماضيهم، فهل كان واليس بادج محقا فى قوله إن المومياوات فى المتحف البريطانى «فى الحفظ والصون»؟ حتى الآن يعتبر قوله صحيحا، ولكن لا ندرى ما الذى سيحدث مستقبلا فى دنيا لم يبق فيها من التراث الفرعونى سوى القليل للدراسة أو للتمتع به.

فى الوقت الحالى كاد الطلب على شراء الآثار المصرية ينعدم، لأن أسعارها قد ارتفعت بصورة خيالية، ثم كيف لنا أن نتصور أن يزدهر سوق الآثار إذا اعتنق الناس أفكارا مثل أفكار أندريه إمريش الذى وقف ليعلن على الملأ أن «الولايات المتحدة -دون غيرها- هى التى لها حق الوصاية على الفنون البشرية كلها» حقا إننا نعيش فى زمن العلم والاستنارة إلا فى عالم الآثار.

وإذا استمر الحال فربما يفقد الناس اهتمامهم بها فتنعزل مصر القديمة وينالها النسيان. ولكن هيا بنا نشارك شمبليون فى قوله : مصر هى مصر - دائما وفى كل مراحل تاريخها، دائما عظيمة، ودائما جبارة: فى فنونها وقدرتها على التنوير، وفى كل العصور تتلأأ مصر ... وينفس العبقريّة. أما نحن فينقصنا شيء واحد لنشبع غزيرة حب الاستطلاع فينا، ذلك الشيء هو معرفة منشأ المدنية نفسها وتطورها».

الحياة الفرعونية

المساكن

١- المدن :

تحولت مدن الفراعنة إلى تلال من الأتربة تختلط بها بقايا من الفخار وأطلال ضئيلة، ولا عجب في ذلك إذ كانت المدن والقصور تشيد بالطوب اللبن. ومع كل، فقد كان بعضها أحسن حالا مما هي عليه الآن وقت أن كان العلماء، الذين أحضرهم بوناپورت معه، يقومون بحصرها .

وقد هدم الكثير منها في الزمن الحاضر بالإضافة إلى ما تهدم منها في الماضي بوساطة الأهالي الذين لم يعودوا يقنعوا بأخذ السباخ من الخرائب وانتزاع الأحجار الكبيرة منها بل اعتادوا أيضا تلك العادة المؤسفة في البحث عن الآثار.

ولا يوجد غير مدينتين يمكن أن نتحدث عنهما بشيء من الإطمئنان فهما مدينتان عمرهما قصير، يرجع الفضل في إنشائهما إلى أوامر صادرة من السلطة الملكية، وقد هجرنا أيضا بغتة بعد حياة قصيرة، أقدمهما هي مدينة حتب سنوسرت التي أنشأها في الفيوم الملك سنوسرت الثاني وبقيت عامرة لمدة تقل عن قرن من الزمن .

والمدينة الثانية هي أخيتاتون وقد اتخذها أمنحتب الرابع عاصمة للكه بعد نزاع مع كهنة آمون. وقد بقي خلفاؤه مقيمين بها حتى اليوم الذي نقل فيه توت عنخ آمون بلاطه إلى طيبة وقد يكون من المفيد أن نشير إليهما باختصار قبل أن نتناول بالوصف مدن الرعامسة، كانت المدينة التي أنشأها سنوسرت محاطة بسور طوله أربعمائة متر وعرضه ثلثمائة وخمسون متراً وكانت تكفى لإيواء عدد كبير من الأهالي في مساحة ضيقة.

وكان المعبد مشيداً خارج الأسوار، وأقيم جدار سميك يقسم المدينة إلى منطقتين خصصت إحداهما للأغنياء والأخرى للفقراء : ويشق المنطقة الأخيرة طريق عرضه تسعة أمتار يتقاطع بزوايا قائمة مع شوارع أقل منه اتساعاً. كانت المنازل متقاربة وظهورها متلاصقة بحيث تطل واجهاتها على الشارع، أما الغرف والدهاليز فكانت ضيقة إلى حد كبير. أما الحى الذى تعيش فيه طبقة الأغنياء فكانت تخترقه شوارع فسيحة تؤدي إلى القصر وإلى مساكن كبار الموظفين. وكانت مساحتها تعادل نحو خمسين مرة مساحة المساكن المخصصة للطبقة الشعبية.

وكانت المساكن والشوارع تشغل كل الميدان. وكان المصريون يحبون دائماً الحداثق. ويرى لنا حور خوف - هذا المكتشف الذى أحضر من النوبة قرصاً راقصاً هدية لمولاه فرعون الصغير - أنه بنى منزلاً وحفر حوضاً وزرع أشجاراً ... وقد سجلت سيدة عاشت فى عهد سنوسرت، على لوحة حجرية، أنها أحببت الأشجار كثيراً وكذلك غرس رمسيس الثالث الأشجار فى أمكنة متفرقة. ولكن لم يفرس منها شيئاً فى هذه المدينة، سواء أكانت أشجاراً للزينة أم للنزهة.

أما عاصمة أخناتون فكانت مدينة مترفة تقع بين النيل والجبل فى مكان نصف دائرى. ويخترق المدينة من أقصاها إلى أدناها طريق يوازى النيل ويتقاطع مع الشوارع الأخرى التى تؤدي إلى شاطئ النهر وإلى جبانة المدينة ومحاجر الرخام.

أما قصر فرعون والمعبد والمباني الحكومية والمحلات التجارية فتشغل الحى الرئيسى بالمدينة. وتقع فى الشوارع منازل ضيقة، تجاور منازل عظيمة وزعها رجال الآثار على أعضاء الأسرة الملكية.

وقد خصصت مساحات فسيحة لزراعة الأشجار والحدائق، سواء داخل المنازل أو فى أراضى المدينة. أما عمال الجبانة والمحاجر فقد عزلت مساكنهم داخل قرية أحيطت بأسوار. وقد هجرت هذه المدينة على حين غرة حتى أنه لم يكن مستطاعا تعديل ما فعله سكانها الأصليون. ويعكس ذلك كانت المدن التى عمرت زمنا طويلا- وهى الأكثر عددا- فقد سادتها الفوضى إلى أبعد الحدود.

فمثلا «من نفر» -ثابت هو الجمال، جمال الملك أو جمال المعبود- وهى التى سماها الإغريق ممفيس، فكانت تسمى أيضا «عنخ تاوى» - حياة الأرضين «وحدات كابتاح» - قصر روح المعبود بتاح «رسخات» - «شجرة الجميز»، وكل إسم من هذه الأسماء يصلح أن يكون مستعملا لكل ما فى هذه المدينة.

أما فى الأصل فكان يراد بها إما القصر الملكى وملحقاته وإما معبد بتاح، معبود المدينة وإما معبد حاتحور المعروف فى منف باسم «سيدة شجرة الجميز» وكان الحال كذلك أيضا فى طيبة، المدينة ذات المائة باب، كما وصفها هوميروس مكان يطلق عليها اسم آيات مثل الإقليم الرابع فى الصعيد الذى كانت تتبعه.

كما كان يطلق عليها اسم «أوبت» فى عهد الامبراطورية الحديثة. وكان البعض يترجم هذا الإسم بمعنى «حريم» والبعض الآخر «معبد صغير» أو بمعنى «قصر» والمكان الذى يشغله الآن الموقع الأثرى الذى يطلق عليه قرية الكرنك كان يعرف باسم أوبت آمون فى عهد أمنحتب الثالث.

وكان طريق الكباش يربطه بمعبد الإقصر المسمى أوبت الأوسط. ويحيط بكل من المعبد «أوبت آمون» و«أوبت الأوسط» سور من الطوب اللبن به أبواب كثيرة بنيت قوائمها بالحجر الجبرى وأبوابها من خشب الصنوبر اللبنانى المصقح بالبرونز والمطعم بالذهب.

وتغلق هذه الأبواب فى وقت الخطر. وقد ذكر بى عنفى أن هذه الأبواب

كانت تغلق وهو يقترب من المدينة ولا تشير النصوص التى بين أيدينا إلى إغلاق هذه الأبواب فى أى وقت على مدار السنة زمن السلم ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن حرية المرور كانت مكفولة سواء فى النهار أو فى الليل.

وفى داخل المدينة بين السور وبين المعبد بنيت المساكن والدكاكين والمخازن التى اختلفت الآن تماما فوق مساحة شاسعة. وكذلك خططت الحدائق والبساتين التى كانت تسحر البصر- وكانت قطعان أغنام آمون ترعى فى الزراب وقد رسمت إحدى هذه الحدائق على جدران بهو حوليات تحتمس الثالث حيث سجل عليها أنواع الأشجار والنباتات التى استوردها من سوريا وبين السورين على جانبى طريق الكباش وعلى امتداد شاطئ النهر شيدت القصور والمساكن الحكومية.

وكانت رغبة كل ملك فى أن يكون له قصره وكانت الملكات والأمراء وكبار الموظفين ألا يكونوا أقل رغبة فى امتلاك مثل هذه القصور ولما كانت هذه المدينة قد ظلت تنمو طوال عهد ثلاث أسر ملكية متوالية فربما كانت منازل الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة تبنى بين هذه القصور الفخمة بدلا من أن تبنى فى منطقة منفصلة كما حدث فى عهد الملك «حتب سنوسرت».

وفى مواجهة الأقصر والكرك على الشاطئ الغربى للنيل نشأت مدينة ثانية هى جاميه والأجدر وصفها بأنها مجموعة مبان فخمة تراكمت حولها منازل ودكاكين، وكان يحيط بهذه المباني جدار من الطوب اللبن بلغ طوله أربعمئة متراً أو أكثر وعرضه ثلثمائة متر، ولا يقل طول الجدار الذى بناه أمنحتب الثالث عن ٥٠٠ متر ويبلغ سمك أساس هذه المباني العظيمة نحو ١٥ متراً وارتفاعه نحو ٢٠ متراً أو أكثر. وكان يخفى ما بداخله من مبان تماما دون أن يظهر منها غير الطرف الهرمى للمسلات أو أعالي الأبراج أو التيجان التى تعلو رؤوس التماثيل الضخمة.

وقد قاومت غالبية هذه المدن مقاساة شديدة من الإنسان ومن الزمن على السواء، فتمثالا ممتون موجودان الآن وسط حقول القمح ولم يقاما هنا ليظلا في مثل هذه العزلة الفريدة.

ولكنهما كان يزينان مدخل معبد عظيم كانت تحوطه مبان من الطين يسكنها الكثيرون من الأهالي وتوجد بها كميات وافرة من البضائع. وقد قاوم هذان التمثالان تقلبات الزمن..

وقد لقي سواهما من التماثيل الضخمة في غير هذا المكان اهمالا شديداً. وهذه البقايا الأثرية التي قد تكشف عنها أعمال سريعة من الحفائر الأثرية سرعان ما تختفى تحت ثرى الأراضى الزراعية.

أما معبد رمسيس الثالث في مدينة حايو، ومعبد الرمسيوم في الشمال، وعلى امتداد شمال معبد سيتي الأول ثم معبد الملكة حتشبسوت المدرج -الدير البحرى- فهي لاتزال حتى الآن، مباني أثرية رائعة. ويمكننا أن نلم بالحالة التي كانت تبدو بها هذه المدن المسورة، عندما كانت حديثة البناء بمقارنتها بمدينة حايو.

فبعد أن يرسو القارب على سفح سلم مزبوج، يجتاز الزائر جداراً غير مرتفع بين رواقين للحراس وهذا السور مزود بتحصينات، ويفصل طريق دايرى بين هذا السور وبين السور الكبير المبنى باللين.

ويخترق هذا السور باب مدرع يماثل المجدل السورى وهو عبارة عن برجين متماثلين تفصل بينهما مسافة قدرها ستة أمتار يحوطها مبنى به فتحة تتسع لمرور عربة.

أما النقوش الغائرة التي تغطي الجدران فهي تتغنى بمدى سلطان فرعون. كما رسم أعداء مصر الألداء من لبيين وعرب وزنوج ونوبيين وهم يحملون

الجزية فوق رؤوسهم ويشعر الإنسان بشيء من الرهبة وهو يسير بين هذه الجدران.

أما فى القاعات العليا فكانت موضوعات الرسم أشد بهجة، فقد رسم الفنان رمسيس وهو يداعب ذقن عادة مصرية ظريفة بينما يقوم ندماءه على خدمته ومع ذلك فلم يكن هذا البناء إلا ملاذا فى حالة الاضطرابات فالقصر والحريم كانا يوجدان على مسافة أبعد من ذلك إذ كانا يقعان بجوار المعبد، ولم يكن يقيم هناك عادة غير الحراس.

وبعد اختراق البوابة نجد فناء متسعا ينتهى بجوار سور ثالث يوجد بداخله المعبد وقاعات الحريم والقصر والأفنية والمبانى، كما توجد مساكن صغيرة شديدة الالتصاق تماما على أحد جوانب السور بينما يحيط ممر رئيسى بالجوانب الأخرى لهذا السور الثالث.

وكان كهنة المعبد وعدد وفير من الأهالى هم السكان الدائمون لهذه المدينة الصغيرة، حيث كان يقيم فرعون عندما يحضر مع نسائه وخدمه العديدين إلى الشاطئ الغربى.

وعلى هذا النحو كان قصر رمسيس حاكم أون فى أملاك آمون وكذلك الرمسيوم. وهكذا كان الحال فى العشرين أو الثلاثين مدينة ملكية فى الضفة الغربية من النيل.

وبالرغم من مظهرها الخارجى الخشن فقد حوت من الداخل مزيجا من روائع الفن الهندسى ومن القصور الموهبة بالذهب تقوم بجانبها أكواخ معتمه قائمة. ولا شك أنه حدث فى وقت ما أن أمراء مصر العظام وأميراتها الفاتحات ممن كانوا موضع فخر مصر وحاشيتهم كانوا يسرعون الخطا بين هذه الطرق وتلك الأفنية.

وكان صدى الضحكات والأغاني ورنين الموسيقى يملأ تلك المساكن الملكية. وعندما ينتهى الحفل كان لايسمح باجتياز البوابة المحصنة إلا لقطعان الأغنام وصفوف العبيد الذين يحملون الأمتعة على رؤوسهم أو على أكتافهم وللجنود وكتبة الحسابات والبنائين والعمال يمرون جميعا خلال الفبار والضوضاء ثم يتفرقون إلى المصانع والحوانيت والاسطبلات والمذابح بينما يتوجه التلاميذ والصبية لينالوا قسطهم من العلم ونصيبهم من ضربات العصي.

ولم تكن مدن الدلتا أقل من مدن الصعيد فخامة في مبانيها وعماراتها أو في قدمها التاريخي، تلك المدن التي اجتاحتها الهكسوس وأهمل شأنها ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، قد رمت ووسعت وازدادت جمالا بفضل الملوك الرعامسة.

وكان رمسيس الثانى معجبا بالجزء الشرقى من الدلتا إذ أنها مهد عائلته وكان يجد فيها الجو الملائم والأراضى ذات العشب الأخضر وساحات المياه الشاسعة وكروم العنب التى تنتج نبيذا أحلى مذاقا من العسل.

وعلى جانب الفرع الثانيسى للنيل وسط مراعى تذررها الرياح كانت توجد مدينة قديمة عاش فيها الكهنة وكانت مركزا لعبادة الإله «ست» كما كانت مركزا أيضا لمدرسة فنية ذات طراز أصيل، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد.

هذه المدينة هى حت وأمرت وقد اتخذها الهكسوس عاصمة للكهم . ومنذ أن طردهم الملك أحموزا^(١) أخذت المدينة فى الإضمحلال وقد انتقل إليها رمسيس بعد أن انتهى مباشرة من دفن أبيه وقام بأخر الواجبات الجنائزية.

وعلى الفور بدأ القيام بالأعمال العظيمة التى أعادت إلى المدينة القديمة رونقها فأخذت تنمو حتى أصبحت عاصمة فريدة فى نوعها وكما كان الحال فى

(١) يقال له أحمس .

طيبة، كان المعبد وسائر المباني داخل سور من الطوب اللبن، له أربعة أبواب تمتد أمامها الترع والطرق من الجهات الأربع. ولأجل بناء قدس الأقداس فى المعابد وتوفير اللوحات والمسلات» أحضرت من أسوان كتل من الأحجار ذات أحجام غير مألوفة، دون أدنى اعتبار لبعـد المسافة أو صعوبة النقل، بعد أن تم صقلها وتكسيـتها حتى بلغت ذروة الإتقان.

ونحتوا كذلك أسودا ذات أوجه آدمية عابسة من صخور الجرانيت الأسود، كما نحتوا تماثيل أبى الهول من صخور الجرانيت الوردى اللون وقد وضعت بحيث يواجه أحدها الآخر على طول الطريق الضيق المرصوف بأحجار البازلت، بينما كانت أسود راقدة تسهر على حراسة الأبواب وتماثيل لمجموعة معبودات يحوى كل منها معبودين أو ثلاثة معا، وتماثيل ضخمة واقفة أو جالسة، ينافس الكثير منها مثيلاتها الموجودة فى طيبة ويفوق تلك التى على شاكلتها فى منف. وقد كانت متراصة أمام البوابات ذات الأبراج.

كان القصر متألئنا بالذهب واللآزورد والفيروز مزدانا بالزهور فى كافة أرجائه والطرق التى أحسن تظليلها تخترق الريف المنزرع بطريقة تدعو إلى الإعجاب وكانت البضائع الواردة من سوريا ومن الجزر ومن بلاد بونت مكدسة فى الحوانيت. وكانت فرق من المشاة وحملة السهام والأقواس وراكبى العربات الحربية ورجال البحرية لهم معسكراتهم بجوار القصر ووفد الكثيرون من المصريين ليسكنوا بجوار الشمس.

قال الكاتب ياباسا «ما أحلى الإقامة هناك، فليس للمرء أية أمنية يتساوى فيها الصغير والكبير.. والناس جميعا سواء، فى الإفضاء بطلباتهم».

ومثلها مثل سائر المدن الكبرى الأخرى حيث يخالط المصريين الليبيون والزنوج. غير أن الآسيويين كانوا قد تدفقوا بصفة خاصة قبل عصر الخروج

وحتى بعده، وكان من بينهم نسل أبناء يعقوب، وغيرهم من البدو الرحل، ممن سمح لهم بالإقامة في مصر ولم يرغبوا مطلقاً بعد ذلك في مغادرتها.

كما كان من بينهم الأسرى الذين أتى بهم من بلاد كنعان وعامور ونهارينا وتحول أبنائهم بمرضى الزمن إلى عمال زراعيين أو إلى عمال مهن حرة. وسرعان ما اتسعت المدينة الملكية بعد أن أضيفت إليها أحياء شاسعة الأرجاء تحوى الكثير من المساكن والحوانيت.

وسرعان ما أصبح لهذه الأحياء الجديدة معبدها الخاص وقد أحيط بأسوار من الطوب اللبن مثل أى معبد كبير. وكان من الضروري تخصيص مكان للجبانة لأن أهل الدلتا لم يعتادوا مثل أهل الصعيد دفن موتاهم في الصحراء القريبة منهم.

ولذلك شيدوا مقابرهم ومقابر حيواناتهم المقدسة إما خارج السور وإما داخله على بعد خطوات من المعبد. ونظراً لضيق المكان، لم يكن في استطاعتهم بناء عمارات ضخمة على غرار مثيلاتها في منف.

وكانت المقابر التي في تانيس أو أتريب صغيرة الحجم إلى أبعد الحدود بغض النظر عن مكانة الشخص الذى يدفن فيها.

لم يترك رمسيس الثانى لمن خلفه ما يشغلهم كثيراً في شئون البناء، ولذلك ركز رمسيس الثالث إهتمامه برعاية الحدائق والمشاتل والإكثار منها، قائلاً :

«لقد أخصبت الأرض كلها بزراعة الأشجار وغرس النباتات، بحيث أصبح في استطاعة الناس الجلوس تحت ظلالها». وقد شيد حدائق كثيرة في مقر عرش جده العظيم، تتخللها طرق تؤدي إلى الريف، زرعت بالكروم وأشجار الزيتون وعلى جانبي الطريق المقدس انتشرت الزهور الياقة وفي أون أمر الملك بتنظيف بحيرات المعبد المقدسة، يرفع القانورات التي تراكمت منذ وجدت

الخليقة، وجدد غرس الأشجار والنباتات فى كل مكان وزرع البساتين اليانعة بالكروم ليقدم للمعبود توم النبيذ والمشروبات الروحية.

كما زرع أشجار الزيتون التى تنتج «أجود الزيوت المصرية لتبقى شعلة النيران متقدة فى معبدك المقدس». ومعبد هورس الذى كان فى طى النسيان تماما، أصبح فى مقدمة المعابد، «لقد أوليت جل اهتمامى لزراعة أشجار الأخشاب المقدسة النامية فى داخل أسواره.

كما عنيت بغرس أوراق البردى على نحو ما تزرع فى مستنقعات أخبيت (حيث عاش هورس زمن طفولته) وكان عالم النسيان قد أتى عليه منذ العهد الغابر.

لقد عملت على ازدهار أشجار الأخشاب المقدسة فى معبدك وغرستها فى نفس الأماكن التى اقتلعت منها وعينت البستانيين للعناية بها حتى يقطر منها الخمر للشراب والقرايين».

وهذا جمع بين النافع والمتع. وقد لاحظ هيرودوت أن معبد بربسط المحاط بالأشجار الضخمة كان من أروع ما شاهد فى كافة أنحاء مصر. ولاشك أن المسافر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد كان يستطيع أن يحس نفس هذا الشعور خلال زيارته لكثير من المدن المصرية.

فمنظر المساحات الخضراء كان يعوض خشونة منظر الأسوار الضخمة المبنية باللبن، وكان سكان المدن يتمتعون بالنسيم العليل على شواطئ فروع النيل تحت ظلال الأشجار الضخمة، وفى أفنية المعبد كان الزهور والورود أثرها فى إظهار جمال التماثيل.

كانت المياه الكثيرة لازمة للحيوان والنبات والإنسان على السواء. وكان الانتقال لجلب المياه من الترع، أمرا مقلقا حقا، حتى لو كانت مجارى المياه

قريبة من أبواب الأسوار، كما كانت عليه الحال في مدينة حابو وفي بي رمسيس، وفي أكثر المدن التي تحوطها أسوار، شيدت أحواض من الحجر. وقد أقيم سلم يؤدي إلى سطح المياه على مدار العام.

وجود الآبار أمر مؤكد منذ عهد الامبراطورية الحديثة، على الأقل، وقد اكتشف بعضها في الأملاك الخاصة وكذلك في أحياء المدن. وقد وجدت أربع آبار على الأقل داخل أسوار مدينة بي رمسيس بنيت بالحجر بعناية تامة وأصغرهما في غرب المعبد وقطرهما ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات.

كان النزول إليها بوساطة سلم مستقيم مسقوف تبلغ درجاته ثلاثا وعشرين درجة يؤدي إلى سلم حلزوني داخل البئر عدد درجاته اثنتا عشرة درجة.

أما البئر الكبرى فتوجد جنوبي المعبد وقطرها نحو خمسة أمتار ويؤدي إلى البئر سلم مسقوف أيضا تبلغ درجاته أربعة وأربعين درجة من سطحين، وتتوسطها بسطة للاستراحة، ويمكن الوصول إلى مياه هذه البئر مهما قل المنسوب، بسلم حلزوني على شكل حدوة، للماء الأباريق بالمياه.

أما في فترة زمنية أخرى فكانت المياه ترفع بطريقة أيسر بوساطة الشادوف وتصب في حوض وتنقل منه إلى حوض آخر داخل مبنى المعبد بوساطة قناة من الحجر.

وفي القسم الشرقي من المدينة، اكتشف على عمق كبير، كثير من القنوات المصنوعة من أنابيب من الفخار من مختلف الأشكال وأكثرها مصنوع من أوان خزفية متداخلة في بعضها قد أحكم وصلها بالأسمنت.

ولم يتمكن أحد حتى اليوم، أن يتتبع امتداد هذه القنوات واكتشاف بدايتها ونهايتها، كما لا نستطيع تحديد تاريخها، إذ أننا نجهل ما إذا كانت قد

أعدت لنقل المياه الصالحة للشرب أو حصصت لتصريف مياه المجارى. على أنه يجدر بنا أن نشير إلى وجود هذه المنشئات التى تدل على أن الإدارة القرعوية كانت تنشد الخير للأهالى ونحرص على الصحة العامة.

كان للعقارات الملكية أو المقدسة قوة جاذبية عجيبة على من يقيمون حولها. ففي أزمنة الاضطراب كان الأهالى الذين ينتابهم الذعر يفتصبونها ليقيموا بها ويرفضون تركها، ويشيدون منازلهم فى الحدائق والبساتين وبذلك يشوهون جمال التصميم الذى أراده لها مشيدوها السابقون. كانوا يتسربون إلى ساحة المعبد المقدسة الخارجية وقيمون فوق الأسوار، يعطلون إقامة الشعائر الدينية ويقفون حجر عثرة فى سبيل الحراس.

وقد لاحظ أواج جود حر، أحد الأطباء الذين عاشوا فى عصر الملك قمبين، بعض الأجانب يقيمون فى معبد الإلهة نايت، معبودة سايس فتألم لما رأى، ولما كان ذا كلمة مسموعة لدى الملك فقد حصل على أمر بطرد جميع أولئك الأجانب، غير المرغوب فيهم وهدم منازلهم والتخلص من نجاستهم حتى يمكن الاحتفال بالأعياد والمواكب كما كان متبعاً من قبل.

وقد لاحظ أحد السحرة أيضاً ويدعى جد حر وكان يعيش فى أثريب أنا أناساً من عامة الشعب بنوا أكواخهم بالطوب اللبن فوق جبانة الصقور المقدسة. ولما لم يكن له مثل نفوذ الطبيب الصاوى فقد حاول معهم طريق الإقناع واستطاع أن يجلى المغتصبين عن المكان الذى احتلوه والانتقال إلى مكان أفضل أرشدهم إليه.

وكان فى الحقيقة موقع مستنقعات، غير أن علاج ذلك كان فى متناول أيديهم، إذ كان من المستطاع هدم المنازل الداخلية واستخدامها فى ردم المستنقعات. وهكذا شيدت مساكن الطبقة الطيبة من أهالى أثريب فى مكان حسن الموقع لطيف الجو، يكاد يكون قليل الرطوبة زمن الفيضان

وفى تانيس لاحظنا زحف الأهالى بمساكنهم على المعبد. ووجدنا الكثير من المساكن فى أفنية المعبد وعلى أسواره، وشخصية ذات أهمية إسمها بان مريت، بنى منزله فى الفناء الأول للمعبد ملاصقا للصرح كى تستطيع تماثله الاستفادة من الاحتفالات المقدسة.

وقد عاش بان مريت فى عصر متأخر. عن طبيب سايس وساحر أثريب. ولكن مصر هى بلد التقاليد، وكان الأهالى ينتهزون فرصة عدم يقظة السلطات أو ضعفها ليهجروا الأحياء التى لا تروقهم وينتقلوا إلى داخل الأسوار الكبرى ليحتموا بها وربما ليسطوا على الأموال. وعندما تنيقظ السلطات فإنها كانت تطرد الفاصبين فيستعيد المعبد والعاصمة عظمتها إلى أن تتكرر هذه المحاولة من جديد.

وفى عهد سبتى الأول وسنوسرت العظيم ورمسيس الثالث لم يجرؤ أحد على الاقتراب من أرض لا يملكها، ولكن حدث ذلك فى الوقت بين حكم مري إن بتاح وسات ناخت، بل حدث أسوأ من ذلك فى عهد آخر ملوك الرعامسة.

١- القصور:

كثيرا ما أثار القصر الملكى فى مدينة بي رمسيس إعجاب الكثيرين من المعاصرين، ومن سوء الحظ أن وصفهم له غير محدد وحتى مكانه أيضا غير معروف بالضبط، ولم تسفر الحفائر عن أية معلومات دقيقة. ونحن نعرف أنه كان فى الدلتا قصور ملكية أخرى فقد عثر على بقايا قصر فى قنطير وهى قرية تظللها أشجار النخيل البديعة على بعد ٢٥ كيلومترا جنوبى مدينة بي رمسيس، حيث كان فرعون ينتظر خطيبة ابنه ملك الحيثيين، التى جاءت فى فصل الشتاء مختربة أسيا الصفرى وسوريا لتلقاه.

خطر له خاطر طريف هو تشييد قصر حصين فى الصحراء بين مصر

وفينيقيا حيث كان ينتظرها . وبالرغم من بعد القصر ووجوده فى مكان ناء إلا أنه كان مكتظا بكل ما كانت تشتهيه الأنفس.

وكانت كل جهة من جهات القصر الأربع تحت حماية أحد المعبودات ، فكان آمون يحمى الناحية الغربية وسوتخ الناحية الجنوبية، وعشتروت الناحية الشرقية وأواجيت الناحية الشمالية. ولتمجيد ملك مصر وزوجته الآسيوية وضع معبودان مصريان ومعبودان آسيويان لأن ست منذ ذلك الوقت اتخذت زينة الشعر والملابس التى يتميز بها المعبود بعل، ولم يعد يشبه معبودات المصريين وأقيمت أربعة تماثيل ذات أسماء كالأحياء هى : رمسيس ميا آمون، له الحياة والصحة والقوة، ومونتو فى الأرضين سحر مصر، وشمس الأمراء الذى أصبح فى منزلة الإله الوريث والباشا.

كان لرمسيس الثالث قصر أطلق عليه اسم : «بيت الهناء» يقع داخل مدينته ، غربى طيبة، وقد وجدت بقاياها التى تولى دراستها علماء الآثار المصرية بمعهد الدراسات الشرقية بشيكاغو، وكانت واجهة هذا القصر تطل على الفناء الخارجى للمعبد.

أما النقوش المحفورة التى كانت تزين هذه الواجهة، وترى من بين أعمدة البهو، فقد أحسن اختيارها فى عناية تامة لتظهر مدى سلطان الملك، فقد رسم رمسيس وهو يقتل أعداءه بضربات من دبوسه.

كما رسم أيضا الملك يتبعه حرسه فى أحسن زينة وهو يزور حظائر الخيل، وكذلك رسم وهو يمتطى عربته متقلدا أسلحته الحربية فى طريقه ليتولى قيادة الجيش أثناء المعركة.

ثم رسم أخيرا وهو جالس مع رجال حاشيته يشاهد خير جنده وهم يتصارعون ويتمرنون. كانت الشرفة المخصصة لظهور الملك فى الحفلات العامة

تتوسط هذه الواجهة وقد زينت أفخم زينة، فى مقدمتها أربعة أعمدة طويلة على هيئة ساق البردى يعلوها أفريز ذو ثلاثة طوابق، رسم قرص الشمس المجنح على الطابق الأدنى، ورسمت زينات من خوص النخيل على الطابق الأوسط، بينما رسم على الطابق الأعلى رموس الثعابين تتوجها تيجان على هيئة قرص الشمس.

وكان الملك يظهر فى هذه الشرفة عندما كان يسمح للأهالى بالتجمع فى فناء المعبد فى عيد آمون، ومنها كان يوزع عليهم العطايا. كانت الشرفة متصلة بالمساكن الملكية، وكان يتوسط هذه المساكن عدة غرف ذات أعمدة، منها قاعة العرش وغرفة الملك وحمامه الخاص. وتفصل ردهة بين هذا الجزء الرئيسى وبين جناح الملكة الذى كان يحوى الكثير من الغرف والحمامات. وكانت هناك ممرات طويلة مستقيمة تيسر الذهاب والمراقبة أيضا، لأن رمسيس الثالث وقد علمته التجارب، كان حذرا.

ويبدو أن النقوش الداخلية لقاعة العرش كانت عابسة، كما يتضح من اللوحات الصغيرة الموهمة بالمينا التى اكتشفت منذ عام ١٩٤٠ من القطع الصغيرة ذات النقوش الغائرة التى اكتشفتها أخيرا البعثة الأمريكية. رسم الملك فى كل مكان على هيئة أبو الهول وقد جثم على مؤخرتيه، وقد سجل اسمه بالكتابة الهيروغليفية، ويشاهد أعداء مصر أمامه، وقد قيدت أقدامهم وهم فى ملابسهم الثمينة المزركشة بزينة البربر.

وقد بذلت عناية كبيرة فى رسم أشكالهم وزينة شعرهم وحليهم. وقد رسم الليبيون بالوشم بينما حلى الزنوج آذانهم بالأقراط، أما السوريون فكانوا يتزينون بحلى كبيرة تتدلى من رقابهم.

أما قبائل شاسو الرجل فكانوا يضعون أمشاطا وسط شعرهم الطويل

المرسل إلى الخلف. وليس من المستبعد أن نعتقد أن الرسوم والزينات التي كانت تحلى القاعات الخاصة بالملك والملكة كانت ذات موضوعات أكثر رقة وطرافة.

كانت المساحة التي يشغلها مسكن الملك غير بالغة الاتساع إذ كانت عبارة عن مربع يقل طول ضلعه عن أربعين مترا وكانت إقامة الملك فيه غير طويلة المدى، فقد كان في استطاعته الإقامة في الجانب الآخر من النهر.

أما في الدلتا فلم يكن له إلا أن يختار بين منف وأون وبى رمسيس، وكانت كلها تتربقب استقباله. وقد شيد بين أون وبويسط، في المكان الذي أطلق عليه العرب اسم تل اليهودية، مبنى حديث العهد، اكتشفت فيه لوحات ممومة بالمينا تماثل تماما تلك التي وجدت في مدينة حابو.

وقد أتى الزمن تماما على قصور الملك سبتى والملوك الرعامسة حتى أننا إذا أردنا أن نكون فكرة حقيقية عن قصر فرعون في عصر الامبراطورية الحديثة كان علينا أن نتخيل أنفسنا في قصر اخناتون الذي تولى الحكم قبلهم بوقف قصير. كان بلاط أرضية القاعات ذات الأعمدة تمثل مستنقعا يزخر بالأسماك ونباتات البردى، تطير خلال أغصانها الطيور المائية ويحوطها الغاب والبردى، وعجول تقفز وسط أجمات ويط برى يطير خوفا منها.

وفوق رموس الأعمدة كانت تلتف أغصان الكروم والنباتات العارشة، وزينت تيجان الأعمدة والأفاريز بالنقوش الزاهية وعلى حواجز الجدران رسمت نقوش تمثل مناظر الحياة العائلية، فالملك والملكة يجلسان وجها لوجه.

كان اخناتون يجلس على مقعد ونفرتيتى على وسادة وعلى ركبتيهما طفل رضيع، وكانت كبرى الأميرات تعانق شقيقتها الصغرى، وتلعب أميرتان صغيرتان على الأرض وقد قيل في مبالغة بأنه لم يرد في الفن المصرى القديم كله ما يضاهى هذا الرسم رقة. والواقع أن المستنقعات ونباتات البردى والطيور

والحيوانات التي تقفز أو تركض كانت ضمن الموضوعات المألوفة. وفي مدينة
حابورأينا الملك محاطا بمحظيات رائعات الجمال.

ونحن لا نخشى شيئا حين نؤكد أن قصور فرعون في عهد الأسرتين
التاسعة عشرة والعشرين كانت مزينة دائما بأقخم النقوش وكذلك الحال في عهد
اخناتون، إذ كانت الجدران والسقوف والأفاريز والأعمدة والأرضيات بهجة للعين
والنفس. وكانت فخامة الأثاث وروعة الحلي والملابس تكمل هذه المجموعة سمواً
وروعة.

٣- المنازل :

لم تدخر كبار الشخصيات جهدا في محاكاة المساكن الملكية من حيث
الفخامة والرفاهية، كانت مساحة مساكنهم في المدينة أو في الريف تبلغ نحو
هكتار أو تزيد، كما كانت على نسق المعابد أو القصور الملكية يحوطها سور
عريض مرتفع له باب حجري يؤدي إلى حيث يقيم رب البيت، بينما توجد أبواب
ثانوية وهي عبارة عن فتحات صغيرة في السور تؤدي إلى الحدائق ويستخدمها
عامة الناس.

هكذا كان منزل المرأة الفاهرة تبويى التي استقبلت فيه حبيبها في مدينة
بويسط بينما كان منزل أبوى يمانل معبدا قصيرا. فيه رواق ذو أعمدة علي هيئة
سيقان البردى يسبق واجهة المبنى. بينما يسند سطح العمود إفريز مزخرف
برسوم من سعف النخيل.

وكان باب المدخل الرئيسى من الحجر الكبير المنحوت وأسكفة الباب
مزخرفة بدورها بسعف النخيل وكان المنزل الذي قابل فيه الملك أي زوجته نفر
حتب وكافأها، له شرفة ذات أعمدة تسند سطحها خفيفا يغطى جميع جهات
المنزل وتقوم أطرافه على أعمدة عالية رفيعة يتكون منها رواق حوال المنزل.

يمكن أن تكون فكرة عن الشكل الخارجى لهذين المنزلين على ضوء الرسوم التى رسمها كل من أيوى ونقر حتب على جدران مقبرتهما، ولعرفة التنظيم الداخلى لهما يحسن أن نرور حفائر تل العمارنة. من باب المدخل يعبر المرء دهليزا قبل أن يصل إلى قاعات الاستقبال ذات الأعمدة التى يستند إليها السقف.

وهذه القاعات العامة تمتد بوساطة خزائن للملابس مبنية بالطوب وتستخدم كأسونة للملابس الداخلية والثياب، كما توجد غرف صغيرة تخزن فيها المواد الغذائية والمرطبات، أما الغرف المخصصة لرب البيت وقاعة الحمام ودورة المياه فتشغل باقى المبنى.

ونرى جدران الحمام قد كسيت بالأحجار، وفى أحد الأركان نشاهد كتلة مرتفعة من الحجر ومثبتة فى البناء ومحاطة من الخلف بجدار ساتر يصعد عليها أحد الخدم ليصب المياه على المستحم.

وبعد أن يفرغ المستحم من الاغتسال يجلس على مقعد قريب للتدليك، وتطلّى دورة المياه التى تقع خلف الحمام بالجير، وبها مقعد من حجر الكلس مثقوب الوسط يوضع فوق صناديق من الطين تملأ بالرمال.

وفى كل منزل مهما كان متواضعا، توجد عدة أفنية، فى أحدها صوامع للغلال على هيئة خلية النحل. وتقع مراقد الكلاب وحظائر الحيوان فى الشمال، وفى الشرق توجد عادة على التوالى، المطبخ والمخبز وبيوت صغيرة من الطوب يتولى إليها الخدم. وكان على الخدم فى هذه الحالة أن يسيروا مسافة طويلة لإحضار أطباق الطعام لساكناتهم.

ويوجد مدخل للخدم يؤدى إلى حجرات الاستقبال، أما المنازل الصغيرة، المخصصة للخدم، فتقسم فى أغلب الأحيان إلى أربع غرف، المدخل وحجرة فى

الوسط يستند سقفا إلى عمود ومطبخ وحجرة نوم فى الداخل. ويتجمع كل أفراد الأسرة الواحدة فى هذا المكان الضيق الذي يتقاسمونه مع المواشى، وهناك سلم يؤدي إلى سطح المنزل. وتقع بيوت المديرين فى نهاية هذا الحى، وتكون مبانيها عادة واسعة ومريحة. وتجلب المياه الصالحة للشرب عادة من بئر حجرية.

أما الحدائق فكانت تقسم إلى مربعات ومستطيلات تتقاطع عموديا ومستقيمة تمام، وتزرع بالأشجار وتظلل بالكروم وتغص بها الزهور التى كان المصريون يعنون بها عناية تامة. وقد جمع أنا فى حديقته كافة الأشجار التى تنمو فى وادى النيل مثل النخيل ونخيل الدوم وشجر جوز الهند التى كانت تسمى نخيل الكوكو وشجرة الجميز وشجرة زيت النخيل وشجر العناب واللبخ والطلع والرمان والسرو والأثل والصفصاف وأنواع أخرى من الأشجار لا نعرف مدلولها وتبلغ ثمانية عشر نوعا.

وذرع الوزير رخ مارع فى حديقته المحاطة بأسوار قوية كل أنواع الأشجار والنباتات التى كانت معروفة فى عصره. وكثيرا ما كانوا يشيدون تحت الأشجار أكشاك لا تخلو من جمال وإن بنيت بمواد خفيفة الوزن. وكان السادة يتناولون فيها طعامهم صيفا. وكانت الخصائص الخشبية تجثم فى كل مكان، حيث كانت المشروبات تتلج فى أيار كبيرة تخفيها أوراق الأشجار بجوار الموائد والرفوف حيث رص الخدم بعناية فائقة كل مشهيات المطبخ المصرى.

ولا يمكن أن نتخيل وجود حديقة لأن بركة ماء، وهذه تكون عادة إما مربعة أو مستطيلة الشكل ومبنية بالحجر، وتطفو نباتات التيلوفر فوق سطح المياه ويعوم فيها البط. وتؤدي درجات من سلم إلى هذه البركة حيث أعد قارب لتلبية مسرات أصحاب المنزل فى غالب الأحيان.

وتتكون بيوت الطبقة الوسطى عادة من عدة طوابق، وتوجد أحيانا صوامع الغلال فوق سطوحها، ولا تزخرف واجهة البيت بأية زخارف. ويقع الباب قرب أحد أركان الجدار وهو يتكون من عمودين قائمين وأسكفة وعتبة من الحجر، ولا يتسرب الضوء إلى الطابق الأرضى إلا عن طريق هذا الباب،

أما النوافذ وعددها اثنتان أو أربع أو ثمانية نوافذ فى الطابق الواحد فكانت صغيرة ومربعة ومزودة بستائر لتحشى السكان من الحر والغبار.

وقد عثر فى تزئيس على نافذة من الحجر لا يزيد طول ضلعها على ذراع واحدة وكانت عبارة عن قطعة من البلاط المثقوب كالدنتلة وتقوم مقام الستارة،

كما عثر أيضا فوق نافذة مربعة على إطارين منقوشين باسم الملك مري إن بتاح، وقد رسمت على بعض النقوش بطيبة، خطوط أفقية على الجدران كأنها عملت بالبلاط السميك أو زخرفت بالأكواح. وفى تانيس ظهر تفسير هذه الخطوط إذ اتضح أن البنائين يضعون الملاط على السطح الأفقى للبناء بينما يكتفون بالطين بين الفواصل الرأسية. وحينما يتم البناء نجد أن الجدار قد أصبح مخططا بخطوط أفقية بيضاء.

وتخصص الغرف فى الطابق الأرضى فى غالب الأحيان للحرف المنزلية، حدث هذا فى طيبة، على سبيل المثال، فى منزل أحد الأهالى المدعو تحوتى نفر حيث كان النساء يغزلن بينما يعمل الرجال بالنسج على الأتوال، وفى الغرف المجاورة كانوا يطحنون الحبوب ويعدون الخبز.

ويعيش أصحاب المنزل فى الطابق الأول فى غرفة أكثر اتساعا، ينفذ إليها الضوء من خلال نوافذ صغيرة مرتفعة. وتستند سقفها أعمدة على هيئة ساق اللوتس. ويبدو أن الباب كان مزدانا بلوحات طعمت به بالمينا إذ لم يكن الخشب نفسه قد نقش مباشرة.

ولم تكن ثمة نقوش على حواجز الجدران وإن كان من المألوف لدى المصريين أن يغطوا بالرسوم كل ماديهم من سطوح خالية. وقد عثرت في تانيس بأحد المنازل، التي تنتمي إلى العصر المتأخر، على حواجز جدران داخلية طليت بالملاط وبها لوحات قديمة عليها راقصات ومراكب.

ولا ريب في أن هذه الوسيلة كانت قديمة العهد، مما يحملنا على الاعتقاد بأن غرف المنازل تماثل غرف المقابر في طيبة حيث كانت ترسم كرمة على السقف بينما ترسم مناظر الصيد والرحلة إلى مدينة أوزيريس المقدسة ومناظر أخرى مماثلة كانت ترسم فوق الجدران الداخلية.

وكان سقف الطابق الثاني منخفضاً إلى حد لا يحتاج الإنسان معه إلى الوقوف على أطراف أصابع قدميه لكي يلمس السقف بأصبعه.

وتخصص في هذا الطابق غرفة لرب البيت ليتولى فيها زينته. كان يجلس على مقعد مريح ذي مساند جانبية ويحمل إليه الهدم الأبريق والطشت والمروحة والمذبة، وأمامه يجلس الكتبة القرفصاء يقرأون البريد ويسجلون الأوامر.

ولا يتوقف خدم آخرون عن الحركة فوق درجات السلم وفي الممرات، وهم يحملون صبراً على رموسهم وجرادا مملوءة بالماء معلقة في طرفي عصا يحملونها على أكتافهم.

كان نفس هذا النظام سائداً في منزل أحد الأشخاص المدعو ماحو، فكانت الجرار مكومة في الطابق الأرضي. أما الطابق الأول فكانت توجد به حجرة الطعام، وكان الطابق الثاني مملوفاً بالدرع والأسلحة وأدوات أخرى كثيرة، ولما كان ماحو رئيساً للشرطة، فإننا نعتقد أنه كان ينام الليل هنا ليستطيع في حالة استدعائه بفترة أثناء الليل أن يحمل سلاحه ويعدو فوراً خلف المجرمين. كانت سطوح المنازل عادة مسطحة، ويمكن الصعود إليها إما

بدرجات سلم مبنى أو بوساطة سلم متحرك. أقام البعض عليها، مثل تحوتى
حطب صوامع للفلال.

وأقام آخرون سورا من الخشب على حافة السطح حماية لأطفالهم أو
تجنباً لنظرات متطلعة إليهم وهم ينامون ليلاً فى العراء. وأقام كل من نب آمون
ونحتى على سطحى منزليهما بناء إضافياً على هيئة مثلث هرمى بزاوية قائمة
فسر بأنه بئر للتهوية.

ومع ذلك فإن المنازل ذات الأسطح المدببة لم تكن مبهولة فى مصر، ففي
إحدى مقابر أبو رواش، بالقرب من القاهرة، التى تعاصر زمن الملك دن الذى
عاش فى عهد يرجع إلى ألفى عام قبل عصر الرعامسة، قد وجدت قطعتين من
أدوات اللعب المصنوعة من العاج وهى تمثل منازل ذات سطوح مائلة ومكونة
من مثلثين ومن شكلى شبه المنحرف.

وبناء السطوح على هذه الصورة العلمية فى مثل هذا العهد العتيق ليدعو
حقاً إلى الدهشة لأن مثل هذه الفكرة لا يمكن تصورها إلا فى بلد تكثر فيها
الأمطار أو تتوافر فيها الأخشاب، أما فى مصر فلا توجد أمطار إلا فى المنطقة
الساحلية. وحتى فى هذا المكان، وإلى يومنا هذا، فكل المنازل تعلوها سطوح
مستوية.

ومن المحتمل أن تمثل قطعتا أبو رواش نوعاً من المساكن الدخيلة على
مصر، إذ ليس لدينا أى برهان على أن مثل هذه المساكن كانت سائدة فى أى
مكان بالإقليم المصرى فى عهد الرعامسة.

وحتى فى طيبة لم تكن المساكن متلاصقة تلاصقا شديداً. ولم تكن
الأرض غالية الثمن لتحول دون إمكان زرع أشجار إما فى فناء صغير داخل
المسكن أو أمام واجهته. وفى منزل نب آمون تظهر نخلتان وكأنتهما ناميتان فوق
سطح المنزل.

ومع ذلك فقد كانتا مثقلتين بثمار البلح. كما تظلل باب منزل نخت نخلة وشجرة جميز. وقد رسم على جدار المقبرة رقم ٢٣ فى طيبة منزل مرتفع أكثر مما هو عريض، بين صفين من الأشجار، بينما فى مقبرة أخرى معروفة برقم ٢٥٤ نرى أمام منزل، ثلاثة أشجار رمان زرعت فى أصص من الفخار المزخرف بألوان عديدة.

كما نشاهد أمامه أيضا شجرتان من الدوم. وقد بذل المصريون كل جهدهم، حتى الطبقات الفقيرة منهم، لتكون مساكنهم جميلة ومريحة، كما عنوا عناية كبيرة بالعمل على وقاية أنفسهم من أعداء الراحة المنزلية وهى عديدة كالحشرات والفيروسات والأبراص والثعابين والطيور الجارحة.

وتحوى بردية ايبرس الطيبة بعض الوصفات النافعة فإذا أردنا التخلص من الحشرات المنزلية فينبغى رش المنزل بمحلول النطرون أو طلاء جدران به مادة تسمى «بييت» تصحن مع الفحم. وإذا وضعنا ملح النطرون أو سمكة مجففة من البلطى أو حتى بذور البصل فى منخل حجر الثعبان، فالثعبان لا يغادر حجره.

أما دهن طيور الصفارى فجد مفيد ضد الذباب، وبويضات السمك ضد البراغيث، وإذا وضعنا دهن قط على الزكائب على الصرر فالفيروس لا تقربها. ولإبعاد الحشرات القارضة عن الغلال يحرق فى المخزن روث الغزلان أو تطفى الجدران أو الأرضية بمحلول من هذا الروث.

وهاك وصفة مؤكدة لمنع الحدأة من الخطف، يزرع فى الأرض فرع من شجرة اللبخ وتوضع بجانبه كعكة، ويتلى عليها ما يلى : «كانت حدأة تخطف من المدينة ومن الريف ... طيرى، اطبخيها ثم كليها». وترديد هذا الكلام على فرع شجرة اللبخ، بعد أن توضع عليه فطيرة هى الوسيلة الكفيلة بمنع الحدأة من الخطف.

ورائحة البخور ناجعة في تنقية هواء قاعات الثياب، ولم تكن هذه الوسيلة في متناول جميع الناس، إذ كان يجب أن يضاف للبخور صمغ التريبتين وبعض المواد الأخرى المصرية والأجنبية وهذه الوصفة مثل سابقتها دليل على الرغبة في الإبقاء على المنزل نظيفاً نقياً. كانت هذه الرغبة الطبيعية تحمل السلطات على إصدار أوامر عامة لنزع المياه القذرة ورفع القمامة وفضلات المنازل. ومع ذلك، فلا نستطيع الجزم بذلك لعدم وجود مستندات تؤيد ما نقول :

٤- الأثاث :

يتألف الأثاث، في أغلب الأحيان في قاعات الاستقبال في القصور الملكية وفي مساكن الأغنياء من مقاعد مختلفة الأشكال، صناعتها بسيطة في معظم الحالات وتماثل صندوقاً مربعاً، له مسند لا يزيد طوله عن طول اليد الواحدة. ورخفت جوانبها بغرس من قشور نباتية.

كانت جودة المواد الخام التي يصنع منها الأثاث، ودقة الصناعة تعوضان بساطة صنعه. غير أن المقاعد المثقوبة من ناحية إلى أخرى، كانت أكثر منها فخامة ومريحة إلى أبعد الحدود، لها أربع قوائم على هيئة أرجل الأسد ومسند كبير ومرفقان أما المقاعد المخصصة للملك والملكة فكانت أكثر روعة، تحلى مساندها ومتكأتها من الواجهة والخلف بنقوش من النحت الرفيع سواء أكانت منقوشة على الخشب أم على الجلد، أم المعدن المطروق كالذهب والفضة والنحاس وترصع بالأحجار الكريمة

وقد يمثل الملك على هيئة عقاب أو على هيئة أبو الهول يحميه شعبان الكوبرا أو الصقر أو العقاب الذي يمزق بمخالبه أسيويا أو زنجياً. وتشاهد كائنات غريبة مثل أولئك الذين استجلبوا بئس غال من بلاد بونت أو من أعالي النيل، وهم يرقصون على دقات الطبول. والملك يتناول من يد الملكة الزهرة النى

تجلب الحب. بينما تربط الملكة عقداً حول رقبة زوجها، وترى رسوم تمثل رعوس أسود أو عقبان أو نساء على حافة المقعد. وفي الناحية الأمامية للمتكآت وبين قوائم المقعد تنمو النباتات الرمزية للجنوب والشمال وتكون علامة هيروغليفية كبيرة هي رمز الاتحاد.

وكان هناك نوعان من المقاعد التي لا مساند لها، وأكثرها بساطة تلك التي كانت أرجلها رأسية، وأكثر منها فخامة تلك التي كانت أرجلها متقاطعة على هيئة العلامة x وتنتهى برأس بطة، وكانت القضبان بدورها تنتهى برعوس حيوانات وكانت الأرضية تفرش بالحصر وعليها الكثير من الوسائد وكانت الوسائد توضع أيضاً خلف ظهور الجالسين على المقاعد وتحت أقدامهم. وإذا كان عدد الناس يزيد عن عدد المقاعد، فيجلس آخر من يأتى أو أصغر الموجودين سنا على الوسائد أو حتى على الحصر.

وإذا كانت قاعة الطعام منفصلة عن قاعة الاستقبال، فإنها تزود بمقاعد وتجلب لها مناضد مستديرة للضيوف، وموائد وأرفف توضع عليها سلات الفاكهة وأطباق اللحوم والخضراوات والأواني والأكواب. وهذا الأثاث كثير العدد ولكنه صغير الحجم. ولم يفكر المصريون إطلاقاً فى عمل مناضد كبيرة يمكن أن يجتمع حولها عدد كبير من الضيوف، فكان من عادة المصرى أن يتناول الطعام وحده أو ضمن مجموعة من اثنين.

ومنذ أقدم الأزمنة، كان يستعمل نوعان من أواني المائدة فكانت الأنية العادية من الفخار أما الأنية الفاخرة فكانت من الحجر، وكانت تصنع غالباً من حجر الشست الأسود أو الأزرق ومن الرخام الأبيض. وكانت فى النادر تصنع من الرخام الأحمر.

أما الأواني الكبيرة الحجم فكانت تصنع من الجرانيت. وكانت الكؤوس الصغيرة الحجم تصنع من الحجر الصخرى المتبلور (الكريستال) وكانت تصنع

من هذه المواد المختلفة الأنية ذات الشكل الأسطوانى أو البيضاوى والكؤوس والأقداح والأكواب والأطباق والبرانى ذات الصنبور والأباريق وسلاطين الحساء والفراشي ذات القعدة، وقد ربيتم بعض الصناع ممن وهبوا خيالا واسعا، على سطح أبريق الشبكة التى يقدم داخلها هذا الأبريق، أو يشكون إناء على هيئة مركب أو حيوان.

ولم تتوقف إطلاقا صناعة الأواني الجميلة من الأحجار، ومقابر عهد الامبراطورية الحديدية تقدم لنا منها مجموعة هامة، ومع ذلك فقد كانت الأنية المصنوعة من الذهب أو الفضة، وكانوا يصنعون أباريق لتستخدم فى الطلوس الفيتية، ويصنعون كثيرا غيرها للاستعمال الدنيوى.

وكانت تحضر المشروبات الساخنة فى أوان على هيئة غلايات ذات مصفاة داخلية مثبتة داخل الصنبور، وتشبه أباريق الشاي التى تستعمل فى الوقت الحاضر. كما كان من الممكن صب المشروب الساخن خلال مصفاة يتسرب منها السائل فى قدح يمسكه الشارب، لو فضل ذلك.

وقد هين الأبريق المشهور ذو الماعز وهو أحد كنوز بوبسط ليكون إناء لحفظ اللبن. وكانت الأواني المخصصة للمشروبات، ذات أشكال مختلفة، فمنها أقداح ذات قاع مستدير وصنبور، وأنية مستديرة ذات مقبض وصنبور وأقداح فى نهايتها مقبض طويل تماثل معيار اللبن فى فرنسا.

وكانت الفناجيل ذات المقبضين والأواني المستطيلة المزينة ملائمة للزبد والبطائر. وكان يصر رمسيس الثالث، عند قيامه بحملة حربية على أن يحمل ضابط الإمدادات معه إناء كبيرا من الذهب ذا مقبض، سعته ثلاثة لترات تقريبا، كما يحمل قنينة المياه، وكان الذين لا يستطيعون استعمال هذه الأواني، التى تعد على درجة كبيرة من الفخامة، يكتفون بأنوان من الفخار.

وكان صناع الفخار ينتجون منذ زمنٍ قطعا جميلة من الفخار الجيد النوع ويرسمون عليها زخارف هندسية أو صور أزهار أو رسوما حية مثل تلك التي نراها محفورة على الأواني المعدنية وتمثل طائرا يلتهم سمكة وحيوانات تتسابق راكضة.

ومنذ أول عهد الامبراطورية الحديثة استوردت مصر من الخارج، من الجزر ومن سوريا ومن بلاد النوبة، أدوات كمالية فاخرة مثل أواني الخط وجرار الخمر وقواعد الأواني المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة والتي لم تكن الحاجة إليها ماسة ولكنها كانت تستخدم كوسيلة لتكوين مجموعات من شتى أنواع النبات والحيوان في البلاد الأجنبية، الحقيقي منها أو الخيالي على السواء.

وكان للمعابد نصيب وافر من معظم هذه الأشياء الثمينة ولكن فرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة منها. وقد انتشر نوق هذه القطع الأجنبية الجميلة بين الأهالي . فبدأ الصياغ المصريون في صناعة مثيلاتها .

وكان من ضمن الأعمال المكلف بها الأمير قنாமون الذي كان يشغل مناصب عليا، تقديم هدايا رأس السنة إلى الملك، وقد سجل على جدران مقبرته، المجموعة الكاملة لتلك الهدايا التي صنعت في المطابع الملكية.

ويلاحظ بصفة خاصة قطعة من الأثاث رسمت عليها غابة من نخيل اليوم ونخيلات سورية وقد تشابكت مع نباتات النيلوفر وزهور الأقحوان .

وترى قرود تقفز فوق سيقان النباتات لتجنى جمار النخيل. وهناك قطع أثاث أخرى تتفق والنوق التقليدي. وتمثيل من الأبنوس وأخرى من الأبنوس المطعم بالذهب تمثل الملك والملكة في أشكال مختلفة، إما فوق قاعدة أو في صوان أو على شكل أبو الهول ذي الرأس الأدمى، أو رأس الباز، أو ماعز

وغزلان مستلقية فوق الموائد والصناديق وأعتقد أن كل هذه القطع كانت مخصصة لتأثيث القصور الملكية وقاعات الاستقبال.

أما في غرف النوم فكان السرير هو القطعة الأساسية. وكان من الأسرة ما هو بسيط الصنع إلى أبعد الحدود. إطار خشبي تقوم عليه عارضة تحملها أربع قوائم، تماثل في أغلب الأحيان أرجل الثور أو الأسد. وقد حفظت لنا مقبرة توت عنخ آمون أسرة فاخرة، كل ناحية منها على هيئة حيوان كامل، البقرة والفهد، وفرس البحر. وتحتوى الغرفة أيضا على أصونة من الخشب المشغول بالمرصعات حيث كانت توضع بها الملابس الداخلية والثياب.

أما أدوات الزينة كالمرايا والأمشاط ودبابيس الشعر والشعور المستعارة فكانت تحفظ في صناديق وخزائن مختلفة الأحكام. وأما مستحضرات التجميل كالمراهم والروائح العطرية فكانت توضع في أوان من الزجاج الطبيعي أو من العاج. أما القاعات المخصصة لأفراد الأسرة كالأطفال والنبات فكانت تترك بها الآلات الموسيقية وصناديق اللعب.

أما قاعات المكاتب فكانت تؤثث بأصونة ذات طابع خاص تزدهم فيها المخطوطات وملفات الرقوق وأوراق البردى وجميع الأدوات التي يحتاج إليها الكاتب. وعندما تكتب ورقة البردى كانت تطوى وتربط ثم تختم وتوضع الملفات في ربطات.

وتحفظ الربطات في حقائب من الجلد. وهذه تحفظ بدورها في الأصونة. ولم يكن الكتاب في حاجة إلى مناضد ليكتبوا عليها، وكان يكفي الكاتب أن يبسط ورقة البردى على ركبته وهو جالس.

وفي بعض الأحيان كان يكتب وهو واقف قابضا على ورقة البردى باليد اليسرى، دون أن تطوى الورقة. وعندما يفرغ من الكتابة يضع كل أدوات

الكتابة داخل ما يشبه حقيبة، ذات سطح مستو، مزودة بقفل ينزلق ليسدها، وفي نهايتها سير تعلق منه.

أما أثاث المطابخ فيتكون من مناضد ذات أربع قوائم وأوعية من الفخار السميك ذات الأشكال والأحجام المختلفة، وكانت الأفران تصنع من الصلصال الذي يتحمل النيران. أما المواقد المعدنية ذات القوائم الطويلة التي كان يشوى عليها الأوز، فلم تكن تستخدم، كما اعتقد، إلا في المعابد، ولم يكن يلجأ إلى استعمالها طباطخ يهوى مهنته.

أما في المنازل الصغيرة، حيث كان يتجمع كل أفراد الأسرة في غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرين متراً مربعاً فكانت تقل قطع الأثاث فيها حتى تصبح مجرد حصير، وبعض أوان من الفخار. وهنا كانت بعض الأرفف والصناديق الخشبية تعد على أنها دليل على الثراء.

الجناسات

١- الشيخوخة :

كتب لنا كل من بتاح حنب الحكيم، وسنوحى المفامر عن الشيخوخة في صراحة فوصفها بأنها سن القبح، وسن الضعف الجسماني والمعنوي. ويصبح الإنسان ضعيف البصر، ثقيل السمع، ضعيف الذاكرة، لا يستطيع أن يقوم بعمل إلا وهو يشعر بإعياء شديد، ولا ينتفع بالطعام الذي يأكله.

ومع ذلك فقد كان المصريون جميعاً يتمنون أن يبلغوا هذه السن المرنولة، مثلهم في هذا مثل سائر البشر.

والشيخ الذي احتفظ بمظاهر الشباب بفضل العناية الصحية وبقيت قواه المعنوية سليمة كان يثير إعجاب الجميع. فكبير الكهنة رومي روى أنه قد أقر

بأنه بلغ الشيخوخة وهو فى خدمة أمون الذى غمره بعطفه، حيث يقول :إن أعضاء جسمى تتمتع بصحة طيبة- بصرى قوى ، والطعام الذى ألتقاه من معبده يبقى فى فمى .

وقد تناول الحديث فى البلاط الملكى رجلا مسنا من الطبقة الوسطى قيل إنه يبلغ من العمر ١١٠ سنة ويأكل بشهية حتى اليوم خمسمائة رغيف من الخبز، وكثف ثور، ويشرب مائة جرة من الجعة (البيرة) ، ولكن لم يذكر بوجه التحديد إذا كان يأكل كل هذا الطعام فى يوم أو خلال شهر أو فى فصل من فصول السنة. أو فى سنة بأكملها .

وكان هذا الرجل المسن ساحرا عالما، وقديرا قويا. فاعتزم فرعون استدعاءه ليقيم بجواره، ووعد بأن يطعمه أطايب الطعام التى يمنحها الملك من المنون المخصصة لأفراد الحاشية ويتمتع بكل ذلك حتى يلحق بأبائه فى الجبانة. وقد كلف ابن فرعون نفسه بالقيام بهذه الدعوة.. فقطع مسافة طويلة من الرحلة فى سفينة، ثم قطع مسافة ثانية على كرسي محمول على محفة لأن العربات لم تكن قد عرفت بعد. فوجد من كان يبحث عنه ممدداً على حصيرة أمام باب بيته، وكان أحد الخدم يروح له بالمروحة، وآخر يدلك له قدميه ... وعندما حياه الأمير، أجابه فى بشاشة قائلا :

«سلام عليك، سلام عليك يا ديديف حر، أيها النجل الملكى المحبوب من والده، ليمنحك أبوك خوفوتو الصوت العادل، الثناء العاطر ويعلى شأنك، لتكون مثل من بلغ أشده من الرجال، ولتتمكن روحك (الكا) من إحباط محاولات أعدائك.. ونفسك (البا) تعرف الطريق السرى الذى يوصلك إلى البوابة، فمد الأمير ذراعيه وعاونته على القيام وقاده ممسكا بيده حتى شاطئ النهر.

فوصل الإثنان فى ثلاثة سفن إلى القصر الملكى حيث قابلهما الملك فوراً. وعبر الملك عن دهشته لأنه لم يسبق له أن تعرف بهذا المواطن الوقور أكبر

رعاياه سنا، فأجاب الضيف ببساطة نبيلة وكان تعبيره مثالا للملق، قال :
«مولاي وسيدى إن من يأتى هو الذى يستدعى، لقد عييت وهأنذا قد حضرت»

وما كانوا يسمونه، فى العرف السائد، بالشيخوخة السعيدة، لم تكن الشيخوخة الخالية من الأمراض أو العاهات بل كان يجب أن يصحبها السخاء أيضا أو على الأقل سعة العيش، والذى يصل إلى مرتبة الشخص المحترم إيماء لم يكن يكفل له العيش فى أيام الشيخوخة فحسب، بل كان يمكنه أن يعتمد على أن يكون له قبر جميل. فعندما عاد سنوحى من المنفى منح منزلا تملكه، ويصلح لأحد رجال الحاشية.

اشتغل كثير من العمال فى بنائه وكانت أعمال النجارة فيه من الخشب الجديد، وليس من مخلفات مبان قديمة، كان يؤتى إلى بالطعام من القصر الملكى ثلاث مرات وأربعا كل يوم، علاوة على ما كان يعدنى به دائما أنجال الملك.

ويعد أن كان سنوحى يتسلم القرايين الجنائزية الملكية، أصبح الآن يقوم بالإشراف على تشييد بيته الأبدى. فزوده بالآثاث ونظم فى دقة كل ما يتعلق بصيانة مقبرته وبالمحافظة على المراسيم الجنائزية. وكان هذا العمل مما يسر له كل شيخ طاعن فى السن، وخاصة إذا كان هذا الشيخ صديقا للملك، وكان للملك أن يمنح أو أن يرفض، وفقا لرغبته، هذا اللقب أماخو المرغوب فيه بين الناس. وبما أن الملك كان بناء على وصف المداحين له، طيب القلب وعادلا وقديرا وعليما بكل شىء.

فقد كان الأهالى واثقين من أنه لن يضمن بالإنعام بهذا اللقب على أحد ممن خدموه بإخلاص. وكان كبار رجال الدولة يتخنون أعمال الملك نموذجا يحتنون.

لقد كان عدد الخدم والموظفين كبيراً لدى حكام المدن والولايات ورؤساء الدين وقواد الجيش، وكل من بلغ من هؤلاء الخدم والموظفين سن الشيخوخة كان السيد الرحيم يلحقهم بوظيفة يسيرة تتناسب وقواهم المضمحلة وبذلك يكفل لهم العيش والمأوى إلى أن تحين ساعتهم.

لذلك كان فرعون، بالرغم من أنه لم يفكر لسنوحى فراره عندما كان فى سن الشباب لا يرغب فى أن يحرمه من حقوقه الأساسية، فسمح له بأن يعود إلى مصر عندما علم أنه أصبح على وشك الشيخوخة.

ذلك أن مصر لم تكن تفرط فى شيوخها كما لم تكن تضحى بأبنائها، على أنى لا أريد أن أجزم بأنه لم يحدث فى هذه الأرض المباركة أن وارثاً متعجلاً أنهى عمر أحد مورثيه الذى أبدى جهارا وفى إصرار عن رغبته الملحة فى أن يعيش إلى سن العاشرة بعد المائة.

لقد حدث أن ملوكا خلعوا عن عروشهم، ولكن يلاحظ أن أمنمحات الأول الذى حكم نحو عشرين سنة. عهد بالحكم الفعلى إلى ابنه.

وقد عاش بعد ذلك حياة مستقرة مايقرب من عشر سنوات، استطاع خلالها أن يدون وصاياه الصارمة. والملك أيريس، وقد هزم وخلع عن عرشه، ربما استطاع أن يحتفظ بحياته، لو أنه لم يستثر غضب المصريين بقسوة لا مبرر لها.

وعلى الجملة فقد كانت مصر من البلاد التى تعنى بالمعمرين فى حياتهم.

٢- وزن الأعمال :

يخطئ كثيراً من يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يرغبون فى الانتقال من أرض الأحياء، فهم يعلمون أن الموت لا يستمتع لآى شكوى إنه لا يلين

لضراعة أو شفاعة. وعبثا يتذرع الإنسان بأنه لا يزال شابا «إذ أن الموت يختطف الطفل وهو رضيع من بين ثديي أمه.

كما يدرك الرجل عندما يصبح طاعنا في السن» وعلى كل ، «فما قيمة تلك السنين التي يعيشها الإنسان على الأرض مهما طالت؟ إن الغرب هو أرض الرقاد والظلام الحالك، هو المكان الذي يقيم فيه من جاء إليه، وهؤلاء الراقدون المكفنون في لفائفهم لا يستيقظون إلا لرؤية أخوتهم.

ولكنهم لا يرون آبائهم ولا أمهاتهم وتنسى قلوبهم زوجاتهم وأولادهم، والماء العذب الذي تمنحه الأرض لمن يعيش عليها هو بالنسبة لى ماء أسن، يأتى الماء بالقرب ممن كان على الأرض، أما الماء الذي يجاورنى فهو أسن .»

إن خير ما يعبر به رجل متدين عن العالم الآخر هو أن الإنسان يتخلص فيه من منافسيه ومن أعدائه، وأنه وجد الراحة أخيرا، كما يلاحظ أن بعض المتشككين أخيرا، يذهبون إلى القول بأنه «لا يعود إلينا أحد من الموتى ليقول لنا كيف حال المتوفين وماذا ينقصهم حتى تطمئن قلوبنا إلى أن تأتى الساعة التي سنذهب فيها بدورنا إلى حيث ذهبوا». ويقول هذا الحكيم أيضا «إن كافة المقابر تنهار، وقد طمست أيضا معالم مقابر الحكماء القدامى، كأن لم توجد من قبل».

ومع ذلك لم يستنتج من قول هذا الحكيم أنه من العبث أن يعد المرء مقبرته فى مثل تلك العناية وأن يفكر فى أمر الموت، قبل أن يأتية بمدة طويلة، ولو أنه قال ذلك، ما استطاع أن يقنع بحاصريه، لأنهم كانوا وهم فى عهد رمسيس، يماثلون أسلافهم من عهد بناء الأهرام، يقومون بإعداد انتقالهم من هذا العالم إلى الآخرة، فى عناية ودقة. لأن انتقال الموتى إلى العالم الآخر، كان يعد اختبارا رهيبا: إنه وزن أعمالهم. فالملك الطاعن فى السن الذى حرر وصاياہ لمرى كارع، كان يحذر ابنه من القضاة الذين يظلمون الناس. وقد قاده هذا الموضوع إلى الحديث عن نوع آخر من القضاة:

«يجب ألا تؤمن بأن كل شيء سينتهى إلى عالم النسيان فى يوم الحساب، لا تعتمد على طول سنى الحياة، فإن الحياة عند الآلهة ساعة واحدة مما تعدون، ذلك أن حياة الإنسان تستمر بعد وفاته، وأن أعماله تتكدر بجواره. ومن تقدم بين يدي قضاة الموتى دون ذنوب، كان بمثابة إله. واستطاع أن يسير فى حرية مثله فى هذا مثل سادة الأبدية .

لقد واثت ستتا ابن رمسيس أوسر مارع، فرصة لا مثيل لها، إذ دخل الأمنتيت حيا، حيث شاهده الإله الكبير أوزيريس جالسا على عرشه الذهبى الخالص، متوجا بالتاج ذى الريشتين وعن يساره الإله الكبير أنوب، وعن يمينه الإله الكبير نحوت كما كان عن يساره آلهة بصح البشر فى الأمنتيت، وعن يمينه الميزان المقام فى الوسط أمامهم حيث كانوا يزنون السيئات مقابل الحسنات.

بينما كان الإله الكبير نحوت يقوم بدور الكاتب المسجل، وأنوب يتحدث إليهم، كان المتهمون يقسمون إلى ثلاث فئات : فئة كانت سيئاتهم تفوق كثيرا حسناتهم، وهؤلاء يسلمون إلى الكلية المريعة أمابيت وفئة كانت فضائلهم تفوق رذائلهم، وكان هؤلاء يقانون لينضموا إلى مجلس الآلهة. وفئة أولئك الذين كانت سيئاتهم تعادل حسناتهم كانت توكل لهم خدمة المعبود سوكر أوزيريس بيوتهم مثقلون بالتعائم.

كان المصريون يعرفون تماما أن عددا قليلا جدا منهم سوف يمثل أمام القاضى الأعظم، دون أن تكون له ذنوب، فكان ينبغي لهم إذن الحصول من الآلهة على الصفح عن السيئات وأن يتطهروا من أدرانهم. وكان هذا الرجاء شائعا جدا بين الناس وكثيرا ما ذكر فى الصلوات الجنائزية.

«لقد أنمحت خطاياى وطرححت ذنوبى جانبا وانهارت معاصى» أنك تلقى
«بخطاياك لدى نن نسوت.

«تظهرك الساحرة الكبرى .. عليك أن تعترف بخطيئتك التي سوف تمجى،
لعمل أشياء مقابل كل ماتكون قد قلتة. تحية لك يا أوزيريس في ديدو إنك
تستمع لحديثه، فتمخو ذنوبه، وترفع صوتك فوق صوت أعدائه وتثبت قواه في
محكمة هذه الأرض إنك تأيت بينما يسقط أعداؤك، وكل ما يقال عنك من شر،
لا وجود له. إنك تمثل بين يدي مجلس الآلهة الكبير وتخرج منه صادق القول»

وقد وضع الفصل الخامس والعشرون بعد المائة بأكمله من كتاب الموتى
لتخليص المذنبين من أدرانهم وخطاياهم، وكان المصريون ينسخون هذا الفصل
على ورق البردي لوضع داخل التابوت بين سباقي المهيا. وبجمل القارئ هذا
الفصل بأن ماجاء به ما هو إلا قرار سباقي لحاكمته.

لكنها محاكمة يدور كل شيء فيها على خير مايرام، والسبب لا نعلمه،
سميت قاعة المحكمة، قاعة الحقيقتين، يجلس فيها أوزيريس على العرش داخل
معبد صغير، وتقف خلفه شقيقته، أيزيس ونفتيس، بينما يصطف في الداخل
أربعة عشر من النواب، وقد نصب في وسط القاعة ميزان كبير، على مسنده
(في أعلاه) تارة برأس الحقيقة وتارة برأس أنوبيس أو رأس تحوت.

ويتربص وحش بجوار الميزان لحراسته، ويلاحظ في وسط القاعة كل من
تحوت وأنوبيس وفي بعض الأحيان هورس والحقيقتان وهم جميعا منمكون في
العمل ويقوم أنوبيس بإدخال الميت مرتديا ثوبا من الكتان فيخفي القاضي وكافة
الآلهة الحاضرين، قائلا: تحية لك أيها المعبود الكبير، سيد الحقيقتين.

لقد أتيت إليك ماثلا أمامك. وعندما أحرضوني إليك رأيت كمالك، إنى
أعرفك وأعرف إسمك وأعرف إسم الاثنين والأربعين معبودا الذين بجوارك في
هذه القاعة : قاعة الحقيقتين، إنهم أولئك الذين يعيشون حراسا يراقبون الأشرار
ويرتوون من دمهم في هذا اليوم الذي أعد لوزن الطباع والأخلاق أمام الكائن

الطيب، ثم يسرد تصريحاً مطولاً عن براعته فى عبارات سلبية: «لم أرتكب إثماً ضد البشر لم أسء معاملة أحد من رجالى لم أكلفهم القيام بعمل ما فوق طاقتهم لم أفتر على الآلهة ولم أعذب الفقير، لم أجوع أحداً ولم أطفف فى الكيل، لم أقلل فى القياس بالقصبة، لم أغش فى مساحة الحقول ولم أقلل فى الوزن، لم أحذف شيئاً من ثقل الميزان، لم أغش فى الوزن، لم أتزع اللبن من قم الأطفال الصغار لم أعوق سير المياه فى موسم الفيضان، لم أعطل سير الإله عند خروجه».

وبعد أن يكون قد دافع عن نفسه ستاً وثلاثين مرة بأنه لم يقم بعمل ما هو مكروه فى نظر الاتقياء، ينتهى إلى القول بأنه كان طاهراً، لأنه كان أنف معبود التسمات، منبع حياة كل من عاش فى مصر. ثم يكرر ما قاله لإظهار براعته كأنه يخشى ألا يصدقوه، فيعيد إقراره الدال على براعته، متوجهاً نحو الاثنين وأربعين معبوداً بالتوالى، والذين كان قد حياهم عند دخوله القاعة.

وهم يحملون ألقاباً مفزعة مثل : واسع الخطوة، مبتلع الظلام، مهشم العظام، أكل الدم، الصائح، معلن القتال، وبعد أن يذكر كل إسم ينفى ذنباً من ذنوبه، ويستطرد قائلاً إنه لم يكن يخشى أن يقع تحت طائلة سلاح القضاة لا لأنه لم يسب الإله ولم يهن الملك فحسب.

ولكن لأنه قام أيضاً بعمل ما قاله الناس وما وافق عليه الإله. فإنه قد أرضى الإله بعمل ما يحبه، أعطى الخبز للجائع والماء للعطشان، وكسى العارى وأعار معديته لمن أراد عبور النهر. وهو ممن يقابلون بالترحاب حين يراهم الناس فقد قام بعمل الكثير من أعمال البر والتقوى تلك الأعمال التى تستحق المديح.

ومن أمثلة ذلك أنه استمع إلى حوار القطة والحمار الذى تأسف جداً لعدم معرفتنا له. ولم يكن ليبقى إلا أن نستخلص النتيجة العملية من هذه التجربة أو هذا الاختبار، فعلى إحدى كفتى الميزان وضع قلب من تجرى محاسبته وعلى

الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة، ولكن ماذا يحدث لو افترضنا أن القلب قد تكلم، فكذب صاحبه لتلافى هذا الخطر صيغ الابتهاال، موضوع الفصل الثلاثين من كتاب الموتى وهما نصه:

يا قلبي ويا قلب أمي ويا مصدر تصرفاتي لا تشهد ضدي^(١)، لا تعترضني أمام القضاة، لا تجعل وزنك يعلو في غير مصلحتي أمام سيد الميزان فإنك الروح في صدري والخالق الذي يمنح السلامة لأعضاء جسمي، لا تسمح بأن تفوح من إسمي رائحة كريهة، لا تقل أكاذيب ضدي أمام الآلهة، وبعد أن يناشد القلب بهذا التوسل، يستمع صامتا إلى هذين الاعتراضين.

وكانت النتيجة محققة النجاح، فإن أنوبيس يوقف ذبذبة الميزان ويعلن أن الكفتين متوازيتان ولم يبق على تحوت إلا أن يسجل نتيجة هذا الوزن مقررا أن الطالب قد انتصر وأنه ما ع خرو صادق القول.

وبهذا ينضم إلى مملكة أوزيريس أحد الرعايا الجدد. أما الغول الذي كان يأمل في أن يلتهم هذا القادم الجديد فإنه يظل باقيا في انتظاره.

هل كان المصريون يعتقدون حقيقة أنه يكفي أن ينكر الإنسان ذنوبه كتابة ليمحوها من ذاكرة الآلهة والناس. قد ورد في بعض المؤلفات الحديثة عن العقيدة الدينية للمصريين القدماء أن الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى هو نص سحري، وكلمة سحر، تعنى أشياء كثيرة.

يجب على علماء الآثار المصرية ألا ينسوا أبدا أن الكتاب الذي يشمل البحث عن طريقة إعادة الرجل الطاعن في السن إلى شاب يافع، قد وصف بأنه

(١) يبدو أن هذه العقيدة مأخوذة عن رسالة سماوية ولكنها حُرقت ، يقول الله تعالى : «يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون». وقال تعالى : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء»

نص سحرى، وعندما تمت دراسة هذا المؤلف، تبين أنه عبارة عن وصفات للتخلص من مظهر الشيخوخة البغيضة مثل التجعدات والحبوب واحمرار الجلد.

ويبدو أن مصنف الوصايا لم ي كارع، عندما قرر أنه لا يمكن لإنسان أن يخدع القاضى الأعظم، فلم يكن إلا معبرا عن رأى السائد فى هذا الصدد، ويمكن التأكيد أن المصرى عندما يكون قرر أنه طاهر، أو زعم فى إصرار بأنه لم يكن قد اقترف ذنبا، فربما يكون قد تخلص حقا، خلال حياته من ذنوبه وثقل خطاياہ. هذا هو الاعتقاد الجازم الذى كان يحرره من الخوف من الآخرة.

وكان الهدف الجوهرى أن يعلن أنه أصبح ماع خرو أعنى الصادق القول، ولم يكن أحد يستحق هذا اللقب إلا إذا دافع شفويا عن نفسه أمام القضاة وليس من الممكن إحصاء عدد المصريين الذين دونت أسمائهم على اللوحات التذكارية أو الجنائزية أو التوابيت أو جدران المقابر وقد وصفوا بأنهم ماع خرو. وقد ظن البعض أن هذه العبارة هى مجرد أمنية دينية كان يستعملها الأحياء إما لأنفسهم أو لأقاربهم أو لأصدقائهم وأن هذه الأمنية لا تستجاب إلا فى الآخرة.

وكان هذا الاعتقاد سائدا إلى حد أن أصبحت عبارة ماع خرو تعتبر عمليا كأنها مرادفة لكلمة المرحوم. وعلى كل ، فإننا نعلم أن أفراد من المصريين كانوا قد حملوا هذه العبارة أثناء حياتهم كان هذا هو حال خوفو الذى اتهمه الإغريق بعدم التقوى، فى حين أنه كان ماع خرو عندما كان يستمع لأولاده وهم يقصون عليه الواحد تلو الآخر قصص السحرة وكان هذا أيضا حال بارمسيس وقت أن كلفه حورمحب بإدارة أعمال معبد أوبت الكبرى قبل أن يصبح الملك رمسيس الأول كما كان حال كبير شعب باشيشنق ولم يكن قد ولى بعد. ملکا باسم شيشنق الأول

ورياكن خونسو كبير كهنة آمون، كان ذا صوت عادل عندما تفضل عليه رمسيس الثانى وسمح له بأن يقيم تماثيله فى المعبد حيث اختلطت بجماعة المرضى عنهم وكان ر عمر رمسيس الثانى حينذاك ٩١ سنة.

وقد عاش بعد ذلك بضع سنوات. وأحد خلفائه، رمسيس ناخت كان أيضا قد لقب بذى القول الصادق (ماع خرو) كما نرى ذلك فى نقوش وادى الحمامات التى تسرد موضوع الحملة الكبرى التى أرسلها رمسيس الرابع إلى جبل بخن فى السنة الثالثة من حكمه.

ولكنه كان حيا أيضا فى السنة الرابعة فى عهد ملك يرجح أنه لم يكن إلا رمسيس الرابع أو رمسيس الخامس.

هذه الأمثلة تكفى لإثبات أن المصريين كانوا يسبحون ماع خرو فى حياتهم وهم لا يزالون يسيرون على أقدامهم.

ولكن كيف كان الحصول على هذا اللقب الجميل مستطاعا؟ وقد كان أوزيريس أول من حمل لقب ماع خرو. وعندما كانت زوجته الوفية قد ردت إليه الصحة الكاملة والحياة، كان هو قد رفع دعوى ضد قاتله ست أمام المحكمة المقدسة برياسة الإله رع وتمكن من استصدار حكم بآدانتته.

ولم ترض إيزيس أن تظل معاركها وعلامات تفانيها وإخلاصها لزوجها مغمورة فى عالم النسيان ولذلك قامت بوضع أسرار جد مقدسة يتخذها البشر مثالا ووسيلة للتسلية. وفى هذه الأسرار كانت تمثل الآلام التى تحملها أوزيريس وكانت لاتزال تمثل حتى عصر هيروdot.

وفى الأزمان القديمة التى ترجع إلى عهد أقدم من ذلك بكثير بجانب تمثيل أيضا معركة أنصار أوزيريس لتخليص جسد سيدهم والعودة به منتصرا إلى معبد أبيدوس. كما مثلت أسرار المحاكمة.

وقد ورد فى الفصل الثامن عشر من كتاب الموتى بيان عن المدن المحفوظة التى جرى فيها تمثيل هذه الأسرار وهى : أون وديدو ورايميت وخم وبه ودب ورختى ، فى الدلتا وروسيتاو وهو أحد أحياء مدينة منف ونارف فى مدخل الفيوم وأبيدوس فى مصر العليا.

ويدعى أن كل مصرى تقى كان يمكنه أن يضمن خلاصه فى الحياة الأخرى إذا هو اتبع ما قام به أوزيريس. فقد ورد فى نهاية الفصل الخامس والعشرين بعد المائة تحذيرا لا يمكن توجيهه إلا إلى الأحياء : يتلى هذا الفصل حين يكون المرء نظيفا ونقيا، مرتديا ملابس الحفلات. ومنتعلا نعلا أبيض اللون مكحول العينين بالكحل الأسود، مدهون الجسم بالزيوت والبخور من أجود الأنواع.

وبعد تقديم لربان كامل من العجول والطيور والتريتتين والخبز والبيرة والخضر، وقد أضاف أيضا النص المقدس ما يأتى : «ومن قام بعمل ما ذكر لنفسه فإنه يصبح فتيا ويكون أولاده أشداء، وينال رضا الملك وكبار الدولة ولا ينقصه شىء إطلاقا، وينتهى أخيرا بأن يكون من حرس أوزيرس، ويمكن الآن أن نتصور سر هذه المحاكمة التى كان يمكن أن يتخلص فيها المصريون من نوبهم.

ومن كان منهم يعتبر أن أيامه معدودة وأنه على وشك الرحيل إلى الأبدية، إما لأنه أصبح شيخا أو لأنه مريض، وإما لأن إحدى التحذيرات السرية التى كان يبعث بها أوزيرس فى بعض الأحيان إلى من سيلحقون به قريبا فى مملكته قد مسته. فإن هؤلاء جميعا كانوا يتجهون أفواجا إلى إحدى تلك المدن التى ذكرتها سابقا. وكانوا يتخذون لأنفسهم الاحتياطات المبينة فى الوصية التى سبق أن أشرت إليها : فكانوا يحرسون بنوع خاص بالأا ينسوا أن ينفقوا مايلزم لتقديم القرىبان الكامل.

وتوحى تلاوة الفصل الخامس والعشرين بعد المائة بأن سر المحاكمة كان يشمل فصلين . فأوزيريس، هو الذى يقوم فى أول الأمر بإثبات براءته، فيخاطب المعبود رع ويثبت بست وثلاثين عبارة ، السالفة الذكر، بأنه لم يرتكب إثماً فى أى لحظة من السنة. فيردد المؤمنون بدورهم صدى هذا الإقرار المعبر عن البراءة ويشعرون بارتياح وقوة للحكم الذى صدر ببراءة العابد.

ولم يكن هذا مع ذلك كافياً . فيترك أوزيريس أريكة المتظلمين (المتوسلين) ليجلس على مقعد القاضى، فيقوم المؤمنون بتلاوة الاعتراف الثانى السلبى ويتقدمون كل بدوره نحو الميزان، الواحد بعد الآخر وكل منهم يحمل شكل قلب من اللزورد نحت عليه إسمه.

ويوضع هذا القلب فى إحدى كفتى الميزان ويوضع فى الكفة الأخرى تمثال يمثل الحقيقة، ويستطيع كل من الحاضرين أن يتحقق من أن الكفتين متعادلتان فيعلن رسمياً بأن المدان «طار الصوت» ويسجل ذلك. وكان يمكنه أن يعود، بعد ذلك إلى مقره وهو متأكد من أن أبواب الآخرة لن تغلق فى وجهه.

٣- إعداد المقبرة :

الآن وقد أصبح كل مصرى مطمئن النفس فلم يعد له إلا أن يكرس كل جهوده لبيت الأبدى.

أما الملوك فكانوا يبادرون دائماً إلى عمل ذلك قبل أوانه بزمان طويل، ذلك أن بناء هرم ولو كان متوسط الحجم لم يكن أمراً هيناً فكانت توفد بعثات كبيرة حقيقية لنقل كتل الجرانيت والمرمر حتى هضبة الجزيرة أوسقارة.

ومنذ بداية عهد الامبراطورية الحديثة نقلت الجبانة الملكية إلى وادى الملوك غربى طيبة. وخلفاء رمسيس الأول، بالرغم من أنهم كانوا أصلاً من الدلتا. فقد قلدوا هؤلاء الذين خلعواهم ليتولوا العرش مكانهم واستمروا فى الحفر فى جبال

طيبة لإنشاء هذه السرايب التي كان يبلغ طولها أحيانا نحو مئة متر، وكانت تزخرف جدرانها بزخارف عجيبة تملأ كل جوانبها وغرفها.

وتمثل هذه النقوش رحلة رع الليلية في المناطق الاثنتى عشرة في العالم السفلى، ومكافحته ضد أعداء النور، وليس شيء من كل هذا يذكر ما قام الملك بعمله خلال حياته. لم تكن هذه النقوش تتعلق بالزائرين إذ أن المقبرة الملكية لم تكن قد أعدت لاستقبال أى زائر، فإنها كانت مكانا مغلقا وكان ينبغي أن يظل مدخله سريا.

ولكن مقابر الأفراد كانت على عكس ذلك تماما، كانت المقبرة تحتوى عادة على جزئين مختلفين تماما، القبر ويحفر داخل بئر ويكون فى عمقه، وأعد لدفن الميت. وعندما يرقد المتوفى فى تابوته بعد إتمام المراسيم الأخيرة، يسد مدخل القبر بإقامة جدار عليه وتردم البئر وبعد ذلك كان يجب ألا يقلق أحد وحدته. وكان يقام فوق هذا القبر مبنى أعد لزيارة الأحياء. وواجهة هذا المبنى كانت تقام داخل فناء، حيث تعرض لوحات تذكارية وجنائزية تتناول كل ما كان للمتوفى من فضائل وكل ما قام به من خدمات، بقصد إثارة إعجاب الأجيال القادمة.

وفى داخل هذا الفناء، ويجوار حوض المياه قد تغرس أشجار النخيل والجميز وكان هذا الفناء يؤدي إلى قاعة عرضها عادة أكبر من طولها أما زخرفتها فكانت أخاذة حقا. إذ أن سقف القاعة نفسه قد زخرف بزينات نباتية ورسوم هندسية ذات ألوان زاهية. والنقوش التي تكسو الجدار أو الأعمدة كانت تمثل حياة المتوفى فى أعظم مراحلها الخاصة.

ويوصفه من كبار الملاك كان يراقب أعمال الحقل وقنص الغزلان فى الصحراء ويلقى عصا الرماية على الطيور المائية والحرية على فرس البر ويساهم

كذلك فى صيد السمك. وكروئيس لورش آمون كان يشرف على أعمال النقاشين والنحاتين والصياغ والنجارين الذين يعملون فى خشب الأبنوس.

وبوصفه أحد كبار الموظفين كان يجمع إيرادات المملكة. وكجندى ، كان يقوم بتدريب المجندين الجدد. وقد رسم وهو فى قاعة العرش، يقدم للملك أفواجا عديدة من المندوبين الأجانب الذى وفدوا من بلاد لا تعرف مصر. وظهورهم محدوبة تنن من ثقل الجزية التى يحملونها ملتسمين من الملك نسمة الحياة.

وبعد أن يقوم الزائر بتفقد هذه القاعة يجد نفسه فى ممر كبير، يرى على جدرانه المتوفى وهو فى سفينة متجهة نحو أبيدوس ونرى على الجانب الآخر من الممر مراحل الدفن وقد تمت طبقا للمراسيم المعروفة. ويؤدى هذا الممر إلى قاعة أخيرة لا تعبر النقوش التى على جدرانها إلا عن مدى تقوى المتوفى، فيرى وهو يعبد الآلهة وكان يصب المياه المقدسة تكريما لهم، ويقدم لهم موقدا تتأجج فيه النيران، ويتلو الأناشيد وفى مقابل ذلك، كان يكافأ بالتعام الأطعمة التى تتجدد دائما والتى كان يستحقها نظرا لتقواه وفطنته.

ويدهى أن التابوت كان أهم قطعة فى الأثاث الجنائزى. وكان نفر حطب فى حياته قد تفقد أكثر من مرة المصنع الذى كان يصنع فيه تابوته فشاهد بهذا مثواه الأخير، محمولا فوق مقعدين صغيرين والعمال حوله. بعضهم جالسون وبعضهم واقفون وكلهم عاكفون على تلميعه والحفر عليه وصلاته بالرسوم. كما شاهد أيضا الكاهن وهو يرش عليه المياه المقدسة.

ولم يكن الملك ولا الأغنياء يكتفون بتابوت واحد - فكانت موميا بسوسنس بالرغم من أن القناع الذهبى يحميها، كانت موضوعة داخل تابوت فضي على شكل موميا، وهو موضوع فى تابوت آخر من الجرانيت الأسود يطابق التابوت السابق تماما فى شكله.

وكان تابوت الجرانيت موضوعا بدوره داخل صفحة مستطيلة الشكل متسعة نوعا ومزخرفة من الداخل ومن الخارج برسوم تمثل الآلهة المكلفة بحراسة المومياة. وقد رسم على طول الغطاء المقبب صورة المتوفى متسما بصفات أوزيريس.

بينما رسمت على غطاء التابوت من الداخل المعبودة نوت إلهة السماء تحوط بها القوارب ومجموعات الكواكب وجسمها الدقيق الرشيق يمتد بضعة سنتمترات فوق تابوت الجرانيت الأسود. أما الملك فيتمتع بجمال المعبودة وهو محدد فيها دائما بعينه المصنوعتين من الحجر، بينما تمنحه تلك المعبودة قبلة الأبدية..

وبهذا تتحقق أهم التمنيات التي كان يرجوها كل مصرى لحياته الأبدية ، وهى أن يصبح من سكان السماء سائحا بين النجوم التي تجهل الراحة والكواكب السيارة التي تجهل الهلاك.

وقد نقشت عيون على جانب التابوت، يستطيع أن يرى من خلالها إما رع أو أوزيريس وكذا الأبواب التي كان يعبرها كلما أراد الخروج من قصره أو العودة إليه، وبديهي أن الأثاث كان يختلف من ناحيتى النوع والفخامة طبقا لمقدرة المتوفى.

فكان أثاث توت عنخ آمون يفوق كل خيال أو تصور : أسرة للزينة وأسرة للراحة وأرائك وعربات ومراكب ودواليب وصناديق وخزائن. ومقاعد ذات مساند ومقاعد عادية ومقاعد صغيرة. وكافة أنواع الأسلحة وكافة أنواع العصي المعروفة فى عصره، وأثاث للزينة ولعب وأطباق وأثاث للمائدة وأشياء خاصة بالعقيدة الدينية.

ويوصفه عضوا فى مملكة أوزيريس، كان علي الملك أن يكرر فروض

التقوى التى كان قد قام بها فى حياته، وكرب أسرة ومليك كان عليه أن يواصل استقبال أطفاله وأقاربه وأصدقائه، ورعايا مملكته. وكان عليه أن يمدهم بالطعام، وليتمكن من تحقيق هذه الفكرة، كانت تعد له أطباق وأدوات بوفرة. وكانت توضع جانبا، قطع عديدة من أوانى المائدة الملكية، بقصد نقلها إلى المقبرة، كما كانت تطهى الطيور أيضا وقطع اللحوم والفاكهة والحبوب والمشروبات، وعلى الجملة كل مايؤكل ويشرب.

كان يستكمل التابوت بخزانة خشبية أو حجرية وبأربع أوان. تلك التى نسميها خطأ الأوانى الكانوبية. وكانت هذه الأوانى معدة لتوضع فيها أعضاء الجسم الداخلية التى تنزع منه أثناء عملية التحنيط، وكانت الأوانى توضع تحت رعاية الآلهة الأربع والآلهات الأربع، فأمست أحد هذه الآلهة كان له رأس آدمى، وحابى له رأس قرد يشبه الكلب.

وله رأس ابن أوى وقبح سنوف له رأس صقر. فغطاء الإناء الأول كان يمثل رأسا آدميا، بينما كانت الثلاثة الأخرى تمثل إما رأس قرد أو ابن أوى أو صقر. وكان بعض المرمقين يظنون أن هذا غير كاف ولذلك كانت تصنع لهم تواييت صغيرة من الذهب أو الفضة ذات أغشية وأوعية تشبه التواييت الحقيقية. وكانت توضع فيها اللفائف الصغيرة المحنطة ثم توضع هذه التواييت الأربعة الصغيرة فى أوان من المرمر.

إن حقول بالو التى كان أوزيريس مسيطرا عليها كانت بمثابة حديقة كانديد ، تعد أجمل بقعة فى العالم، ولكن كان يجب أن تمهد للزراعة كما تمهد أى أرض زراعية حقيقية، فيجرى حرثها ويذرهما، واقتلاع حشائشها وحصدها. وصيانة قنوات الري بها وإجراء أعمال أخرى لا ندرك بالضبط مدى فائدتها، إذ كان يجب مثلا نقل الرمل من شاطئ نهر إلى الشاطئ الآخر.

وهذه الأعمال التي يعتبرها مالك أرض أعمالا طبيعية وضرورية كانت بالعكس، لا تطلق بالنسبة لأولئك الذين قضوا حياتهم في البطالة أو كانوا يمارسون مهنة أخرى غير مهنة الفلاحة.

لم يعتقد أى شعب بقدر ما اعتقد المصريون بأن التماثيل سواء التي تمثل أشياء أو أحياء كان لها إلى حد كبير قوة فعالة وخواص الشيء الذي تمثله، وبذلك يكون قد وجد الدواء تماما. كان يكفي أن تصنع تماثيل ليكون في إمكانها أن تقوم بعمل المتوفى نفسه.

وكانت هذه التماثيل تصنع من الخزف المطلي، وبعض الأحيان من البرونز، وكانت على شكل مومياء. وفي بعض الأحيان كان الوجه يشبه وجه شخص بالذات. وإننا نعتقد بحق بأن المقصود فعلا كان تصوير شخص بالذات.

وإذا لم يقصد من التمثال الشبه التام فإن الغرض من صنعه قد يصل إليه الإنسان على أى الحالات بالكتابة المنقوشة عليه أو فوق قاعدته على الأقل، وذلك بذكر إسم ولقب الشخصية المقصودة والتي سيحل التمثال محلها، أوزيريس كبير كهنة آمون رع سونتير حورنحتي،

وكثيرا ما كان النص الذي ينقش على قاعدة التمثال يبين تماما الأعمال التي ينبغي للتمثال أن يؤديها.

فقد كتب على قاعدة تمثال أوزيريس «أيها التمثال إذا كان أوزيريس قد نودى عليه واستدعى وكلف بالقيام بكل الأعمال التي يجب أن تعمل هنا، في الجبانة. كما يقوم الإنسان بعمل ما يخصه لاستغلال حقوله وري أراضيه ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، واقتلاع الحشائش الضارة كما يعمل الإنسان تماما في أموره الخاصة، فما عليك إلا أن تقول : هانذا أفعل».

وعندما اندفع المصريون نحو هذا الاتجاه، ضاعفوا من صناعة هذه التماثيل ليتلافوا إلى الأبد القيام بأعمال السخرة الثقيلة الوطأة. وكانوا يقومون بنقش الآلات والأجولة بين أيدي التماثيل أو على ظهورها ويضمون إلى العمال الكتبة والملاحظين إذ كان لا مفر من أن يوجد الموظف الذي تستدعي الضرورة وجوده بجوار كل فرقة من فرق العمال الزراعيين.

وأخيرا صاروا يصنعون بالجملة كل أنواع الآلات والأشياء في صورة مصغرة ويضعونها تحت تصرف التماثيل الصغيرة. فكانوا يصنعون مثلاً «النير» للسقائين وحامل الرمال وسلالا ومقاطف وفنوسا ومعارك إما من البرونز وإما من الخزف. وهذه الأنوات كان يكتب عليها إسم التماثيل التي كانت تخصها وذلك لتلافى سرقتها أو استخدامها في أغراض غير التي قصدت منها أصلا.

وقد أوجت هذه الفكرة إلى صناعة تماثيل صغيرة، تصور نساء عاريات لوضعها في خدمة المتوفى. فكان الملوك والأمراء محظيات في حياتهم ولم يرغبوا في فقد هذه العادة التي ألفوها في العالم الآخر، فقد وجدنا من هذه التماثيل في مخدع بسوسنس، كان البعض منها يحمل إسمها ينتجى إلى أصل ملكي والبعض الآخر مجرد إسم امرأة. وإننا لنشفق على هذا الملك لو أنه كان يختار محظياته في حياته كما لو كان يختار عرائس يلهو بها.

كانت المومياة مغمرة بالزينة وبالحلي تماما مثل الأحياء. وعلى كل حال فقد كانت المومياة تزين غالبا بالجواهر التي كان يستعملها المتوفى أثناء حياته، وفي أغلب الأحيان كانت تصنع جواهر وحلي جديدة لهذه المناسبة.

وماك قائمة بما كان يلزم لمومياة ملك أو أحد كبار الشخصيات: القناع من ذهب إذا كان للملك أو للأمراء المقربين من أصل ملكي ومن الورق المقوى

أو من المصيص المطلى إذا كان للأفراد. الجيد ويتكون من لوحتين رقيقتين صلبتين من الذهب مغلفتين على شكل نسر مبسوط الجناحين.

قلادة واحدة أو أكثر من الذهب، ومن الأحجار ومن الخزف المصنوع من الخزف مكون من عدة صفوف من الخزف أو قطع صغيرة ولها قفل واحد أو قفلان، وتزود في بعض الأحيان بدلاية من الذهب أو من الأحجار المتساوية الحجم من الخزف. وبحلية للصدر واحدة أو أكثر من حلية ذات سلاسل. والشكل الذى كان يستعمل عادة هي الجعارين المجنحة حاملة في أجنحتها زيزيس ونفتيس.

وكان ينقش على ظهر الجعران دعاء القلب المشهور : «يا قلبى، ويا قلب أُمى ويا أيها القلب الذى لازمتنى في جميع أطوار حياتى، لا تقف لتشهد ضدى أمام القضاة ولا تجعل كفة الميزان تثقل في غير مصلحتى أمام حارس الميزان إذ أنك الروح (الكا) التى في جسدى والإله خنوم الذى يحرص على أن تكون أعضاء جسمى سليمة، لا تجعل اسمى تفوح منه رائحة كريهة ولا تسيء إلى سمعتى ولا تفتر على الكذب أمام الإله.

جعارين أخرى بعضها ذات أجنحة والبعض الآخر ليس له أجنحة، تحمل نقوشا ولكنها دون إطار. وقلوب من أحجار اللازورد ذات سلاسل نقش عليها اسم المتوفى.

أساور بعضها لين وبعضها صلب، بعضها مفرغة، وبعضها صب للمعاصم وللأذرع وللأفخاذ ولقصبه الأرجل وحلية للأصابع - أصابع الأيدي وأصابع الأقدام. وخواتم لكل الأصابع.

ونعال : وتماثيل صغيرة للآلهة تعلق في رقبة الميت أو تشبك على حلية الصدر:

ولكن أنوب ونحوت من الآلهة التى يناط بها بنوع خاص مهمة حماية المتوفى، وذلك للدور الذى يقومان به أثناء عملية وزن الأفعال وقد يختار غيرهما أحيانا. ولم يستخف بأمر الصقور أو النسور ذات الأجنحة المبسوطة ولا برؤوس الصلال، إذ أن الصل هو الحارس للمزلاج الذى يحكم غلق أبواب مختلف أقسام العالم الآخر. كما لم يستخف بتمائم أوزيريس وإيزيس ولا بالعين السليمة (أرجا).

وكان ينبغي أن يضاف أيضا إلى كل هذه الزينات نماذج التماثيل المصغرة من عدة أشياء مثل العصي، والصولجانات والأسلحة والشعارات الملكية أو الإلهية التى كان يحسن دائما أن تكون فى متناول الأيدي.

ولم يكن أمرا هينا أن يقوم الإنسان باختيار الأشياء وطلب صنع أشياء مختلفة ومعقدة إلى هذا الحد، فإن ذلك يتطلب إنفاق أموال كثيرة وملاحظة تنفيذ صنع هذه الأشياء ومراقبة العمال للتأكد من حسن صنعها. إذ أن مستقبل الميت كان يتعلق إلى حد كبير بمدى العناية التى يبذلها لإعداد بيته الأبدى وأثاثه وحليه مهما ظن فى هذا الصدد بعض المفكرين المكتئبين، إذ أن العالم الآخر ليس مكانا للراحة والهدوء فحسب بل أنه ملئ بالمكائد التى لا يمكن التخلص منها إلا إذا اتخذت فى هذا الشأن الاحتياطات الكافية تماما.

٤- واجبات كاهن القرين :

كان المصرى الطاعن فى السن يعرف كيف يشيد بيت المستقبل، بيت الأبدية. وكان يقوم بزخرفته وفقا لنوقه وإمكانياته وعهد إلى النجارين وصانعى العربات بصنع مختلف أنواع الأثاث. ثم حصل من الصائغ على الحلى وعلى مجموعة وافرة من التعاويذ والتمائم. ويبدو أنه لم يعد ينقصه شيء من الضروريات التى يحتاج إليها فى العالم الآخر، ومع ذلك فلم يكن راضى النفس،

إذ كان يعتقد أنه لم يثل كل ما يصنّبو إليه، ويجب على ذريته أن يعنوا بأمره بأمانة وتقوى ولا يكفى أن يؤدوا واجباتهم الأخيرة نحوه بنقله فى احتفال لائق إلى مقر إقامته الجديدة فحسب بل يجب عليهم أن يعنوا بروحه مستقبلا من جيل إلى جيل.

قال أحد نبلاء المصريين : «لقد عهدت بوظائفى لابنى خلال حياتى - حررت له وصية بالإضافة إلى الوصية التى حررها لى والدى. وأقيم بيتى فوق أساساته وحلقى ظل فى مكانه وبيتى ثابت الأركان وكل ما أملك باق فى مكانه فأبنى. هو الذى سيجعل قلبى يحيا على هذه اللوحة التذكارية. سيعمل من أجلى.. ويكون وريثا وابنا صالحا،

وكانت العقيدة السائدة أن الابن يحى اسم الأب والأجداد، وكان ذلك يذكر دائما فى النصوص الجنائزية. فكان حابى جفاى حاكم أسيوط قد عين نجله كاهنا لروحه «ويوازى هذا التعبير، ما تعبر عنه بعبارة «منفذ الوصية».

فالأموال التى قد يتسلمها الابن بهذه الصفة هى أموال ممتازة يجب أن تقسم بين الأولاد الآخرين بل والابن نفسه لا ينبغى له أن يوزعها على أولاده، فعليه أن يسلمها كاملة لواحد من أولاده بعينه ليتولى الإشراف على مقبرة الجد وملاحظة المراسيم الدينية التى تؤدى لإحياء ذكراه كما يجب أن يشترك هو شخصيا فى أداء هذه المراسيم.

كانت الحفلات تقام بتويع خاص، بمناسبة عيد رأس السنة وعيد أواجا الذى كان يحتفى به ثمانية عشر يوما بعد عيد رأس السنة فى المقبرة وفى معبد أرب وأوات سيد إقليم أسيوط وفى معبد أنوب سيد الجبانة أيضا وكان كهنة أوب وأوات يذهبون إلى معبد أنوب قبل رأس السنة بخمسة أيام، ويضع كل منهم رغيفا للتمثال الموجود بالمعبد- وفى اليوم السابق لعيد رأس السنة يعطى أحد موظفى معبد أوب وأوات إلى كاهن القرين شمعة سبق أن استعملت فى

المعبد ويقوم كبير كهنة معبد أنوب بعمل تماثيل فيسلم شمعة سبق أن ساعدت في إنارة معبد أنوب لشخص يسمى رئيس موظفي الجبانة الذي يذهب بها إلى المقبرة بمصاحبة حراس الجبل حيث يقابلون هناك كاهن القرين، ويعطونه هذه الشمعة.

وفي يوم رأس السنة يقدم كل من كهنة أوب واوات رغيفاً من الخبز لتمثال حابى جفائى عندما تنته إنارة المعبد. ثم يصطفون خلف كاهن القرين ويحتفلون بذكراه. ويقوم كذلك من جانبهم كل من رئيس الجبانة والحراس بإعطاء رغيف وبيرة وهم يحتفلون باحتفال مماثل.

وفي مساء يوم رأس السنة يقوم موظفو معبد أوب وارات الذين سبق أن أعطوا شمع عشية أمس بتقديم شمعة ثانية. ويقوم كبير كهنة أنوب بدوره يمثل هذا العمل وتستخدم الشموع التى قد بوركنت لأنها سبق أن استخدمت فى المعابد لانارة تماثيل المتوفى، كما كان الأمر فى الليلة السابقة.

وقد تتكرر إقامة هذه الحفلات بأكملها تقريباً بمناسبة عيد أواجا وفى معبد أوب واوات يعطى كل الكهنة رغيفاً أبيض للتمثال. ثم يكونون موكبا خلف كاهن القرين لتمجيد حابى جفائى.

ثم تضاء شمعة ثالثة طول الليل أمام التمثال.. ثم يتجه موكب كهنة نحو أنوب الدرج التذكارى الضخم الذى يؤدى إلى مقبرته وهم يرتلون أناشيد لتمجيده. ويضع كل منهم رغيفاً أمام التمثال الموجود فى هذا المكان، وتضاء له الشموع مرة أخرى.

أما الكاهن الذى يؤدى مراسيم الخدمة الدينية، فعندما ينتهى منها يقدم خبزاً وجعة لنفس هذا التمثال. ويقوم شخص آخر وهو رئيس الجبل فيضع أرغفة وجرار الجعة بين أيدي كاهن القرين لتخصص للتمثال.

ويزعم حابى جفاى بأنه لم يترك فى عالم النسيان فى أعياد أوائل الفصول التى وإن كانت أقل روعة من عيد رأس السنة إلا أنها لها شأنها وأهميتها.. وفى هذه المناسبات كان رئيس الجبانة يجتمع بحراس الجبل بجوار حديقته الجنائزية ثم يأخذون التمثال الموجود بها ويذهبون به إلى معبد أنوب.

واليك الآن قراره الأخير. فمئذ أن كان حابى جفاى رئيساً لكهنة أوب وارات كان يتسلم كل يوم من أيام الأعياد، ونعلم أنها كانت عديدة، كمية من اللحوم والجعة. فهو يأمر الآن بأن تجلب بعد وفاته هذه اللحوم والجعة إلى تمثاله، وذلك تحت إشراف كاهن القرين.

ولم تكن هذه الخدمات تؤدى بالمجان فكان حابى جفاى يؤدى أجر هذه الخدمات بأن يتناول عن المزايا المالية التى كان يتمتع بها إما لأنه محافظ الأقاليم وأما بصفة رئيس كهنة أوب وارات.

كأنه قد شغل أذن فى أنانية شديدة مستقبل هذه الوظائف وقلل من دخله إذ يجب على وارثه أن يدفع سنوياً قيمة إيراد سبعة وعشرين يوماً من دخل المعبد. ودخل يوم فى المعبد يتمثل فى قيمة جزء من ٣٦٥ جزء من الإيراء السنوى للمعبد.

ومعبد أروب- واوات لم يكن، دون شك، إلا محراباً إقليمياً، وعلى ذلك فقد كان إيراده كبيراً وكان على الورثة أن يتنازلوا لصالح خدم المعبد بما يوازى تقريباً قيمة ١٢/١ من إيرادات أوب واوات، وبذلك يضطرون إلى خفض ما ينفقون على أنفسهم وخاصة أن رأس المال ذاته يكون قد خفض بسبب هبة مساحة كبيرة من الأراضى.

وعلى هذا الأساس تكاد تكون تكاليف صيانة المقبرة نفسها أكثر من تكاليف تشييدها. وكانت مصر كلها تنوء تحت أثقال وضعتها هى نفسها فوق

أكتافها . وكان حابى جفاى ثابتا فى رأيه، لا يتزعزع، وقد أبدى ملاحظة تتضمن أن الاتفاقات التى أبرمت بين أمير مثله وبين الكهنة المعاصرين له ليس من حق الأفراد اللاحقين بأن يجرؤا فيها أى تعديل.

وفى الواقع كانت الأبنية الجنائزية مهما كانت قوية البنيان ومهما كانت حصانة المؤسسات يزول أثرها بعد جيل أو جيلين مهما أحاطها مؤسسوها من ضمانات. أو بعبارة أدق كانت إرادات هذه المؤسسات تؤول لصالح الموتى الحديثين.

وقد رأينا ملوكا وبعض الخاصة يؤمنون أنهم يؤنون عملا صالحا عندما يقومون بترميم الأبنية الجنائزية ويزودون أطعمة موائد القرابين، ولكن الكثير من هذه المنشآت قد انهارت نهائيا خلال الحرب ضد الكفار. وقد أصبحت مصر فى أعقاب تلك الحرب وخلال القوضى التى تليتها فى حالة انهيار أو على الأقل فى حالة من الفقر فأصبحت عاجزة تماما عن الإهتمام بأمر الموتى القدماء.

٥- التحنيط :

لم يعد هناك شىء فى هذه الأرض يحبب المصرى البقاء، بعد أن أخطره أوزيريس - وقد كان لدى المصرى الوقت الكافى لإتمام بناء بيته الأبدى، واتخاذ الترتيبات التى أوجت بها إليه عقيدته الدينية واحترامه للتقاليد المتبعة.

وفى اليوم الذى يعبر فيه إلى الشاطئ الآخر وهو التعبير الذى كان يستعمله المصريون، لأنهم كانوا لا يحبون استعمال كلمة الموت.

كان أقاربه يظلون فى حالة حداد مدة لا تقل عن سبعين يوما. فكانوا يرفضون كل عمل يتطلب مجهودا، ويلزمون البيوت، ساكنين واجمين، وإذا اضطروا إلى أن يخرجوا فقد كانوا يلطخون وجوههم بالطمى كما فعل أنوبيو عندما اعتبر أنه فقد أخاه الصغير.

وكانوا يلطمون باستمرار قمة رؤوسهم بأيديهم وإنما كانت ثمة مهمة أخرى عاجلة تتطلب إهتمامهم وهى تسليم الجثة إلى المحنطين واختيار طريقة التحنيط.

وكان التحنيط على ثلاثة أنواع كما ذكر هيرودوت وديودور. فالتحنيط من الدرجة الأولى كان يتطلب مزيدا من العناية ووقتا طويلا.. كان ينزع المخ من الجمجمة كما كانت تنزع كافة الأعضاء الداخلية عدا القلب.

وكانت تعالج على حدة بمواد خاصة وتوزع إلى أربع ربطات توضع كل منها فى أوانى كانوب الأربعة وكان يستعاض بكمية من مواد التحنيط عن هذه الأعضاء التى انتزعت من الجسم، بعد تنظيف الجسم مرتين. ثم يملح الجسم بالنطرون وهو إحدى المواد التى تتوافر بوادى النطرون والملاحات الموجودة فى غرب الفيوم.

كما كان يوجد فى منطقة الكاب نخب. وكان المصريون يستخدمونه فى مختلف الأعمال وخاصة فى تنظيف بيوتهم. وفى نهاية مدة السبعين يوما، كانت تغسل الجثة ثم تلف بأربطة مقصومة من نسيج الكتان ومشبعة بالصمغ.

وكان هذا العمل يتطلب لإتمامه إلى مواد مختلفة لا يقل عددها عن خمسة عشر مادة منها : شمع النحل لتغطية الأذان والعيون وفتحة الأنف والفم والقطع الذى أجراه الجراح لفتح البطن، وخيار شنبر والدراسينى وزيت خشب الأرز وهو فى الحقيقة الزيت الناتج عن شجرة العرعر، والصمغ والحنة وثمار العرعر والبصل ونبذ النخيل (عرقى البلح). وعدة أنواع من المواد الراتنجية ونشارة الخشب والزفت والقطران.

ويدهى أن النطرون كان هو المادة الأساسية. وكانت تجلب بعض هذه المواد من الخارج وبصفة خاصة الزيت والقطران إذ كانا يستخرجان من شجر

المصنوبر في لبنان. لذلك عندما كانت تتعطل السياحة بحراً إلى جبيل، ينتاب المحنطين وعملاتهم الأثرياء الكآبة والحزن لاضطرابهم إلى اللجوء إلى مواد أخرى للاستعاضة بها عما ينقصهم.

وعندما ينتهى هذا العمل، يصبح الجسد ميكلا عظميا مكسوا بجلد أصفر اللون، ولكن الوجه يظل محتفظا بشكله الأصلي، ويمكن التعرف عليه بالرغم من الخدود الفائرة والشفافة الدقيقة فيعد مرور عدة قرون، يمكننا أن نتصور عندما نرى مومياء سیتی الأول كيف كانت ملامح هذا الملك العظيم وتعبير وجهه مما لا يتاح لكثير من الأجسام المحنطة.

ولقد حان الوقت لكساء المومياء وتزيينها بالحلى. وكانت تعلق العقود والقلائد والتماثم وتوضع الأساور والكفوف والخواتم والصنادل ومكان الجرح الذى قام به الجراح الذى استخرج منه الأعضاء الداخلية كانت توضع فوقه صفحة سميكة من الذهب على شكل ورقة قد نقشت عليها عين أوجا.

وأحيانا كانت تلك العين توضع فوق الصفحة الذهبية لأن خاصيتها شفاء الجروح، كما توضع أربعة آلهة لحراسة الأواني الكانوبية ثم توضع أيضا نسخة من كتاب الموتى بين ساقى الجسد، لأنه المرشد الذى لا غنى عنه فى الآخرة.

وبعد ذلك يلف الجسد بأكمله والأعضاء بلفائف من الكتان. ثم يوضع القناع على الوجه وكان ذلك القناع مصنوعا من القماش ومن خليط الرمر المسحوق والجير لعامة الناس.

أما قناع الملوك وبعض الشخصيات الكبيرة فكان يصنع من الذهب وكان يربط بخيوط إلى ثياب من خرز.

ثم تلف الجثة أخيرا بأكملها بكفن يثبت بوساطة شرائط متوازية. وبدلا من هذا الكفن كانت مومياء شيشنق التى وجدت فى تانيس فى القاعة الداخلية

لمقبرة بسوسن ذات غطاء من الورق المقوى -رسمت عليه بطريقة ارتجالية استخدمت فيها وريقات ذهبية ولوحات دقيقة جدا من القيشاني الأزرق أشكال الزخارف المنقوشة أو التابوت الفضى. وكانت تمثلها إلى حد ما.

ولو أتبع خلال إجراء هذه الأعمال السالفة، للتجارين وصانعي العربات والسلاح وغيرهم من الصانع المتخصصين الذين اشتركوا فى إنجاز المهمة الخاصة بالآثاث الجنائزى بالفراغ من عملهم فى همة ونشاط كان من الممكن الشروع فى وضع الجثة فى التابوت وإجراء مراسيم الدفن بعد وفاة الميت بشهرين ونصف الشهر.

٦- الدفن وتكوين موكب الجنازة :

كانت طريقة الدفن لدى المصريين مثيرة ومفجعة فى آن واحد.

فكان أهل الميت لا يخشون أن يتظاهروا أمام الجميع بالبكاء والإفراط فى أداء الحركات التى تعبر عن حزنهم العميق طيلة سير الموكب. وقد كان أهل الميت يخشون ألا يعبروا عن حزنهم تعبيرا كافيا فكانوا يستأجرون الندابين والنائحات، الذين لا يكون إطلاقا ولا يكفون عن الصراخ والعويل وكانت النساء تلطم رؤوسهن بأيديهن، بينما كانت وجوههن ملطخة بالطين وصدورهن عارية وثيابهن ممزقة.

أما الأفراد وأكثرهم رزاة أولئك الذين اشتركوا فى هذا الموكب فلا يؤدون حركات بمغالة كهذه ولكنهم كانوا يذكرون أثناء سيرهم فضائل الميت. قائلين على سبيل المثال : «ما أجمل ما يأتى».

لقد كان يملا قلب خنسو إلى حد أنه تمكن من أن يصل إلى الغرب برفقة أجيال وأجيال من أتباعه وخدمه».

أما ما يلى هذا القطاع من الموكب فكان بمثابة موكب نقل أثاث تماما. فكانت فرقة أولى من الخدم تحمل الفطائر وياقات الزهور وجرارا من الفخار وأوان من الحجر وصناديق معلقة على حافتي نير.

وهى تحتوى على التماثيل الصغيرة «الشوابتي» وملحقاتها. وفرقة أخرى أكثر عددا من الأولى كانت تحمل الأثاث العادى وهو عبارة عن مقاعد وأسرة وخزائن وأصوفة دون أن نهمل العربية.

أما الأمتعة الخاصة والصناديق التى تحوى الأوانى الكانوبية، والعصى، والصولجانات والتماثيل والشعاسى، فكانت تكلف فرقة ثالثة بحملها.

وأما الجواهر والقلائد والقصور والنسور ذات الأجنحة المبسوطة والطيور ذات الرأس الأدمى وأشياء أخرى قيمة فقد كانت تعرض على صوان وتحمل جهارا. كما لو كانوا لا يخشون بطش هؤلاء الدهماء العديدين الذين كانوا يشاهدون مرور الموكب.

وكان التابوت يوضع داخل نعش مزين تجره بقرتان وبعض الرجال ويتكون هذا النعش من ألواح من الخشب ذات إطارات غير مثبتة أو من هيكل خشبى تتدلى منه ستائر من قماش مطرز أو من الجلد، وكان يوضع فى قارب تحيط به تماثيل أيزيس ونفتيس أما القارب نفسه فكان يوضع بدوره فوق زحافة.

٧- عبور النيل :

كان الموكب يسير ببطء حتى يصل إلى شاطئ النيل. حيث كان فى انتظاره أسطول صغير من القوارب وأما القارب الرئيسى فكانت مقدمته ومؤخرته مقوستين فى رشاقة إلى الداخل، وتنتهيان فى شكل مجموعات من نبات البردى. وبه غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقمشة مطرزة وسيور من الجلد.

وفى هذه الغرفة كان يوضع النعش، ومعه تماثيل أيزيس ونفتيس، ويقوم كاهن بحرق البخور وهو يغطى كتفيه بجلد فهد، بينما تواصل النائحات اللطم على رؤوسهن. ويقتصر عدد نوتية هذا القارب على بحار واحد، يتحسس عمق الماء بمدى طويل، إذ أن القارب الذى يحمل التابوت كان يجره مركب أخرى ذات عدد كبير من النوتية بقيادة قبطان يقف فى مقدمة المركب يعاونه نوتى يتحكم فى الدفة فى مؤخرة المركب.

وهذه المركب القاطرة تحتوى على حجرة واسعة تجتمع النائحات فوق سطحها. متجهات نحو النعش وقد كشفن عن صدورهن ويواصلن الصراخ ويأتين بحركات تنم عن الحزن الشديد.

وماك بعض ما يقلنه فى نديهن، لتذهب سريعا نحو الغرب.. إلى أرض الحقيقة. إن نساء القارب يبكين كثيرا وكثيرا جدا.. مع السلامة.. مع السلامة أيها الممدوح بأجمل الصفات. اذهب بالسلامة نحو الغرب. اذهب بالسلامة أيها الممدوح. وإذا شاء الإله فتراكم أنتم الذين تسيرون نحو هذه الأرض التى يتساوى فيها الناس.. متى حان الموعد الذى يحل فيه يوم الأبدية.

ولكن ما شأن أهل جبيل كينيت هنا وهى مركب معدة للسفر فى أعالي البحار، بينما المركب الخاصة بالنعش لم تصنع إلا لتعبر النيل فقط ؟ على أنه يوجد بينهما تشابه كبير- إذ عندما تمكنت أيزيس من أن تسترد الشجرة المقدسة التى كانت تحوى جسد زوجها أوزيريس حملتها فوق مركب كانت متأهبة للإقلاع متجهة نحو مصر وهناك احتضنتها وأخذت ترورها بدموعها وهكذا تفعل سيدات الأسر تعبيرا عن حزنهن فوق القارب أثناء عبور النيل.

وكانت تستعمل أربع سفن أخرى لنقل أولئك الذين كانوا يرغبون فى مصاحبة المتوفى حتى مثواه الأخير، وتوضع فيها أيضا كافة الأثاث الجنائزى.

أما من لم يكن يرغب فى الذهاب بعيدا فكانوا ييكون على الشاطئ ويوجهون إلى صديقهم، تمنياتهم الأخيرة : «لعلك تبلغ بسلام غرب طيبة، أو كانوا يقولون أحيانا : «إلى الغرب.. إلى الغرب، أرض الأبرار، إن المكان الذى كنت تحبه يتفجع أسى وحسرة عليك!».

وقد أتت اللحظة التى ترفع فيها المرأة الثكلى صوتها الناحب :

«يا أخى .. يا زوجى .. يا حبيبى .. ابق .. استقر فى مكانك ولا تبتعد عن المكان الذى تسكنه. واحسرتاه إنك تذهب لتعبر النيل، أيها النوتية لا تتعجلوا.. اتركوه.. إنكم ستعودون إلى بيوتكم بينما هو ذاهب إلى أقطار الأبدية.

٨- الصعود إلى المقبرة :

إن الاستعدادات على الشاطئ الآخر كلها معدة لمقابلة الموكب فالناس قد تجمعوا وأقيمت حوانيت صغيرة تحوى مجموعة وافرة من الأدوات الخاصة بالمراسيم الجنائزية لأولئك الذين لم يكونوا قد أتوا معهم بما يكفى منها. وقد أمسك أحد الرجال بمقدمة المركب الأولى وسرعان ما ينزلون الركاب والنعش والأثاث جميعه إلى الشاطئ، ولا يلبث أن ينتظم الموكب مرة أخرى بنفس الترتيب السابق تقريبا ولكن بعدد أقل من المعزين حين غادروا مسكن المتوفى.

فيجر زوج من البقر الزحافة التى تحمل مركبا من طراز عتيق، وأخذت كل من ايزيس ونفتيس مكانهما، وكان السائقون يحمل كل منهم سوطا، ويسير بجوارهم الرجل الذى يحمل لفافة البردى أما نساء الأسرة والأطفال والندابات فيسرن أينما وجدن مكانا فى الموكب. وأحيانا تحرك إحدى النساء الصاجات.

أما زملاء الفقيد فيسيرون فى تآثر عميق بانتظام ووقار شديد، والعصى فى أيديهم، يتبعهم الحمالون وهم يواصلون الحديث عن صديقهم الفقيد وميوله

ويستعيدون ذكرياتهم معه ويبدون ملاحظاتهم عن الأجال وضربات القدر وعن عدم الإطمئنان إلى نوام الحياة وقصر مدتها.

وعندما يمر الموكب أمام منازل بنيت بأعواد، ترى جماعة من الناس يقفون على مقربة منها وهم يلوحون بأيديهم بمواقد. مشتعلة وبعد أن يجناز الموكب منطقة الأراضي الزراعية يسير قليلا حتى يصل إلى سفح الجبل الليبي.

إذ تبدأ الأرض ترتفع ويبدأ رويدا ويبدو الطريق شاقا وعرا فتحل البقرتان ويجر نفر من الرجال الزحافة وعليها النعش وعند الضرورة يرفعون النعش على أكتافهم، يتقدمهم الكاهن وهو لا يكف عن رش المياه المقدسة من أبريقه بينما يبقى ذراعه ممدواً ممسكا المبخرة المشتعلة الموجهة نحو النعش.

وفي هذه اللحظة فإن حاتحور تخرج من الجبل على هيئة بقرة مخترقة طريقها بين آجام أوراق البردي الذي نما بمعجزة فوق الصخور الجرداء لتستقبل القادمين الجدد.

٩- وداعا أيتها المومياء :

وفي مشقة كبيرة ، يصل الموكب إلى القبر وقد أقيمت هناك أيضا حوانيت صغيرة يعد فيها بعض الناس مواقف ذات مقابض ويملأون أزياراً كبيرة بالماء لتبريدها ومعبودة الغرب حاضرة بجوار اللوحة التذكارية، وهي وإن كانت مخفية عن الأنظار إلا أنها ترى على هيئة صقر يقف فوق مجثم ويرفع التابوت من النعش ثم يوضع ملاصقا للوحة التذكارية. وتجلس امرأة القرفصاء بجواره وهي تحتضنه بشدة.

ويضع أحد الرجال فوق رأس المومياء قمعا معطرا يشبه ذلك الذي كان يوضع فوق رؤوس المدعوين في حفلات الاستقبال والناحيات والأطفال وأفراد الأسرة يلطمون رؤوسهم في عنف شديد يفوق ما كانوا يفعلونه عند بدء تشييع

الجنائزة. أما الكهنة فكان عليهم أن يؤدوا مهمة خطيرة كان من واجبهم أن يعدوا مائدة بما عليها من مواد غذائية من خبز وأباريق ملئت بالجة.

وكان عليهم أيضا أن يضعوا أدوات غريبة مثل قانوم وسكين مقوس على هيئة ريشة نعام ونموذج لفخذ عجل ولوحة منتهية بطرفين مستديرين. وهذه الأدوات سوف يستخدمها الكاهن لإبطال مفعول التحنيط حتى يستطيع المتوفى أن يسترد استعمال أطرافه وجميع أعضائه : إنه سيبصر من جديد، وسيفتح فمه ليتكلم ويأكل . وسوف يمكنه من تحريك ذراعيه وساقيه.

وقد حان وقت الفراق. وتتضاعف إمارات الحزن. فنقول الزوجة: «أنى زوجتك يا مريت رع .. لا تتركنى أيها العظيم، هل فى نيتك أن أبتعد عنك ؟ إذا انصرفت عنك فستبقى وحيدا. هل سيرافقك أحد ويتبعك؟ لقد كنت تحب المزاح معى والآن أصبحت تسكت ولا تتكلم ؟! » .

وعلى أثر هذا يأتى صدى أصوات النساء قائلات يا للخراب ... وبالداهية !... لا تكفوا ... لا تكفوا ... لا تكفوا عن النواح. لقد رحل الراعى الطيب إلى الأبدية. وقد ابتعدت عنك حشود الناس فانت الآن فى البلد الذى يحب العزلة. أنت الذى كنت تحب السير على قدميك تقيدك الآن اللغائف والأكفان. أنت الذى تمتلك أفضل وأثمن الثياب، أصبحت تنام الآن فى لغائف الأمس!.

ولا يبقى بعد ذلك إلا إنزال التابوت والأثاث الجنائزى كله وترتيبه داخل القبر. لقد أصبح النعش فارغا. فيأخذه الكهنة، الذين كانوا قد استأجروه ليشيعوا به هذه الجنائزة، ويعودون به إلى المدينة حيث كان فى انتظاره عملاء آخرون.

يوضع التابوت المصنوع على هيئة مومياء فى تابوت آخر من الحجر على هيئة حوض مستطيل الشكل أعد من قبل ونحت ونقشت عليه النصوص ووضع

فى مكانه منذ مدة طويلة. ثم توضع حوله عدة أشياء مثل العصى والأسلحة والتماثى فى بعض الأحيان، ويفطى بعد ذلك بغطائه الحجرى الثقيل وتوضع الأوانى الكانوبية بجانب التابوت، داخل صندوق خاص وكذا الخزائن والصناديق وبقية الأثاث بأكمله.

وحذار أن ينسى ماسيكون من أهم الأشياء فائدة للمتوفى وهى المواد الغذائية التى تعبر عنها بعبارة «الأوزيريات النابتة»، وهى عبارة عن إطارات من الخشب على شكل أوزيريس «محنطا» ويدخلها كيس من القماش الخشن. كان يملأ هذا الكيس بخليط من الشعير والرمل، يسقى بانتظام لمدة عدة أيام.

فكان ينبت الشعر وينمو كثيفا قويا وعندما يصل طوله حوالى اثنى عشر أو خمسة عشر سنتيمترا كان يجفف ثم تلف الأعواد بما فيها فى قطعة من القماش.

وكانوا يأملون بهذا العمل حث المتوفى على العودة إلى الحياة إذ أن أوزيريس قد قام بهذه الطريقة وقت بعثه من بين الأموات.

وفى العصور السابقة كانوا يحصلون على نفس هذه النتيجة بوضع جرار مكونة من قطعتين داخل المقبرة فالقطعة الأولى الداخلىة تحتوى على كمية من الماء والقطعة الأخرى الخارجىة كانت ذات ثقب توضع بها بصلة من نبات اللوتس فتنبت الجذور من النبات وتتخلل الثقوب وتصل إلى الماء وتنبت منه سيقان من عنق الجرة الوحيد أو الثلاث فتحات ويزدهر، وكانت هذه العادة شائعة الانتشار فى عهد الدولة الوسطى، ولكنها تركت، منذ أن اتبعت طريقة «الأوزيريات النابتة».

فاللوتس هو نبات رع وكان هذا انتصار جديد لعبادة أوزيريس على العبادة القديمة. وهى عبادة الشمس.

١٠- أوجه الجنائزية :

لقد تم إعداد القبر تماما ولم يبق على الكاهن وأعوانه إلا أن يرحلوا . وكان البناء يسد الباب بجدار ، أما الأقارب والأصدقاء الذين رافقوا المتوفى حتى مقره الأبدى فإنهم لن يفترقوا ويعود كل منهم إلى منزله على الفور بل يبقوا ، إذ أن الانفعالات الشديدة قد جعلتهم يشتهون الطعام .

فالحمالون الذين كلفوا بنقل أشياء عديدة لاستعمال المتوفى ، كانوا قد حرصوا على أن يتزودوا ببعض المؤن للأحياء . وعلى ذلك كانوا يجتمعون إما داخل المقبرة أو في الفناء الذى يؤدى إليها .

إما فى أحد الأكشاك المبنية بالأعواد على بعد قليل من المقبرة وكان لاعب القيثارة يدير وجهه نحو المكان الذى ترقد فيه المومياء ويبدأ بتواشيح يصحبها بأغان تذكر بآته بفضل ما قاموا بعمله لأجل المتوفى فإنه لابد من أن يكون فى حالة طيبة جدا :

«أنت تتأشد رع ، وخير هو الذى يسمع ، وتوم هو الذى يجيبك ، وسيد الكون الأعلى يحقق ماتشتيهـ» ورياح الغرب تهب مباشرة نحوك حتى تلمس أنفك ، ورياح الجنوب تتحول من أجلك إلى رياح شمالية إنهم يوجهون قمك نحو ضرع البقرة حيسات .

ستصبح طاهرا لتشاهد الشمس . وتغتسل فى الحوض المقدس . وكل أعضائك فى حالة جيدة وتظهر براعتك أمام رع وتكون دائم الخلود أمام أوزيريس وتتسلم القرابين فى ظروف مواتية . وتأكل كما كنت تأكل على الأرض ويكون قلبك مطمئنا فى الجبابة .

وتصل إلى الأبدية فى سلام . ويقول لك آلهة نوات تعالى إلى روحك -كا- فى إطمئنان كبير» وكل البشر الموجودين فى العالم الآخر ، فإنهم رهن تصرفك .

وأنت مدعو لتبليغ الشكاوى للكائن الأكبر. إنك تسن القانون يا أوزيريس جانفر المبرور.

وإكراما للأب المقدس نفر حتب يقوم عازف آخر فيعزف على القيثارة ألحانا أشد حزناً وحسرة «لن ينسى أن الميت مكانة ممتازة حقاً. فكم من مقابر إنهارت واندثرت قرابينها، وتلوث خبزها بالتراب، ولكن «جدران مقبرتك أنت محكمة البنيان فقد غرست الأشجار حول مستنقعك. وروحك الباطنة تبقى في ظلها ترتوي من مياهها» وقد تراعى له أن الفرصة سانحة تماماً ليتفلسف قليلاً : «لقد تستسلم الأجساد وتذهب إليها منذ عهد الآلهة ويحل مكانها الجيل الجديد. وطالما أن رع يشرق كل صباح ويغرب توم في الغرب، فإن الرجال يتكاثرون والنساء يلدن وكل الأنوف تستنشق الهواء ولكن كل من يولد يأتى يوماً إلى مكانه».

ولذلك يجب التمتع بالحياة، ومن العجب أن العازف يوجه هذه النصيحة إلى من كان راقداً في تابوته، بينما يتصور الحاضرون أنهم هم المقصودون بها وهم يلتهمون في شهية الطعام والشراب ويعوبون إلى مدينتهم وهم ينعمون بانتعاش كبير، بل يكونون أكثر انشراحاً عما كانوا عليه قبل ذهابهم إلى المقبرة. على هذا النحو كان يحتفل بتشييع جنازة مصرى ثرى، ولا داعى للقول بأنه لم يكن يعمل مثل هذا الاحتفال للطبقات الصغيرة. فالقائم بعملية التحنيط لم يكن يعبأ بفتح البطن واستخراج الأحشاء منه بل كان يكتفى بحقنه في مؤخرته بسائل دهني مستخرج من ثمرة العرعر، وإشباع الجسد بملح النطرون.

أما من كانوا أشد فقراً فكان يستعاض بزيت العرعر بمطهر آخر أرخص منه ثمناً. وبعد إعداد المومياء بمثل هذه الطريقة، كانت توضع في تابوت وتحمل إلى مقبرة قديمة مهجورة، وأصبحت تستعمل حالياً كمقبرة عامة. وكانت ترص فيها التوابيت فوق بعضها إلى أن تصل إلى السقف.

وعلى أية حال فلم تكن المومياة تجرد تماماً من كل ما هو لازم لها فى العالم الآخر، إذ كان يوضع داخل التابوت بعض أدوات وصنادل من البردى المجدول وخواتم من البرونز أو من الخزف وأساور وتماثم وجعارين وتميمة أوجا (تميمة العين السليمة) وتماثيل صغيرة للمعبودات من الخزف المطفى أيضاً.

وكان ثمة أناس أشد فقرا فلم يكن لهؤلاء إلا أن يوضعوا فى إحدى المقابر العامة وكان يوجد فى طيبة جبانة خاصة بالفقراء فى وسط جبانة الأثرياء فى العساسيف، ويلقى فيها بالموميات وهى ملفوفة فى قماش خشن من الكتان، ثم تغطى بقليل من الرمال، وسرعان ما تلقى فوقها مومياة أخرى.

وما أسعد من كان من بين هؤلاء الفقراء يذكر اسمه أو يتقش منظره فى مقربة وزير أو أحد أبناء حكام بلاد النوبة لأنه كان يواصل القيام بخدمة سيده فى العالم الآخر كما كان يفعل فى حياته فى الدنيا.

ولما كان كل عمل يستحق أجراً فسوف يعيش من ثمرة جهده وسوف ينتفع إلى حد ما من المزايا والخيرات التى وعد بها المحظوظون الأغنياء، لأنهم كانوا عادلين.

١١- العلاقة بين الأحياء والأموات :

إن الذين يصفون الامتيت بأنه مكان للراحة والسلام فإنهم كانوا يكونون عنه فكرة ساذجة جدا وجميلة جدا، ولقد كان الميت كثير الشكوك والظنون عديم الثقة. ميالا إلى الانتقام كان يخشى اللصوص الذين يجذبهم الذهب والفضة المودعان فى القبر،

كما كان يخشى اعتداء المارين العديدين، بل كان يخشى أيضا عدم اكترائهم به وهم الذين كانوا يغامرون بالانتقال بين أرجاء جبانة المدينة الواسعة فى الغرب، كما كان يرتاب فى الموظفين المنوط بهم صيانة الجبانة.

ولذلك فمن كان لا يقوم منهم بأداء واجبه في جد وإخلاص كان الميت يهددهم بأشد العقوبات : «سوف يسلمهم إلى نار الملك في يوم غضبه.. وسوف يفرقون في البحار التي ستبتلع أجسادهم. ولن ينالهم شرف التكريم الذي يمنح لأفاضل الناس. ولن يستطيعوا إزدراد القرايين المعدة للموتى. ولن يسكب أحد عليهم المياه المقدسة من النهر الممتلئ بالماء.

ولن يتقلد أولادهم وظائفهم. وتنتهك حرمان نساءهم على مرأى منهم ولن يسمعوا أقوال الملك في يوم سعيه، حيث يكون مبهتجا. أما إذا كانوا يحسنون القيام على المنشأة الجنائزية، فسيقدم لهم كل ما هو خير. وسيمن عليهم آمون رع سونثير بحياة طويلة مستقرة. وسوف يكافئكم الملك الذي يحكم في عصركم على طريقته.

وسوف تمنحون وظائف عديدة فضلا عن وظائفكم وتتسلمونها من ولد إلى ولد ومن وارث إلى وارث، وسوف يدفنون في الجبانة بعد أن تتجاوز أعمارهم مائة وعشر سنوات. وستضاعف لهم القرايين.

ومن جانب آخر فقد كان يوجد أيضا موتى أشرار، فبعضهم كان السبب فيه إلى حد كبير أبناءهم الذين أهملوا شأنهم ولكن الكثيرين منهم كانوا يميلون بطبعهم إلى عمل الشر دون أدنى سبب أو مبرر سوى أنهم كانوا يميلون إلى الشر.

وكان ينبغي للآلهة أن يمنعوه عن الأذى ولكنهم كانوا يصللون المراقبة والحراسة عليهم وكانوا يتركون مقابرهم ويزعجون الأحياء وأغلب الأمراض التي كان يعانيها الأحياء كانت تعزى إلى حزن الأموات الأشرار ذكورا أو إناثا. وكانت الأم تخشى بأسهم على طفلها، وتقول : إذا كنت جئت لتهدئة هذا الطفل فإننى لا أسمع لك بأن تهدئه، وإذا كنت جئت لكى تمضى به فإننى لا أسمع لك بأن تأخذه منى.

وكان المصريون يترددون كثيرا على المساكن الابدية وذلك إما بدافع
الرهبة أو بدافع التقوى. فكان أهل الميت أبواء والأطفال والأرامل يصعدون إلى
القل ويحضرون معهم بعض الأطعمة وقليلًا من الماء ليضعوها فوق مائدة
القرايين بجوار اللوحة التذكارية، أو بين شجر النخيل الذي يظلل فناء المدخل.

ثم يرتلون الصلوات تلبية لرغبة المتوفين فيقولون: «الوف من أرغفة الخبز
وجرار من الجعة وثيران وطيور وشحوم ودهون ويخور وأقمشة وحبال، وكل ما
يجلبه النيل من خيرات وما تنتجه الأرض، وما يعيش منه الإله تقدمه لروح
فلان .. المبرور المرحوم ..

وكان هم شديد، يعتري أحيانا من يبتهل على قبر شخص عزيز عليه، وقد
سبق أن ذكرنا اعتراف الزوج الذي لا لوم عليه، والأرمل الوفي الأمين وإذا كنا
نعرف فضائله ومزاياه العديدة فذلك لأن هذا المسكين قد أفزعته المحن العنيفة
والتجارب.

فمنذ أن فقد زوجته لم يوفق في أى عمل، فأتقدم على تحرير رسالة طويلة
لها، وقد وصلنا نصها، ويعد أن أوضح فيها كل ما كان قد فعله من عمل طيب
خلال حياة الفقيدة ويعد وفاتها، وقد عبر عن آلامه من أن يعامل بمثل هذه
القسوة. «أى شر فعلته حتى أصل إلى مثل هذه الحال التى أعانيها الآن؟»

وماذا جنيت حتى ترفعى يدك على بيتها لم أتسبب لك فى أى ضرر؟ إنى
استشهد بألهة الغرب بما ينطق به فى ويحكم بينك وبينى كتابى هذا.

وصاحب هذه الرسالة الذى عاش فى العصر الأول للرعامة خضع لعادة
قديمة مثبتة لنا بصفة خاصة معروفة بأمثلة أقدم عهدا منها وكان هو الدليل أو
البرهان على أن الناس كانوا يعتقدون دائما بفائدتها ونتائجها الناجمة. وفى عهد
الدولة الوسطى كان الناس يؤثرون أن يكتبوا للميت على الأوانى التى كانت
تحتوى الطعام المعد له.

وذلك ليكونوا أكثر إطمئنانا إلى أن الرسالة سوف لا تمر دون أن يطلع عليها.

ومن أمثلة هذه الرسائل تبليغ أحد الأجداد بأن هناك مكيدة الغرض منها حرمان حفيده من حقه في الميراث، وبهم الميت أن يعترض على هذه المكيدة، وعليه إذن أن يستدعى أعضاء أسرته وأصدقاءه لمساندة من يراد بسلب حقه إذ أن الابن عندما يؤسس منزله، فإنه يؤسس بيت أبائه ويحيى إسمهم. فإذا فقد أمواله فإنه يجلب الشقاء والتعاسة لأسلافه كما يجلبها أيضا لذريته.

ومهما بلغت درجة تقوى المصريين نحو أمواتهم، فإنها لم تكن تكفى لإضاعة جحافل من كانوا يرقدون في الجبانات وما كان يفعله إنسان لوالديه أو لجدوده لا يستلزم منه أن يؤديه لأسلافه، لأنه لا توجد تهديدات ولا لعنات يمكن أن تلزمه بذلك وقد أتى اليوم الذى تنبأ به عازف القيثارة، وقد تنبأ به من قبل أحد حكماء العهد القديم حين تحدث قائلا: «إن أولئك الذين شيّدوا هنا أبنية بحجر الجرانيت وأقاموا قاعة داخل الهرم.. تصبح موائد قرابينهم خالية من كل شيء، مثلها مثل موائد البائسين الذين يموتون على شاطئ النهر دون أن يتركوا ذرية.

وعلى ذلك تكاد أن تصبح الجبانة موضع تجمع الفضوليين الذين كانوا يعمرون بالمقابر ويقرأون دون اكتراث، النقوش التى عليها. وقد شعر بعض هؤلاء بنفس الميل الذى يعتري السياح المعاصرين حين يتركون أثرا لمروهم بالمكان ولكنهم كانوا يضيفون عبارات تبين حسن نياتهم وتقواهم فكثيرا ماكتب مثلا بأن الكاتب فلانا أو الكاتب فلانا قد حضر هنا لزيارة هذه المقبرة. مقبرة أنى فوكر وأنهم قد صلوا كثيرا وكثيرا جدا .

وقد كتب آخرون يقولون بأنه قد أسعدهم أن يتحققوا من أن هذه المقبرة فى حالة جيدة - قالوا: « لقد وجدوها مثل السماء من الداخل» وقد قال أحد

الذين يحملون إسم أمنمحات بغاية التواضع أن الكاتب ذا الأصابع الماهرة، الكاتب الذى لا مثيل له فى مدينة منف بأجمعها قد زار المبنى الجنائزى للملك العجوز زوسر وقد أدهشه بأن يرى عليها عبارات ركيكة مليئة بالأخطاء وأن كاتبها لابد أن تكون امرأة لا عقل لها وليس كاتباً قد ألهمه تحوت موهبة الكتابة.

ويجب علينا أن نبادر لنحدد فى دقة بأنه لم يفقد الكتابات الرائعة التى نقشت أصلاً بمعرفة الفنانين الذين كانوا أيضاً من العلماء، وإنما اعترض فقط على هذا الزائر الجاهل المتسرع الذى سجل بعض كتابات سخيفة بالقلم العادى فى زمنه دون أى فن.

وفى عهد رمسيس الثانى اعتزم كاتب الخزينة حاد ناخى بأن يقوم برحلة بقصد التسلية فى غرب منف بصحبة أخيه بانختى كاتب الوزير : يا آلهة غرب منف أجمعين ويا جميع الآلهة التى تحكم الأرض المقدسة ويا أوزيريس وأيزيس، ويا أيتها الأرواح العظيمة الموجودة فى غرب عنخ نأوى. أمنحونى وقتاً طويلاً طويلاً أحياء لأخدم أرواحكم ليتنى أحصل على حدث عظيم تعقب شيخوخة طيبة حتى أستطيع أن أتمتع بمشاهدة غرب منف ككاتب مكرم جداً ومثلكم بالذات».

«إن بطل إحدى الروايات التى كتبت فى العصر المتأخر- ولكن المفروض أنه عاش فى عهد رمسيس وهو يدعى تنوفر كانتاح كان يبدو أنه لم يخلق على هذه الأرض إلا ليتجول ويتنزه فى جبانة منف، مرددا النصوص التى كتبت على مقابر الفراعنة وعلى اللوحات التذكارية لكتاب بيت الحياة وكذلك الكتابات الأخرى المسجلة فى المنطقة.

إذ كان يهتم بالكتابة اهتماماً بالغاً وكان لتوفر كابتاح منافس كان عالماً مثله ومهتماً أيضاً بالآثار اسمه ساتنا خامواس أوزير مارع (ابن رمسيس

الثانى) وكان قد اكتشف فى منف تحت رأس إحدى المومياءات تعويذة سحرية وهى المدونة على البردية رقم ٢٢٤٨ إحدى مقتنيات متحف اللوفر.

إلا أنه قد اكتشفت أخيرا نقوش على واجهة هرم أوناس الجنوبية فى سقارة تفيد أن رمسيس الثانى كان قد عهد إلى ولى عهده خامواسيت كبير كهنة أون أن يعنى باستعادة إسم أوناس ملك الجنوب والشمال الذى كان قد محى من على هرمه. وذلك لأن ولى عهده ، خامو اسيت كان ميالا جدا لترميم المباني الأثرية للملك الجنوب والشمال التى كانت صلابتها مهددة بالانهيار وهل كان قد خطر ببال هذا الحكيم الذى تقدم على مارييت وعلى خبراء مصلحة الآثار المصرية أنه بعد قرون عديدة مرت فى النسيان سيقوم رواد من بين أبناء البرابرة (وهكذا كانوا يعبرون عن كانوا لا يعرفون مصر)، بدورهم بالكشف عن الجبانات فى الجنوب وفى الشمال، وإنهم سيعيدون إلى الحياة أسماء أسلافه وأجداده ومعاصريه ويكتبون عنهم ما يمكن من مزيد التعرف عليهم.

ونأمل أن يكون أولئك الذين وهبوا من الجلد والصبر على قراءة كتابنا هذا حتى نهايته، قد كونوا فكرة صحيحة عن طريقة حياة هؤلاء القوم، وهى حياة دون شك تذكر كلها بكل فخر وإعجاب، ولم يكن الشعب المصرى كما كان يعتقد ربنا قطيحا من العبيد يقوده فرعون مجردا من كل رحمة وعاطفة. ويتحكم فيه الكهنة النهمون المتعصبون، حقيقة أن عدد المحرومين كان دون شك فى عصر الرعامسة كبيرا جدا إذ كان يغالى فى استعمال العصي.

ولكن مع ذلك يظهر لنا أن فرعون وموظفيه كثيرا ماكانوا يشبهون الرؤساء الأدميين الذين تملأ الرحمة قلوبهم - وكان الدين هو الوازع على المواساة والسلوى.

على أنى أرى فى حياة هذا الشعب الصغير أن أوقات السعادة كانت تفوق كثيرا أوقات التعاسة.

سحر ملوك الفراعنة

تعرف إلى ملوكك القدماء :

إذا كان لحياة الفراعنة القدماء سحر خاص.. يانه بالتأكيد لا يقارن بذلك الذى حظى به ملوكهم-الذين تمتعوا بالقداسة وكان لكل واحد منهم طابعه الخاص الذى ظهر فى فترة حكمه.

عالم آخر غامض ومثير جذب إليه العالم كله.. إنه عالم ملوك الفراعنة الذين نقدم لك الدليل المفصل لحياة كل واحد منهم ومكان دفنه وشكله كما أشارت إليه الصور الجدارية:

ملوك أهرام الجيزة

خوفو (حكم ٢٥٤٨ - ٢٥٦٦ ق.م):

هو صاحب أكبر أهرام الجيزة والوخيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع، لا يعرف الكثير عن حياة هذا الملك الذى ينتمى إلى الأسرة الرابعة سوى أنه حكم فى فترة رخاء وتمتع بالقوة ولم يوجد سوى تمثال واحد صغير يشير إلى شكل هذا الملك بجانب الهرم وجدت مراكب لنقل الملك إلى الحياة الأخرى وأهرام صغيرة للملكات.

خفرع (حكم ٢٥٥٨ - ٢٥٢٢ ق.م):

هو ابن الملك خوفو وتوج بعد مماته شقيقه الأكبر الذى اختار ألا يكون هرمه فى الجيزة، هرم خفرع يقع على أرض عالية مما يعطى الانطباع بأنه أعلى من هرم خوفو. وجدت تماثيل كثيرة لخفرع تشير إلى كونه ملكا ذا بنية قوية وأمامه بنى تمثال أبو الهول الذى يعتقد أنه يحمل رأس خفرع.

منقرع (حكم ٢٥٢٢-٢٥٠٢ ق.م):

هو صاحب الهرم الثالث ورغم أنه أصغر الأهرامات إلا أنه يحتوى على أفكار أكثر ابداعا من الهرمين الآخرين، وجدت تماثيل له بجوار الملكة «نفرتيتى». مات منقرع واستكمل ابنه شيسكياف بناء الهرم.

ملوك وادى الملوك

تحتمس الأول (حكم ١٥٠٤ - ١٤٩٢ ق.م):

اختلف حكم تحتمس الأول عن حكم ملوك الدولة القديمة والذين كانوا يتمتعون بسلطات أكثر قوة، وكان تحتمس الأول الملك الثالث فى الأسرة الـ ١٨ وهى الأسرة التى ضمت بعض أشهر الملوك فى تاريخ الفراعنة كان تحتمس الأول ملكا محاربا، وشارك فى بناء معبد الكرنك الشهير.

حتشبسوت (١٤٧٢-١٤٥٨ ق.م):

هى ابنة تحتمس الأول وحكمت مصر ٢٠ عاما، أرسلت بعثة إلى بلاد «بونت» وهى فى الأغلب الصومال الآن، وسجلت على الجدران ما تمت مشاهدته هناك من نباتات وأماكن وحيوانات ، ومن هناك أتوا بالذهب وجلود الحيوانات وبعض الأخشاب يتميز معبدها بطرازه الفريد. تم تصويرها فى كثير من الأحيان على جدران المعابد فى هيئة رجل وبعد موتها حكم تحتمس الثالث.

تحتمس الثالث (حكم ١٤٧٩-١٤٥٢ ق.م):

حكم عندما كان طفلا رغم أن السطورة الحقيقية كانت فى يد والدته حتشبسوت. بعد وفاتها نظم حملات عسكرية إلى النوبة وغرب آسيا وخاض معارض كثيرة لعل أهمها معركة مجدو فى السنة الـ ٣٢ لحكمه وسجلت

انتصارات على جدران الكرنك وأمر أن يزال ذكر حتشبسوت والدته ويستبدل
باسمه على الخراطيش الملكية.

امنحوتب الثالث (حكم ١٢٩٠ - ١٣٥٢ ق.م):

شهدت فترة حكمه الطويلة قمة الإزدهار على أرض مصر، ولم يتبع نفس
النهج العسكرى لأسلافه، بل تزوج من عدة أميرات من البلدان المجاورة لتحسين
العلاقات ، وإن كانت الملكة الأم هي «تى» التى أنجبت له امنحوتب الرابع الذى
أسمى نفسه فيما بعد باخناتون.

توت عنخ أمون (حكم ١٢٢٦ - ١٢٢٧ ق.م):

لعله أشهر الملوك فى ذاكرة العالم لما وجد فى مقبرته من كنوز عظيمة وما
صعب اكتشافها من أقاويل حول وجود لعنة الفراعنة، أرجع الملك توت السلطة
للكهنة والآلهة وأضاف إلى بناء الكرنك يعتقد أن مقبرته لم تكن مبنية على
الأساس من أجله وحجمها الصغير لا يتناسب مع ملكه.

سيتى الأول (حكم ١٢٩٤ - ١٢٧٩ ق.م):

عرف بالنصوص التى نسبت إليه وحملاته وممياؤه التى ظلت فى حالة
ممتازة وتعتبر دليلا على مهارة المصرى القديم فى التحنيط كان طويلا ووسيعا،
استطاع أن يستعيد قوة الإمبراطورية المصرية بعد أن كادت تندثر بعد
إخناتون، واستكشف مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية، وله إسهامات كبيرة
فى معبد الكرنك وبنى معبدا هاما فى ابيدوس وتعتبر مقبرته واحدة من أجمل
على الإطلاق فى وادى الملوك.

رمسيس الثانى (حكم ١٢٧٩ - ١٢١٣ ق.م):

سجلت جدران المعابد الحملات العسكرية لهذا الملك الذى اتسم بالقوة والسطوة ، كانت زوجته الأساسية هى الملكة نفرتارى ولكنه تزوج غيرها كثيرات وكان أكثر من ١٠٠ من الأبناء، ويعتبر معبد أبو سمبل من أهم معابده، وموميائه تقع فى متحف الآثار بالقاهرة.

رمسيس الثالث (حكم ١١٨٤ - ١١٥٢ ق.م):

يعتبر آخر ملوك الفراعنة العظماء، كان محاربا واقتصر على مجموعات من الناس قدمت عبر البحر لاستيطان البلاد، وشهدت فترة حكمه مؤامرات وخلافات بين العمال وبين نساؤه وانتصر على كل أعدائه قبره من القبور الجميلة والمميزة فى وادى الملوك.

رمسيس الحادى عشر (حكم ١٠٩٩ - ١٠٦٩ ق.م):

ليس مؤكدا إذا كان هذا الملك قد دفن فى وادى الملوك أم لا، فى فترة حكمه استطاع البعض السيطرة على عدة أماكن فى مصر لذا سجله التاريخ على أنه ملك ضعيف أمضى آخر سنوات حكمه فى شمال مصر.

أهم الاكتشافات

حول مصر الفرعونية

حجر رشيد :

تم اكتشافه عام ١٧٩٩ على يد شامبليون أثناء الحملة الفرنسية على مصر وساهم فى فك رموز اللغة الهيروغليفية.

مخبأ المومياوات الملكية :

تم اكتشافه عام ١٨٨١ عندما اعترف أحد سارقي الآثار بمكانه، وهو مخبأ تم العثور فيه على عدة مومياوات للوك فراعنة منهم سيتي الأول ورمسيس الثاني.

مقبرة الملكة نفرتارى :

عثر عالم الآثار أرنستو شيابريللى على هذه المقبرة عام ١٩٠٤ فى وادى الملكات. ونفرتارى هى زوجة رمسيس الثانى والمقبرة بعد ترميمها الآن مفتوحة للسياح.

مقبرة يويا و ثويا :

تم العثور على هذه المقبرة فى ٦ فبراير ١٩٠٥ وهى لوادى زوجة امنحوتب الثالث واحتوت المقبرة على كنوز عظيمة لم يستطع اللصوص الوصول إليها ونهبها من قبل وتعتبر المومياوات من الأحسن حالا من حيث جودة التحنيط.

مقبرة توت عنخ أمون :

اكتشفها هوارد كارتير ولورد كارنارفون فى الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢. وهى من المقابر التى كانت تحتوى على كنوز ثمينة لم يتوصل إليها اللصوص.

أثاث الملكة والددة خوفو :

اكتشفها بعثة أمريكية عام ١٩٢٥ فى هوة تحت الأرض بـ ٢٠مترا قرب الهرم الأكبر واحتوت على أثاث ذهبي محفوظ الآن فى المتحف المصرى.

مقبرة أبناء رمسيس الثانى :

هى أكبر مقبرة فرعونية وهى معروفة فترة طويلة وكانت مخصصة لأبناء رمسيس الثانى الذين فاق عددهم المائة.

مدافن ملوك تانيس :

اكتشفها العالم الفرنسى بيير مونتبيه فى ٢٧ فبراير ١٩٣٩ وتانىس كانت عاصمة الدلتا واحتوت الاكتشافات على أكفان معلقة فضية بديعة.

عائلة العمارة الملكية :

بنى امنحوتب الرابع الذى أصبح فيما بعد إخناتون مدينة إخناتون حيث عبد هو وزوجته نفرتيتى الإله اتون كانت أول حملة استكشافية للمنطقة على يد البريطانى بيترى فى القرن التاسع عشر.

الفلك ودراسة أحوال السماء

فى مصر القديمة

جميع البشر الذين يعيشون فى العصر الحديث يعرفون أن الزمن مقسم إلى سنوات، والسنة مقسمة إلى شهور، والشهر مقسم إلى أيام .. الخ، وجميع هذه التقسيمات تعتبر من المعارف المبدئية السائدة بين البشر فى جميع أنحاء العالم.. ولا شك فى أن هذه التقسيمات التى عرفها الإنسان منذ آلاف السنين، وستظل معروفة ومطبقة إلى الأبد، كانت نتيجة لمحاولة الإنسان تقسيم الزمن النسبى الخاص بكوكب الأرض.

وهناك العديد من الأدلة والشواهد التاريخية والأثرية تدل بصفة قاطعة، على أن المصريين القدماء هم أول شعب من شعوب العالم قام بتقسيم الزمن

إلى سنوات تتكون كل سنة من ٣٦٥ يوما ، ومقسمة إلى ١٢ شهرا يتألف كل شهر منها من ٣٠ يوما، ويتكون كل يوم من ٢٤ ساعة مقسمة إلى ليل يتكون من ١٢ ساعة تبدأ من منتصف الليل حتى منتصف النهار، ومن نهار يتكون أيضا من ١٢ ساعة تبدأ من منتصف النهار حتى منتصف الليل.. وهكذا.

وطبقا لهذه التقسيمات التي ابتدعها قدماء المصريين، نلاحظ أن عدد أيام السنة إذا حسبت على أساس ١٢ شهرا $30 \times$ يوما سيكون الناتج ٣٦٠ يوما.. ولذلك فقد كانوا يضيفون خمسة أيام في نهاية آخر يوم في آخر شهر من شهور السنة. وجعلوا هذه الأيام الخمسة أعيادا شعبية يحتفلون بها قبل بداية كل عام جديد.

ومع ذلك فقد لاحظوا حدوث اختلاف في تحديد بدايات السنين في حالة حساب أيام السنة على أساس ٣٦٥ يوما، وذلك بسبب أن السنة تتكون في حقيقة الأمر من ٣٦٥ وست ساعات .. ولذلك فقد تبنا فكرة «السنة الكبيسة» التي تتكون من ٣٦٦ يوما والتي تحدث في السنة الرابعة من كل أربع سنوات.

ونلاحظ أيضا في هذه التقسيمات التي ابتدعها قدماء المصريين أنهم جعلوا عدد أيام كل شهر ٣٠ يوما لا تزيد ولا تنقص، وقسموا كل شهر إلى ثلاثة أقسام يتكون كل قسم منها من ١٠ أيام ، وهو تقسيم أفضل من تقسيم الشهر إلى أسابيع حسب التقويم السائد حاليا في العصر الحديث، حيث لا يتكون كل شهر من عدد محدد من الأسابيع ، بل يحدث غالبا تداخل الأسبوع الأخير من كل شهر في الشهر التالي.

وبالرغم من أنهم حددوا عدد ساعات كل يوم بأربع وعشرين ساعة، ١٢ ساعة ليلا و١٢ ساعة نهارا، فإنهم عرفوا أيضا اختلاف هذا التحديد في مدى ساعات الليل والنهار خلال فصول السنة .. وقد تم العثور على مدونات أثرية

تحتوى على جداول لتحديد مدة فترة الليل وفترة النهار خلال فصلى الصيف والشتاء.

ولا شك إطلاقا فى أن توصل قدماء المصريين إلى معرفة كل هذه التقسيمات الدقيقة للزمن، كان نتيجة مباشرة لمعرفتهم بعلوم الفلك ودراساتهم لأحوال السماء ومدى تأثيرها على كوكب الأرض.

وقد تم العثور على عدد كبير من المدونات الأثرية التى تعتبر من الوثائق التاريخية فى علم الفلك، ويؤكد ذلك أن بعض كبار الكهنة فى بعض المعابد كان يطلق عليهم لقب «التاظر إلى السماء» وهو لقب يدل على تخصص حامله فى علم الفلك ودراسة أحوال السماء من أبراج ونجوم وكواكب.

وقد توصل هؤلاء الكهنة الفلكيون إلى تحديد مواقع خمسة من الكواكب السيارة التى تدور حول نجم الشمس، وهى على وجه التحديد كواكب عطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل، وأطلقوا على كل كوكب منا إسماء مصرية يختلف طبعا عن أسمائها المعروفة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية الأخرى، وعرفوا أيضا أن القمر يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على سطحه .. كما عرفوا ظاهرتى الكسوف والخسوف وعلاقتهما بمواقع الشمس والقمر.

ويقول بعض علماء المصريات أن المصريين القدماء ربطوا بين فيضان النيل وعلم الفلك، حيث حددوا حدوث بدء موسم الفيضان السنوى لنهر النيل عند ظاهرة اقتران شروق الشمس بظهور نجم «الشعرى اليمانية» على الأفق، وهى ظاهرة كانت تتكرر فى وقت محدد فى كل عام.

كذلك فقد ربطوا بين بناء الأهرام وعلم الفلك.. فقد تبين بالدراسة أن الأهرام الكبرى قد شيدت على خط عرض ٣٠ شمالا، وأن أضلاع قواعد كل هرم تنطبق على الجهات الأصلية الأربع ، الشرق والغرب والجنوب والشمال.

التاريخ المصرى القديم (١)

لم تجر العادة بين الباحثين فى التاريخ المصرى القديم على التوغل فى القدم، بل يبدأ بحثهم ببداية عصر الأسرات. أى الوقت الذى أتم فيه الملك مينا توحيد القطرين، الشمالى والجنوبى، أو الوجهين البحرى والقبلى، من مصر، ليشكل بذلك دولة واحدة قوية متحدة ومستمرة منذ ذلك العهد، أى من حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. وهى الدولة المصرية. والتى قامت من هذا التاريخ السحيق على تلك البقعة المعروفة إلى وقتنا هذا تحت إسم «مصر». ولهذا فإن العلماء كادوا أن يجزموا بأن مصر هى أقدم دولة كائنة فى العالم، والدولة هنا هى الدولة بمفهومها القانونى، وعناصرها الثلاث وهى الأرض والشعب والحكومة.

قد تكون هناك حضارات أخرى أقدم من الحضارة المصرية القديمة، ولكنها لم تصل إلى مستوى الدولة. وقد تكون هناك تجمعات حضارية أو مدنية مساوية أو أقدم من مصر، ولكنها لم ترق إلى شكل الدولة بالمفهوم القانونى لها. بل قد تكون هناك دول وجدت فى أماكن أخرى من العالم، ولكنها زالت، أو تغير شكلها، ضيقاً أو اتساعاً، وهو بالقطع ليس حالة الدولة المصرية التى وجدت منذ «مينا» إلى يومنا هذا، فى شكل حكومة متصلة الحلقات، قد تختلف نظم الحكم فيها أو جنسيات الحاكم، ولكنها بالقطع تشكل سلسلة محكمة لم تنقطع على مدى هذه القرون الخمسين.

حضارات سبقت عصر الأسرات وهى : العصر الحجرى القديم الأعلى، ثم العصر الحجرى القديم الأوسط، ثم العصر الحجرى القديم الأسفل، ثم العصر الحجرى المتوسط، وأخيراً العصر الحجرى الحديث، ثم عصور ما قبل الأسرات.

(١) المجلد فى تاريخ القانون المصرى د/ ناصر الأنصارى، م. الأسرة. بتصرف يسير.

فقد بدأ الاستقرار، وتم ابتكار الزراعة واستئناس الحيوان وتشديد المسكن الأول، وبناء أول قرية، واستخدام النحاس، والكتابة، وظهور الوحدات الإقليمية المحلية، واختفاء نظام العشائر. وظهرت الحاجة إلى التعاون وتبادل المنفعة المشتركة في القرية ثم المدينة، ثم انضم عدد من القرى بعضها إلى بعض فظهرت المقاطعات في الدلتا والصعيد.

ثم قامت حركة اتحاد في الوجه البحري، وتجمعت المقاطعات في دولتين إحداهما في الغرب وكانت عاصمتها «بحدت» بالقرب من دمنهور الحالية، والأخرى في الشرق عاصمتها «بوصير» قرب سمند، ثم انضمت في مملكة واحدة، هي مملكة مصر السفلى، أو الوجه البحري، وعاصمتها «بحدت». كما قامت مملكة في الوجه القبلي عاصمتها «نقادة» قرب الأقصر الحالية.

ثم قامت أول وحدة شملت مصر كلها حوالي عام ٢٢٤٢ ق.م. واتخذت من «أون» أو هليوبوليس القديمة - مكان عين شمس الحالية - عاصمة دينية وربما سياسية أيضا. ولكن هذا الاتحاد لم يدم طويلا فما لبثت البلاد أن انقسمت إلى دولتين مرة أخرى، الأولى تقع في الوجه القبلي عاصمتها السياسية «نخب» وعاصمتها الدينية «نخن» - بالقرب من إسنا الحالية .

وكانت لهذه المملكة معبودة صورت في هيئة «أنثى النسر» واتخذت شعارا يتمثل في زهرة اللوتس، ويضع ملكها على رأسه تاجا أبيض اللون، أما في الوجه البحري فقد قامت مملكة أخرى لها عاصمتان هما «دب» و«بى»، وهي التى سماها الإغريق «بوتو» وكانت تقع بجانب مدينة دسوق الحالية، وكانت معبودتها تصور في هيئة «أفعى» أما شعارها فهو زهرة البردى، ويضع ملكها تاجا أحمر اللون.

ومرت البلاد في عهد هاتين المملكتين بسلسلة من المنازعات والحروب. رفع فيها ملوك الوجه القبلي راية الجهاد، من أجل توحيد البلاد، إلى أن تمكن

من ذلك الملك «نمر»، الذي يعتقد جمهور المؤرخين أنه هو الملك «مينا» مؤسس الأسرة الأولى في تاريخ مصر حوالي عام ٣٢٠٠ ق.م. ومن وقتها اتحد الشعب المصري في ظل حكومة مركزية قوية وثابتة.

وأصبح الملك مينا هو أول حاكم يحمل لقب ملك الوجهين البحري والقبلي، ويعتبر بالتاج المزدوج الأحمر والأبيض واتخذ عاصمة متوسطة في مدينة عرفت باسم «من نفر»، وحرفها العرب إلى «منف» وهي التي أطلق عليها الإغريق اسم «ميفيس» وهي مكان ميت وهيئة الحالية في الجيزة.

تقسيم التاريخ الفرعوني :

وقد قسم المؤرخ المصري القديم مانيتون التاريخ المصري القديم إلى ثلاثين أسرة مائة مصرية واقتفى المؤرخون أثره بعد ذلك في تبني هذا التقسيم، ثم إتجه المؤرخون المحدثون إلى التمييز بين ثلاثة عصور مختلفة في التاريخ المصري القديم هي : عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة، وتضم كل دولة عددا من الأسرات التي ذكرها مانيتون.

ويلاحظ أن أسماء الأسرات تنسب إلى المدينة التي أتى منها الملك مؤسس الأسرة، أو إلى العاصمة، فيقال «ثيني» أو طيني، نسبة إلى مدينة «ثيني» أو طينة التي جاء منها الملك «مينا» ، أو يقال طيبية نسبة إلى «طيبة» أو يقال «منفية» نسبة إلى العاصمة الأولى «منف» . بينما الأسرة التي كانت يأتي حاكمها من خارج البلاد فتنسب إلى جنسية الحاكم. فيقال ليبية أو اثيوبية أو فارسية.

العهد القديم

العصر الثيني أو الطيني

ثيني أو طيني نسبة إلى مدينة طينة بالقرب من جرجا بسوهاج الحالية ..
ولا شك أن أهم ملوك هذا العهد هو مينا موحد القطرين، وبه بدأ عصر
التأسيس والبناء للدولة الموحدة، والذي اشتهر بأنه أصدر القوانين، وشيد المعابد،
وأرسل البعثات العسكرية لمقاومة القبائل الرحل من الصحراء الليبية المناوئة التي
كانت تحاول الاستقرار على وادي النيل.

وانتهى حكم مينا بعد حوالي ستين عاما، وخلفه عدد من الملوك أتموا
أعماله دون أن يكون لأحدهم بصمة خاصة، وقد اهتموا عموما بالتشريع،
والإدارة، وتنظيم العبادة، والشعائر الدينية، وشيدوا المعابد وبنوا القصور، وساروا
على نهج مينا، في مقاومة القبائل الليبية المناوئة. وفي هذا العهد خرجت أولى
بعثات التنقيب عن المعادن في سيناء، وفي هذا العهد أيضا ألفت أول الكتب عن
الطب والتشريع.

ولم تسلم البلاد من بعض الفتن السياسية، وبخاصة في عهد الأسرة
الثانية، مما اضطر بعض ملوك تلك الأسرة إلى استخدام القوة للقضاء عليها.
وكان الملك «خع سخموى» - آخر ملوك تلك الأسرة - هو الذي نجح في إطفاء
نار الحرب بين الشمال والجنوب وإعادة الوحدة للبلاد.

وتعتبر حضارة الأسرتين الأولى والثانية امتدادا للحضارة التي كانت
سائدة في عصر ما قبل الأسرات، وهي أيضا تعد بمثابة حجر الأساس
لحضارة مصر فيما بعد. ودراسة النظم القانونية للبلاد خلال مدة حكم الأسرة
الأولى والأسرة الثانية تكتنفها بعض الصعوبات نظرا لندرة المصادر الموجودة

حتى الآن ومن أهم هذه المصادر مجموعة من الأختام التي عثر عليها الأثريون وتبين أنها تخص مجموعة من رؤساء الإدارات التنفيذية الهامة في تلك الفترة ومن هنا سوف تقتصر دراستنا لهذه الحقبة على بعض نظم القانون العام التي أتاحتها المصادر.

الفرعون وبلاطه

تعد هذه الفترة من التاريخ المصري ذات أهمية خاصة حيث أنها تمثل تأسيس الوحدة بين الشمال والجنوب والتي سبق أن تكلمت ولكن ما ليثت أن انفصلت في عصور سابقة. فكان لابد للفرعون موحد القطرين أن يؤسس دولته الجديدة على نظام قانوني جديد يسمح باستمرار الدولة الوليدة دون انفصال ، ولا شك أن ملك مثل مينا حكم مدة تقرب من ستين عاما علاوة على قوته وحكمته قد حاز من العوامل التي سهلت له الطريق لاستمرار الوحدة، وكان من أهم ما اتخذه من قرارات عملية : مركزية الدولة والقضاء على نفوذ طبقة كبار الاقطاعيين خاصة في مصر العليا.

ولذلك فإن أهم مؤسسات الدولة الناشئة هو القصر الملكي بما جمعه من اختصاصات للسيطرة على أمور الدولة وتسييرها وبما حواه من عدد كبير من العاملين في مختلف المجالات فالبلط الفرعوني هو بمثابة الحكومة بجميع عناصرها وإن كانت هذه العناصر لم تكن قد اتضحت معالمها بعد.

ففي داخل هذا البلاط ومن أجل ساكنه، اخترعت الكتابة لتسجيل أعماله وانتصاراته وثرواته وحكوماته وحكمه وأحكامه.

فالفرعون على رأس الجهاز التنفيذي باعتباره رب الوحدة وراعيها وحاكم القطرين وصاحب التاجين الذي يدير الأمور من قصره الكبير بما فيه خير الجميع وبما يحقق الصالح العام.

ومن الملاحظ من ألقاب الملك ضرورة ذكر كل قطر فيقال ملك القطرين مصر العليا ومصر السفلى ويقال التاجين حيث تم دمج تاج الجنوب بلونه مع تاج الشمال فى شكل واحد ولكن ظل إسمه التاجين كذلك استخدم الرمزىن المميزىن للقطرىن وهكذا وكان هذا التاكيد ضروريا فى أول سنىن الوحدة.

ويتميز هذا العهد بخطوات واسعة خطتها مصر فى سبيل تقدم البشرية، خاصة حين ابتدع المصرىون الكتابة المصرية القديمة التى أسماها الإغريق فيما بعد «الهيروغليفية» أى النقوش المقدسة، والتى تدل على مدى التقدم العلقى والرقى الفنى المصرى القديم.

الديانة :

أما عن المعتقدات الدينية فى ذلك العصر فأهمها أن الملك يحمل لقب «حورس» فهو ليس فقط شخصية مقدسة أو ممثل الآله على الأرض بل هو ملك إله له سلطات دينية ودنيوية وهو مطاع من الجميع، لأنه يقع فى مرتبة أعلى من الجميع.

وهو المسئول عن تنظيم عبادة الآلهة لأنهم أبائه وأخوته، وهو الذى يشيد لهم المعابد الكبيرة العظيمة بدلا من المعابد الخشبية الصغيرة، أما هو فيسكن القصر الذى ينقش عليه اسمه داخل إطار مميز (الخرطوش).

الحكومة :

كان قيام الوحدة بين الشمال والجنوب عسيرا ولكن الحفاظ على هذه الوحدة كان أصعب فالظروف المختلفة بين الشمال والجنوب كان يمكن أن تؤدى إلى آثار سلبية فمصر العليا أو الجنوب تقوم أساسا على الزراعة وكانت خارجة لتوها من عصر اقطاعى حيث بدأ بها عملية تفتيت للإقطاع فى عهد سابق بعض الشئ، على الأسرة الأولى وكان أمراء المقاطعات، كما تبيينهم النقوش،

يظهرون محيطين بالملك، وكل منهم على رأس جيش من مقاطعته وهؤلاء كانوا يمثلون العائلات الكبيرة ذات النفوذ.

أما مصر السفلى أو الشمال فكان اقتصادها زراعى وتجارى وكانت تتميز بأنها تضم الريف إلى جانب الحضر وكانت المدن الكبيرة فى الشمال بمثابة مراكز حضارية متطورة.

وبدأ الفرعون بالتركيز على أن يجمع حوله فى العاصمة الأجهزة الكبرى وحكومة تضم أجهزة الشمال وأجهزة الجنوب كما أنه احتفظ بالعشرة الكبار من الجنوب ويبدو أنهم كانوا من كبار الاقطاعيين ومن العائلات ذات النفوذ احتفظ بهم كمستشارين له.

ومن الأسرة الأولى وصلت لنا أختام لأهم الموظفين فى البلاط الفرعونى ومنهم رئيس الإدارة ويبدو أنه فى مقام الوزير الأول لأن خاتمه منقوش عليه المسئول عن كل شىء.

ومن الوظائف الهامة أيضا فى الأسرة الأولى كبير مهندسى الفرعون وهو المسئول عن الأشغال العامة والبناء كما وجد رئيس البيت الأبيض وهو المسئول عن الإدارة المالية. ومن كبار العاملين فى هذه الأسرة أيضا المسئول عن الضرائب.

النظام الضريبى :

أما فى الأسرة الثانية فقد وصلت أجهزة الحكم والإدارة إلى درجة عالية من الرقى والتقدم والنمو ومن أهم النظم التى بدأت تنتظم كل سنتين عملية الجرد العام أو الحصر الكامل لكل ثروات البلاد وكان يطلق عليه : تعداد الذهب والحقول والذى كان يفيد كقاعدة أو أساس لفرض الضرائب التى أصبحت ضرائب مباشرة على الدخل من ذلك الوقت.

والأموال المحصورة فى هذا التعداد هى الأموال بنوعيتها العقارية والمنقولة وبالقسط كان وجود مثل هذا الحصر كل عامين يتطلب إدارة متطورة ودقيقة. كما أن فرض ضريبة على الدخل هو من أصعب أنواع الضرائب وهو يتطلب كفاءة عالية فى الإدارة المالية وتنظيم كبير لمالية البلاد.

وهذه العمليات الكبيرة للإحصاء العام التى اعتمد عليها النظام الضريبي ساهمت فى أمور أخرى هامة للغاية منها ضبط الأحداث الزمنية وبالتالي ضبط مواعيد الاحتفالات الكبرى واحتفالات «حورس».

كما أن وجود هذا النظام الضريبي الدقيق يعنى أن الدولة كانت تقوم بدورها فى مواجهة ضرورات الحياة الاجتماعية للمواطنين.

ومن خاتم لرئيس القوافل التجارية يمكن أن نستنتج أن الحركة التجارية كانت تحت رقابة الدولة وبالتالي كانت الحياة الاقتصادية للبلاد منظمة.

ولما كان النظام الضريبي يقوم معظمه على الدخل من الأراضى الزراعية فكان لابد من وجود إدارة خاصة بالمياه أو الرى فالتيل هو شريان الحياة الرئيسى وهو الذى تعتمد عليه ثروة البلاد وكان من مهام هذه الإدارة القياس الدقيق والتسجيل السنوى لفيضان النيل وبناء على هذا التسجيل تحدد الضرائب وكانت الضرائب ترتفع أو تنخفض سنويا حسب الفيضان ومن احساس العدالة لدى الفرعون أنه كان أحيانا يلغى الضرائب على دخل الأراضى الزراعية عندما يحدث انخفاض شديد فى الفيضان مما يعوق عملية الزراعة.

أى أن هذه الإدارات الملكية كانت مسئولة عن الأشغال العامة وعن النظام المالى والنظام الضريبي وخزينة الفرعون والمخازن العامة للغلال وعن الضرائب وعن الأملاك العامة وعن المياه.

نائب الملك وحكام المقاطعات :

احتفظت عاصمة مصر العليا «نخن» بأهميتها كعاصمة جنوبية للبلاد وكان على رأسها موظف ملكي كبير يحمل لقب أمير من بين ألقابه وكان يعد بمثابة نائب الملك ويمارس سلطاته باسم الفرعون على جميع المقاطعات البعيدة. وهو الوحيد الذي يحمل تكريما خاصا من بين كل موظفي الدولة. يليه موظف ملكي آخر قد يكون على نفس مستواه أو أقل قليلا هو حاكم بوزيريس في مصر السفلى بالدلتا. كما تدل الاختتام على وجود حكام لمدن الدلتا يعينهم الفرعون ولهم سلطات إدارية على مدنتهم.

تنظيم الدفاع عن البلاد :

إلى جانب الإدارة الداخلية المثالية التي أوجدها الفرعون فقد اهتم أيضا بتنظيم الدفاع عن البلاد ضد الجيران الأعداء سواء من شعوب النوبة أو الشعوب الآسيوية أو القبائل الليبية على الحدود الغربية.

وقد شيد الفراعنة في هاتين الأسرتين القلاع والحصون على الحدود وأوجدوا إدارة دقيقة لتموين تلك الحصون وتأكيد وصول المؤن إليها. بل كان الجيش الملكي يرسل بعثات عسكرية إلى بلاد النوبة وبلاد آسيا المتاخمة لأسباب حماية عليها مع الحفاظ عليها وعلى احترام أهلها.

الطبقات :

حتى قبل قيام الأسرة الأولى كانت طبقة النبلاء الإقطاعيين في مصر العليا ذات نفوذ قوى ولكن يبدو من الوثائق النادرة لهذه الحقبة أن هذا النفوذ توارى أمام نفوذ الدولة الموحدة.

وقد لجأ الفرعون إلى فرض طبقة جديدة من النبلاء للقضاء على طبقة

النبلاء القدامى الإقطاعيين وهؤلاء النبلاء الجدد هم كبار الموظفين الملكيين وقد قلدهم الفرعون ألقاباً شرفية مثل : الأول بعد الملك والأمير وغيرها وهى الألقاب سوف تظل قائمة طوال الدولة القديمة.

إلا أن هذه الألقاب لم تكن وراثية كالألقاب الإقطاع القديم فهذه الطبقة الجديدة من النبلاء تعد نبالة ملكية وإدارية وغير وراثية بعكس الطبقة القديمة التى كانت إقطاعية وقبلية وأسرية ووراثية.

نظام الملكية :

تدل الحركة الكبيرة للإحصاء العام إن الملكية كانت متحركة وليست ثابتة بل إن انتقال الملكية كان يتم بتكرار عالى . فالملكية تنتقل حسب الوثائق وحسب التعداد من يد إلى يد بينما الأرض والأموال العقارية كانت كلها واقعة تحت الحصر كذلك كانت المنقولات الثمينة.

عصر الدولة القديمة

(من حوالى ٢٦٩٠ ق.م إلى ٢١٨٠ ق.م)

بعد الأسرتين الأولى والثانية -مينا وخلفاؤه- تمكن أهل العاصمة «منف» من الحكم، وانتقل عرش البلاد من أسرة «ثينية» إلى أسرة من زصل «منفى». وهى الأسرة الثالثة، وكان ذلك على يد مؤسسها الفرعون «زوسر» صاحب أول بناء حجرى فى التاريخ ، وهو هرمه المدرج فى سقارة.

وتبدأ هذه الدولة بالأسرة الثالثة، وتنتهى بتهاية الأسرة السادسة، وهو عصر بناء الأهرام. وقد جرى العرف فى هذا العصر أن يبنى الملوك الفراعنة قبورهم على شكل أهرامات، لذلك نجد فى المنطقة المحيطة بعاصمة البلاد فى ذلك الوقت أكثر من تسعين هرمًا، فى ميدوم ودهشور وسقارة وأبو رواش.

وامتازت الدولة القديمة بأن وحدة البلاد بلغت تمامها فيها، ولم يعد هناك أثر للنزاع القائم بين الشمال والجنوب، فساد عهد سلام وتقدم ونمو تدريجى فى كافة المجالات، مما أسفر عن رخاء وقوة، منبعها جهود داخلية أثمرت عن نشاط عم بالخير والإزدهار مختلف نواحي الحياة المصرية، فكانت الحضارة ذات طابع مصرى صميم، قائم على الشعب المصرى وحده، وليس ناشئاً عن كثرة غنائم وأسلاب جلبتها حروب خارجية، وهو ما لم ينظر إليه ملوك هذه الدولة الذين كانوا يتمتعون بالحكمة والقوة والمتعة، ولم يكن فى سياستهم النظر نحو الفتوحات خارج حدود البلاد بقدر ما كانت تهتم بالبحث عن زيادة ثراء البلاد، وتنمية مواردها الطبيعية والبشرية والمادية. ومنذ بداية الأسرة الخامسة بدأوا يتطلعون إلى خارج الحدود فى بعثات تجارية بحرية إلى فينيقيا عن طريق البحر المتوسط، وإلى بلاد بونت عن طريق البحر الأحمر.

الأسرة الثالثة :

كان الانتقال من الأسرة الثانية إلى الأسرة الثالثة فى الدولة القديمة قد تم بطريقة هادئة ودون تغيرات فجائية أو ثورات دموية، وأصبح ملوك منف هم الورثة الشرعيون لملوك العهد الشينى، وحملوا لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى أو ملك الوجهين القبلى والبحرى. بل وأصبح كل منهم أيضاً «حورس».

وطبقاً للمؤرخ مانيتون فقد حكم خلال هذه الأسرة الثالثة تسعة ملوك لمدة ٢١٤ سنة بينما تقدم بردية تورين خمسين سنة فقط كمدة حكم لهذه الأسرة.

وكان أهم ملوك هذه الأسرة الملك «زوسر» فقد كانت له مؤلفات علمية كما أنه وجه إهتمامه نحو تطوير الكتابة وفن العمارة وكان يعاونه وزيره العبقرى الطبيب «إيمحتب» والذي يرجع إليه الفضل فى الآثار القائمة حول هرم سقارة المدرج.

الأسرة الرابعة :

هى أسرة بناء الأهرام وهى تغطى طبقا لما نيتون ٢٨٤ سنة وتتضمن ثمانية ملوك وقد ترك لنا ملوك هذه الأسرة كدليل على قدراتهم، الأهرام ذلك الصرح المعمارى غير المسبوق وغير الملحق ذو السر الكبير. وأول ملوك هذه الأسرة هو «سنفرو» وبه يبدأ عصر رخاء وثراء لمصر، نتيجة لإدارته الحكيمة، وقد خلفه خوفو الذى كان أكثر منه قوة وتأثيرا وهو يعتبر أحد أعظم ملوك مصر، وأصبح اسمه أسطورة بفضل الهرم الأكبر الذى شيده فى الجيزة، ليكون مقبرة له . كما أنه بنى المعابد وشجع على استكمال الأعمال التعدينية فى سيناء، والتي كان قد بدأها سلفه «سنفرو».

عقب موت «خوفو» حدث داخل أسرته بعض الصراعات على الخلافة، نتج عنها أن خلفه «ددف رع» ولم يبق فى الحكم إلا مدة بسيطة وهُدم هرمه فى محاولة لمحو كل أثر له.

وتولى بعده أخاه «خفرع» الذى استمر فى الحكم مدة طويلة وإن لم نكن نعرف عنه الكثير فى مدة حكمه هذه إلا أنه يكفيه الآثار التى تركها لنا، مثل الهرم الأوسط وتمثال أبى الهول، والتماثيل الأخرى الجميلة الكثيرة. وخلف خفرع : «منكاورع» الذى اشتهر بالعدالة والتقوى، ومن آثاره الهرم الثالث فى الجيزة، والتماثيل الجميلة، وإتمام أعمال التعدين فى سيناء وهو آخر الملوك العظام فى أسرته. فمعلوماتنا عن خلفائه ضئيلة.

وتنتهى الأسرة الرابعة بطريقة غامضة، ويبدو أن أزمة دينية تسببت فى نهايتها نتيجة لزيادة قوة القائلين الدينى فى عين شمس، ومحاولات السطو على السلطة الملكية، ومحاولات للردع من آخر ملوك هذه الأسرة، وهو «شب سس كاف» ، ثم كان النصر النهائى من نصيب كهنة آله الشمس.

الأسرة الخامسة :

حكمت هذه الأسرة طبقاً لما نيتون ٢١٨ سنة. وأول ملوكها هو «أوسر كاف»، ويرى البعض أن أصول هذه الأسرة ترجع إلى جزيرة الفنتين قرب أسوان، بينما يرى آخرون أنها ترجع إلى عين شمس.

وجميع ملوك هذه الأسرة أقوياء، وقد امتدت أعمالهم إلى كافة أنحاء البلاد، وأحياناً تعدت أعمالهم حدود البلاد، وقد قضوا على محاولات القبائل التبرية والليبية لدخول البلاد. كما أرسلوا البعثات إلى جنوب فلسطين لإخضاعها. وأقموا لمصر أسطولاً قوياً فرض على جميع الجيران احتام فراعنة مصر، كما استغل في القيام بخدمات تجارية. وقد ساد السلام، وعم الرخاء، واستقرت النظم في وادي النيل في عهد هذه الأسرة.

وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو «أوناسش صاحب الهرم المعروف باسمه، وكان آخر سلسلة من الملوك نوى الاحترام ولأنه لم يعقب فقد انتقل الحكم سلمياً إلى أسرة جديدة.

الأسرة السادسة :

ملوك هذه الأسرة على أغلب الأقوال من «منف» وقد أتموا أعمال الأسرة الخامسة ولكنهم كانوا أقل منهم شهرة وبريقاً، ونكاد نجهل أعمال أول ملكين من هذه الأسرة، وهما «تيتي» و«أوسركارع»، وقد أعقبهم في هذه الأسرة أربعة ملوك آخرين وحكموا جميعاً ٢٠٣ سنوات على قول مانيتون.

وقد ترك لنا أحد ملوك هذه الأسرة وهو «بيبي الأول» الكثير من الآثار، وتعد فترة حكمه من أشهر فترات التاريخ المصري القديم، وقد قام بأعمال التشييد والبناء، كما جد في مختلف المجالات الأخرى حتى أننا نجد اسمه في

كل مكان : فى «تانيس» فى أقصى شمال الدلتا، وفى الجنوب عند الشلال الأول، وفى مناجم سيناء. وقد وجه إهتمامه الشخصى إلى تحسين النظم الإدارية، ونشر العدالة، وإرسال البعثات، وبناء جيش قوى، وأسطول عظيم للقضاء على الغزوات الآسيوية، التى تهدد البلاد، كما أرسل البعثات إلى النوبة لتأكيد سيطرة مصر على أعمال النيل.

إلا أن خلفاءه لم يرتفعوا إلى مستواه فابنه الأكبر «مرن رع» مات شاباً، وابنه الآخر «بيبي الثانى» الذى تولى السلطة لمدة ٩٥ سنة لم يكن على مستوى الأحداث، مما أدى إلى انهيار السلطة المركزية.

وتنتهى هذه الأسرة التى حققت الكثير للحضارة المصرية بعدد من الملوك الذين اختفوا دون أمجاد تُذكر، وكل ما يمكن أن ينسب إليهم هو حفاظهم على العرش والبلاد موحدة.

انهيار الدولة القديمة :

بانتهاى الأسرة السادسة تبدأ مرحلة مظلمة فى تاريخ البلاد تتميز بتضاؤل السلطة الملكية بل وانهيارها، ولا يمكن تعليل هذا الانهيار بثورة أو انقلاب أو غزو خارجى وإنما كان السبب الرئيسى هو إهمال القدرة العسكرية للبلاد، وإتجاه الملوك إلى تبنى سياسة مسالمة للغاية.

وهناك أسباب أخرى منها : إزدياد شوكة حكام الأقاليم وبخاصة فى النصف الأخير من عهد الأسرة السادسة، وسعيهم إلى الانفصال عن نفوذ الفرعون، والإقلال من الصلات التى تربطهم به، والاستقلال بحكم أقاليمهم. وكانت النتيجة الحتمية هى انهيار السلطة المركزية، وانقسام البلاد إلى أقاليم منفصلة ومستقلة تماماً عن سلطة ونفوذ حكومة «منف» وانتشار الفوضى والتفكك والإنحلال.

مظاهر النهضة في الدولة القديمة :

كانت لمصر في معظم أيام الدولة القديمة حكومة منظمة قادرة على تسيير الأمور، فازدهرت الحضارة، والدليل على ذلك ما خلفه لنا هذا العصر من آثار العمارة الكثيرة، وروائع الفن والمصنوعات، وأقوى دليل على ما كان يسود البلاد من حسن تنظيم وثراء ما تركه لنا ملوك هذه الدولة من أهرام، مثل هرم زوسر المدرج في سقارة، وأهرام الجيزة الثلاثة لخوفو وخفرع ومنكاورع، وهرم أوناس.

كما تتجلى عظمة العمارة أيام هذه الدولة في المعابد والقبور والمصاطب التي خلقتها لنا بجوار الأهرامات، وبلغت القدرة والمهارة الفنية حدًا من الكمال في هذا العصر، كما يتمثل ذلك في تماثيلها : مثل تمثال الملك خفرع، وتمثال الكاتب المصري، وتمثال شيخ البلد، وكذلك النقوش والصور التي تحلى جدران القبور في جبانات الدولة القديمة.

أما النهضة في مجال العلوم الرياضية والفلك والطب وألوان المعارف الأخرى فهي نهضة كبيرة، كما بلغت آداب المصريين الاجتماعية ومثلهم الروحية وتعاليمهم التربوية والخلقية درجة كبيرة من الرفعة والسمو.

والصورة التاريخية السريعة للملامح عصر الدولة القديمة (من حوالي ٢٦٩٠ ق.م. إلى حوالي ٢١٨٠ ق.م) التي عرضناها في بداية هذا الفصل لها أهمية عند تعرضنا للنظم القانونية التي سادت هذه الفترة، ولا بد من الإشارة إلى أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية لها انعكاساتها وتأثيراتها الهامة على هذه النظم.

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن هذه الدولة سوف تنتهار تماماً مع نهاية الأسرة السادسة ويبدأ عصر جديد من الاضمحلال مع بداية الأسرة السابعة ..

وسوف نلاحظ أن النظم القانونية فى الأسرتين الثالثة والرابعة وبداية الأسرة الخامسة قد تأثرت بالقوة السياسية الناتجة عن الإصرار على الوحدة ومحاولة رعايتها، ولكن مع بداية الضعف الذى أدى فى النهاية إلى النهيار تبدلت النظم القانونية بعض الشيء مسيطرة الأوضاع والظروف الأخرى السائدة.

نظم القانون العام

فى عهد الدولة القديمة

قد يكون هناك اتفاق بين الملك الفرعونى والملوك فى الممالك الشرقية الأخرى المعاصرة له من حيث إنه ابن الإله، بل وأحياناً أحد الآلهة، ولا أن الاختلاف الجوهرى يكمن فى أن الملوك الآخرين كانوا فى أغلبهم كسالى متعجرفين منزوين فى قصورهم، لا يهتمون بالأعمال الكبيرة ولا بالأبنية الضخمة والتشييد عموماً،

أما الفرعون فيوجه إهتمامه إلى تنظيم البلاد وإلى نمو شعبه وإلى نشر العدالة والسلام ويتولى بنفسه الإدارة واختيار كبار الموظفين الأكفاء لإدارة شئون الحكومة والجهاز الإدارى للدولة ويكافىء المجدين منهم، وفوق ذلك يجد الفرعون وقتاً لديه للإهتمام بالعلوم وتأليف الكتب.

كما نلاحظ أن الأمراء أولاد الملوك كانوا يتمرسون على الأعمال منذ صغرهم وكانوا يبدأون السلم الدارى من أوله وينتقلون فى مختلف الوظائف إلى أن يصلوا إلى الوظائف الإدارية الهامة مما يجعلهم أكثر إدراكاً لحال البلاد ومشاكلها وبالتالي يصبحون مؤهلين للحكم أو للمعاونة فيه.

وفى الدولة القديمة أصبحت مؤسسات الدولة واضحة المعالم، محددة المهام سواء فى البلاط أو فى الحكومة أو فى الجهاز الدارى أو المجالس الاستشارية ووجد منصب الوزارة فى وقت لاحق من هذه الدولة.

البلاط :

مع قيام الوحدة بين الشمال والجنوب وجد نظام المركزية السياسية والإدارية كما ظهر في الأسرتين الأولى والثانية ومع ترسخ الوحدة في الدولة القديمة زادت سلطات الملك وبالتالي زادت أهمية البلاط والعاملين فيه واختصاصاتهم وكانت أملاك البلاط الملكي واسعة وزاد اتساعها مع ضم أملاك ملك الشمال أو مصر السفلى إلى أملاك ملك الجنوب أو مصر العليا، مما أدى إلى زيادة العاملين فيه وهؤلاء تختلف أعمالهم من دينية إلى مدنية إلى قضائية إلى عسكرية.

فإدارة العبادة الملكية من الإدارات الهامة في البلاط وهي المكلفة بكل ما يخص العبادة الملكية وإدارة أموالها في أنحاء البلاد ويطلق عليها «البيت الأحمر» تمييزا لها عن «البيت الأبيض» وهو مقر إقامة الفرعون. والبيت الأحمر مسئول عن مزارع الكروم المملوكة له ولها رئيس لمزارع الكروم في الإدارة المركزية ويعاونه مسئول عن مزارع الكروم في مصر العليا وآخر في مصر السفلى ولكل منهما معاونين في كل المدن والقرى.

وإدارة القرايين الملكية ترأسها إحدى الشخصيات الكبيرة في البلاط ذات تقدير وألقاب شرفية وله مجموعة من المساعدين عملهم الأساسي تأمين القرايين المستخدمة في نور العبادة الملكية وتتبع الإدارة ورش صغيرة لإعداد القرايين من خبز وكعك وحلوى.

ومن معاونين الشخصيين للملك أمناء الأسرار الملكية وقد بدأت هذه الوظيفة بشخص واحد في الأسرة الثالثة ولكنها أصبحت في الأسرة الرابعة أوسع نطاقا ويبدو أن الملك أوجد حوله ما يمكن أن نطلق عليه المجلس الخاص يأخذ الملك رأيهم عند إعداد السياسة الملكية العامة. وأصبح أمناء الأسرار

الملكية يختارون من بين كبار الموظفين الإداريين والعسكريين والقضائيين إلا أن النصوص لم تبين لنا كيفية أخذ رأى هؤلاء النصحاء هل من خلال مجلس أم على شكل فردى. وفي الأسرة السادسة أصبح الوزير يضم إلى مهامه الأخرى وظيفة كبير أمناء الأسرار الملكية.

إدارة بيت الملك وهي المسئولة عن مجموعة الخدمات الإدارية الخاصة بالحياة اليومية، دخل مقر إقامة الملك.

وإدارات أخرى منها إدارة الأموال الخاصة للملك وإدارة المراسم الملكية وهي موجودة من الأسرة الثالثة ولكن دورها يزداد وينمو مع الأسرة الخامسة.

ومع تطور الأمور زادت الإدارات فى البلاط الملكى كما زاد عدد العاملين فيها حتى أصبحوا يشكلون شبه حكومة أخرى ومع الأسرة الخامسة وجدت وظيفة رئيس أعمال البلاط، إلا أنه مع بداية الأسرة السادسة، التى بدأت فيها مظاهر بداية انهيار الدولة القديمة وتقلص سلطات الفرعون، بدأت تقل أهمية هذه الوظيفة. ومن العلاقات المميزة لنهاية الأسرة السادسة هو تراجع جهاز البلاط الملكى حتى أصبح القصر لا يحوز من سلطاته السابقة إلا سلطة محدودة فى البيت الخاص للملك كما تضاعف دخل البلاط الملكى وأملاكه.

الحكومة المركزية :

بما أن الملك يرأس الدولة فله وحده السلطتين التنفيذية والقضائية. وهو يمارس سلطته التنفيذية بمعاونة كثير من الموظفين ولكن الملاحظ أن سلطته فى اختيار هؤلاء معاونين ليست مطلقة بل إنه مضطر إلى الالتزام بالنظام القانونى الذى يتمثل فى الاختار للوظائف الكبرى طبقا لقاعدة الأقدمية أو الأسبقية.

ومن مصادر التاريخ الهامة السيرة الذاتية التى كتبها ثلاثة من كبار الموظفين فى تلك الدولة يمكن الخروج بالكثير من الاستنتاجات وأهمها أن

الاختيار للوظائف العامة لم يكن وراثيا وأنه لم يكن محصوراً في طبقة معينة بل إنه كان مفتوحاً لجميع المصريين ماداموا يلمون بالقراءة والكتابة وأن هناك سلم دارى كامل ومتدرج يبدأ من وظيفة كاتب وهو يعين بقرار ملكى وكل ترقية تمنح له أو كل وظيفة ينتقل إليها تكون بقرار ملكى إلا إذا كانت وظيفة من نفس درجته، وهو يبدأ كاتباً فى إحدى الإدارات الملكية فى أحد الأقاليم ثم يستمر فى الخدمات الإدارية فى ذات الإقليم ثم ينتقل إلى الإدارة المركزية للإقليم حيث يتبعه الإدارات الأصغر فى هذا الإقليم وبعد أن يمر على الإدارات المختلفة ويرتقى فى السلم الإدارى يمنح رتبة شرفية هى : الحق فى حمل العصا.

وهى رتبة تمنح للموظفين الملكيين المتوسطين، وأخيراً قد يتوج عمل هؤلاء بالانتقال إلى الحكومة المركزية فى العاصمة كرئيس لإحدى الإدارات الهامة كالإشغال العامة أو الإدارة المالية أو إدارة القرايين الملكية وقد يمنح العضوية فى مجلس الحكومة العالى.

ومن الملاحظات القيمة على هذا النظام القانونى للإدارة المركزية أنه نظام يكاد يكون مفروض على الملك أن يتبعه فهو مقيد فى الاختيار ومقيد فى الترقية. وكان الملوك فى بداية الدولة القديمة يجعلون الأبناء الملكيين يسلكون هذا النظام من أول السلم الإدارى فيبدأ كاتباً ثم كاتباً ملكياً حتى يمكن منحه أى وظيفة عليا فى الإدارة المركزية.

المستشار :

أعلى موظف فى الدولة هو المستشار ونظرا للنظام المركزى فقد بلغت سلطاته البلاد كلها منذ الأسرة الثالثة، ومن أبرز أمثلة هذه الوظيفة الجليلة هو إيمحتب مستشار الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة.

والمستشار هو رئيس المجلس الأعلى للحكومة أو مجلس العشرة الكبار
دون أن يكون عضواً فيه. وهو يحمل تفويضاً من الملك لممارسة السلطة التنفيذية
ويظهر ذلك من خاتمه الملكى.

وحتى نهاية الأسرة الخامسة لم يكن للمستشار الحق فى قيادة الجيش بل
كان هناك مبدأ أساسى للتنظيم الإدارى منذ بداية الأسرة الثالثة يتضمن
الفصل الكامل بين السلطة المدنية وقيادة الجيش.

مجلس العشرة الكبار من الجنوب :

وهو المجلس الأعلى للحكومة وقد احتفظ بتسميته من قبل وحدة الشمال
والجنوب وأن اختلف تشكيكه واختلفت مهامه فقد كان هذا المجلس قبل وحدة
الشمال والجنوب يتشكل من كبار الاقطاعيين وأعضاء الأسر الثرية فى مملكة
الجنوب كما كانت العضوية فيه وراثية.

ولكنه منذ الأسرة الثالثة أصبح يضم كبار الموظفين فى الدولة مثل كبير
المهندسين الملكيين ورئيس الأشغال العامة ورئيس البوليس وحاكم المقاطعة
الحدودية الغربية ورئيس إدارة الضرائب وبعض قادة الجيش وبعض الكتاب
الملكيين. وأحياناً أحد الأبناء الملكيين شريطة أن يكون دخوله طبقاً للنظام
القانونى أى مروراً بالوظائف الأدنى.

ومهمة هذا المجلس هو رئاسة الجهاز الإدارى للدولة وتأكيد تنفيذ
القرارات والأوامر الملكية. وليس لهذا المجلس اختصاص تشريعى حيث أن هذا
الاختصاص من حق الملك ولكن على المستشار ومجلس العشرة الكبار من
الجنوب أن يتأكدوا من تنفيذ التشريعات الصادرة من الملك.

ومع الأسرة الرابعة تأكد نفوذ هذا المجلس بدوره كمجلس أعلى للحكومة
وأصبحت لأعضائه مراكز سامية حتى أن بعض الفقهاء يرى أن أعضاء هذا

المجلس أصبحوا يكونون طبقة جديدة من النبلاء الإريين حلت محل طبقة النبلاء الاقطاعيين السابقة على الوحدة. ومنذ الأسرة الخامسة أضيفت إلى مهام هذا المجلس بعض الاختصاصات القضائية.

ولكن مع بداية الأسرة السادسة بدأت تتضاءل مسئوليات هذا المجلس ومهامه لصالح منصب الوزير الذى انتقلت إليه الكثير من سلطات مجلس العشرة الكبار. وتراجع دور هذا المجلس إلى مرتبة ثانية. ومع نهاية الأسرة السادسة كاد أن يصبح لا عمل له.

الوزير :

مع بداية الأسرة الرابعة أدخلت بعض الإصلاحات على الحكومة والجهاز الإدارى للدولة حتى تواكب التطور السياسى للدولة.

وكان من بين هذه الإصلاحات إنشاء وظيفة جديدة إسمها : «قاضى الباب الملكى» إلا أن جمهور فقهاء تاريخ النظم القانونية المصرية اتفقوا على أن مهام هذه الوظيفة الجديدة هي نفسها وظيفة الوزير فى العصور الأخرى وأصبح لقب الوزير يميز هذه الوظيفة.

ومنذ الأسرة الرابعة أصبح الوزير هو أكبر موظف رسمى فى الدولة وله سلطات واسعة وله رئاسة الجهاز الإدارى للدولة كما أنه يلقب أعلى لقب شرفى فى البلاد.

وغالبا ما كان شاغل منصب الوزير هو أحد الأبناء الملكيين بالإضافة إلى كونه كبير كهنة توت إله القانون وكبير كهنة ماعت إله العدالة وكبير كهنة سشات إله الإدارة.

أما فى الأسرة الخامسة فلم يعد يشغل المنصب أحد الأبناء الملكيين بل يسمح لأى مصرى من كبار الموظفين والشخصيات الهامة أن يكون وزيراً.

والوزير موظف مدنى ولم يحدث أن وجد وزير من قادة الجيش ولكنه وإن كانت الإدارة العسكرية من مهامه إلا أنه لم يمارس قيادة أى قوات عسكرية.

لاحظنا فى الأسرة الثالثة أن المستشار كان هو الرئيس الأعلى للجهاز الإدارى ولكن مع بداية الأسرة الرابعة والإصلاحات الإدارية التى تضمنت إنشاء وظيفة الوزير انتقلت إليه هذه الصلاحيات ولم توضح المصادر التاريخية العلاقة بين الوزير والمستشار ويبدو أن هذا المنصب الأخير توارى مع الوقت حتى اختفى حيث إن الوزير ضم لقب المستشار إلى ألقابه الأخرى الكثيرة كما أن المصادر تذكر أن الوزير أصبح هو أقدم أهل مصر.

ومن خلال دراسة الألقاب المراسمية التى يحملها الوزير يمكن أن نحدد اختصاصاته الهامة والواسعة بعيدا عن الألقاب الدينية.

فالوزير مفوض من الملك فى اختصاصاته التنفيذية وبالتالى له الحق فى استخدام الخاتم الملكى.

وكان الوزير على رأس الإدارة المركزية ويشرف على المحفوظات الملكية حيث تحفظ المراسيم الملكية والعقود والوصايا والمستندات الهامة.

ويشرف على إدارة الرسائل الملكية ورئيس جميع الأعمال الملكية ويشرف على الخزينة العامة وعلى الضرائب وعلى أعمال الزراعة وعلى بعثات التعدين واستثمار المناجم والبعثات الخارجية وإدارة الجيش والأسطول.

وخلال الأسرة الخامسة أيضا أضيف للوزير اختصاص قضائى حيث أصبح القاضى الأعلى ورئيس المحكمة العليا أو محكمة القضاة الست.

ومع الأسرة السادسة زادت مسئوليات الوزير واختصاصاته حيث انتقلت إليه سلطات مجلس العشرة الكبار من الجنوب كما سبق أن ذكرنا وزادت مسئولياته القضائية فقد أصبح له أن يكون قاضيا وحيداً فى بعض حالات

الاستئناف. وكان هذا التوسع في الاختصاصات كمحاولة من الملك لانقاذ وحدة السلطة أمام حكام المقاطعات الذين أكسبوا أنفسهم سلطات الملك في مقاطعاتهم ولم يعد أمام الملك إلا التسليم للوزير بسلطات واسعة.

نائب الملك لمصر العليا :

من المناصب الهامة في الدولة القديمة منصب نائب الملك لمصر العليا في «نخن» العاصمة القديمة للجنوب وكان له مركز متميز ويحمل لقب أميرى. وظل هذا المنصب موجودا طوال حكم الأسرتين الثالثة والرابعة ولكن مع نهاية الأسرة الخامسة تم ضم هذا المنصب أيضا إلى الوزير وأصبح حاكم مصر العليا أحد كبار الموظفين ولكنه ليس نائبا للملك.

وكان نائب الملك للجنوب في «نخن» يحمل التفويض الملكى وبالتالى له الحق في استخدام الخاتم الملكى. ولكنه لم يكن عضوا في مجلس العشرة الكبار.

الجهاز الإدارى المركزى للدولة :

يضم الجهاز الإدارى المركزى للدولة مجموعة من الإدارات الكبيرة التى يوكل إليها جميع المهام الإدارية فى الدولة نذكر منها :

أ- بيت الملك :

تتخذ الإدارة المركزية للبلاد مقراً لها بجانب مقر الملك لهذا تسمى بيت الملك وكان لها فروع إقليمية فى كل مقاطعة وهى من الإدارات الرئيسية التى كانت تتبع المستشار فى الأسرة الثالثة وتتبع الوزير منذ الأسرة الرابعة وهى مسئولة عن الخدمات الإدارية للدولة وتضم ادارات ذات أهمية خاصة منها الرسائل الملكية وهى المسئولة عن بريد الملك كما أنها همزة الوصل بين

الإدارات وتؤكد نقل الأوامر الملكية وهناك إدارة السجلات الخاصة بالخط أو
الأرشيف وإدارة خاصة بالأختام الملكية.

ب- الإدارة المالية :

وهي المختصة بالإشراف على البيت الأبيض أو الخزانة العامة للدولة
وخزائن الغلال والمخازن العمومية والتموين.

ج- إدارة العبادة الملكية :

وهذه الإدارة تسمى البيت الأحمر وهي مسئولة عن العبادة الملكية
ومواردها ومصاريفها بالإضافة إلى اختصاصها من النواحي الخاصة بالمراسم
الجنائزية الملكية.

د- إدارة الأشغال العامة :

مهمتها الأساسية هي البناء والتشييد لكل ما يتعلق بذلك من تنظيم الأيدي
العاملة والتزويد بالآلات الأساسية ومن أكبر موظفيها مهندسى الملك ومدير
الإنشاءات البحرية ومدير الترسانة البحرية.

هـ- إدارة الضرائب :

وهذه الإدارة إزدادت أهميتها من الأسرة السادسة حيث أصبحت
الضرائب تقدر على الدخل وتخضع لها الأموال العقارية والأموال المنقولة حسب
الإحصاء العام للثروة الذى يعد كل سنتين مع التعداد العام للشعب.

و- إدارة المياه :

وكانت تختص بمياه النيل والترع والبحيرات وكان عليها متابعة الفيضان

وحسابه بكل دقة وتسجيله فى كل عام على الحجر المعروف باسم حجر باليرمو من سنة إلى سنة.

ز- الجيش :

تطور الجيش الوطنى خاصة خلال الأسرة الثالثة وأصبح هناك جيش برى وأسطول بالإضافة إلى بعض قوات عسكرية من المرتزقة وكانت قيادة الجيش البرى والأسطول قيادة موحدة ولم تكن وراثية إلا أنه مع الأسرة السادسة بدأ الملوك يجعلون القيادة داخل الأسرة الملكية من أجل الرقابة المباشرة على الجيش.

ومع نهاية الأسرة السادسة بدأ الجيش الملكى الوطنى يتناقص فى عدده وعدته وزاد الاعتماد على المرتزقة الذين تزايد أيضاً نفوذهم. كما تزايدت جيوش أمراء الاقطاع.

نظم القانون الخاص

فى الدولة القديمة

فى هذه المرحلة من تاريخ القانون المصرى القديم كانت النزعة الفردية فيه ظاهرة فقد كان الأشخاص جميعهم متساوون فى الحقوق لكل فرد الحق فى أن يمتلك ما يشاء من العقارات والمنقولات كما أن حق التصرف فى الأموال بأى صورة كان مكفولاً للمالك.

ومصادرها فى هذه الفترة عقود البيع المعثور عليها، أحدها يرجع إلى الأسرة الرابعة فى عهد الملك خوفو، كذلك سجلات تحديد الضرائب وسجلات التعداد العام ونقوش المعابد التى تبين استيفاء العمال لأجورهم. ومن هذه الآثار يمكن دراسة بعض نظم القانون الخاص فى تلك الحقبة.

نظام الأسرة :

ذكرنا أن القانون الذى يحكم هذه الحقبة، ذو نزعة فردية ويبدو ذلك واضحاً فى نظام الأسرة فهى تتكون من الأب والأم والأولاد فقط.

وكان لكل مصرية أن يتزوج من امرأة واحدة فقط وتدل النقوش والتماثيل على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق حيث تظهر المرأة فى نفس حجم الرجل وتقف بمحاذاة.

والمرأة المتزوجة لها الحق فى التعاقد وتملك العقارات دون أن يتوقف ذلك على إذن من زوجها فلها أهلية أداء ولها ذمة مالية منفصلة، فقد ذكرت إحدى السير المنقوشة أن امرأة توفيت وتركت لابنها خمسين أورو من الأرض الزراعية فكان من حق المرأة أن تملك العقارات ملكية خالصة لها. كما أن الذمة المالية للأولاد كانت منفصلة ولهم حق التملك وحدهم بعيداً عن ملكية الأسرة المشتركة ولم يكن للأب سلطان على ما يملكه أفراد الأسرة.

نظام المواريث :

كانت ثروة الأب تنتقل عند وفاته إلى أولاده وأولاد الأولاد، ووفاة الابن لا تمنع من توريث ابن الابن. ويكون توزيع التركة بأنصبة متساوية بين الأول دون تمييز للابن الأكبر أو للذكور على الإناث. وعند انعدام الأولاد فإن التركة تؤول إلى الأخوة والأخوات.

الوصايا :

حرية الإيصاء كانت مطلقة دون التزام من الموصي بتنصيب لمراعاة حق الورثة كما أن الوصية جائزة للوارث، ولغير الوارث. والمصدر الرئيسى لهذا الموضوع هو وصية الوزير نيكادورع من الأسرة الرابعة والتي يوصى فيها

بأمواله لأفراد أسرته. فقد أوصى نيكاورع إلى زوجته بنصيب أكبر من نصيب ابنة في الميراث . ولتأكيد خلو تصرف الموصى من عيوب الرضا فإن الوصية كانت تدون كتابة ويشترط فيها صحة العقل والبدن : « نيكاورع ... وكان لا يزال حيا علي قدميه وغير مريض...»

نظام الرق :

يظهر من المصادر أن القانون المصرى لم يأخذ بنظام الرق فى تلك الحقبة والدليل على ذلك عدم ذكر الرقيق فى التعداد العام للثروة الذى كان يحصى العقارات والمنقولات، ولا يذكر الرقيق ، كما وجدت بعض عقود البيع التى يشهد عليها بعض العمال وهذا يعنى أنه حر وليس رقيق.

ويرى بعض الفقهاء أن تلك الفترة وجد بها نوع من الرقيق العام وهم أسرى الحرب من الأجانب الذين كانوا يعملون فى المزارع المملوكة للدولة بلا أجر.

حق الملكية :

فى بداية الدولة القديمة كان حق الملكية حقا مطلقا بما يحويه من عناصره الثلاث الاستعمال والاستغلال والتصرف . فالأراضى العقارية كانت مملوكة للأفراد بعكس الحال فى أماكن أخرى حيث تكون جميع الأراضى مملوكة للدولة ويكون للأفراد عليها حق الانتفاع فقط، بل إن الدولة تبيع أحيانا للأفراد بعض ممتلكاتها وفى السيرة الذاتية لـ متن، التى سبقت الإشارة إليها، تنص على أنه اشترى من الدولة مائتى أروء من الأراضى الزراعية.

ونظام الملكية بهذا الشكل يعد نظاماً متطوراً فالمالك له الحق المطلق فى الاستعمال أو البيع أو الهبة أو الوصية أو الإيجار.

والعقود الناقلة للملكية كانت تخضع لإجراءات التوثيق والشهر في مكاتب التوثيق التي كانت تتأكد من الأطراف والشهود وتقوم بختم العقد ليصبح رسمياً.

والى جوار حق الملكية وجدت حقوق أخرى كحق الانتفاع الذي كانت الدولة تمنحه لكبار موظفيها على بعض أملاكها فتحتفظ بملكية الرقبة وتتنازل لأفراد عن حق الانتفاع وكان هذا الحق في كثير من الأحيان وراثياً كحق الملكية. كما وجدت أنواع من حقوق الارتفاق كحق المسيل وحق المجرى في مجال الري والتي تقوم بين ملاك الأراضي المتجاورة.

وحيث إن حق الملكية مكفول بجميع عناصره فقد وجدت عقود البيع التي تثبت التزامات البائع والتزامات المشتري كما وجدت عقود الإيجار المختلفة كإجارة الأشياء وإجارة العمل.

فترة الاضمحلال الأولى

أو العصر الوسيط الأول

من حوالي ٢١٨٠ ق.م إلى ٢٠٦٠ ق.م

بانتها، الأسرة السادسة تبدأ مرحلة اضمحلال للدولة المصرية بعد الإزدهار الذي نعمت به في عصر الدولة القديمة، فقد انفلت زمام الحكم من الفرعون، وساد الانحلال السياسي، والتفكك الاجتماعي، ورجعت البلاد إلى ما كانت عليه قبل عهد الوحدة من انقسام وتفرق، وقامت المعارك التي تشبه الحرب الأهلية، أو محاولات الاستقلال، وهي فترة أزمات مختلفة عموماً، منها الانقلابات ومنها محاولات الاغتيال والتسميم.

وقد صارع ملوك هذه الأسرات الموت بشراسة، كما يظهر من أماكن

الجروح على موميائاتهم والمعلومات المتوفرة عن هذا العصر المضطرب قليلة ومحدودة. وتغطي هذه الفترة الأسر من السابعة إلى العاشرة.

الأسرتان : السابعة والثامنة :

وتنسب الأسرتان السابعة والثامنة إلى «منف» ومعلوماتنا عن الأسرة السابعة ضئيلة، بل تكاد تكون منعدمة، حتى إن «مانيتون» يذكر بها سبعين ملكاً حكموا سبعين يوماً، وفسرها آخرون بأنهم حكموا سبعين عاماً، ولا تعرف أسمائهم أو أعمالهم. كذلك فإن الأسرة الثامنة تتضارب حولها الآراء بأن رأى مانيتون وبردية تورين وقائمتى سقارة وأبيدوس، خاصة من حيث ملوكها ومدة حكمهم.

وقد ساد خلال عهد هاتين الأسرتين الفقر والبؤس والقحط، وتتابعبت الفتن، وانتشرت الفوضى واختل الأمن، وتلاشت السلطة المركزية، واختفى سلطان العرش، ونُهبت القبور وحُطمت الآثار. كما أغار بدو الصحراء على الدلتا وعاثوا فيها فساداً.

الأسرتان التاسعة والعاشرة :

أدت هذه الأحوال بالبلاد إلى الفوضى والتفكك، وفي خلال تلك الفوضى ظهرت في مدينة إهناسيا (بالقرب من بنى سويف الآن) أسرة قوية، بزعامة أمير يدعى «خيتي» أغتصب العرش من الأسرة الثامنة المنقبة الضعيفة، وظل ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة الإهناسيتين طوال مدة حكمهم يعتبرون أنفسهم خلفاء مباشرين لملوك منف، وبالتالي فهم الملوك الشرعيون وحاولوا نشر سلطانهم على أقاليم الوادي كله من «إهناسيا» ، التي ظلت مقراً لعرشهم طوال حكم الأسرتين .

وأقاموا علاقات سلفية مع أمراء أسيوط وأمراء طيبة، وحاولوا التحالف معهم ولكن سرعان ما تحول الأمر عندما تقوى أمراء طيبة، ونشبت الحرب بين أمراء إهناسيا من جهة وأمراء طيبة من جهة أخرى.

وكان النصر من نصيب أمراء طيبة، حين تمكن «منتوحتب الثانى» أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الطيبية من إسقاط عرش «إهناسيا» ، وجلس على عرش مصر المتحدة مع بداية زوال الفوضى، ودخول البلاد فى دور إزدهار وعظمة.

ويمثل عهد الأسرتين التاسعة والعاشرية دور انتقال بين حكم الدولة القديمة المنفية وحكم الدولة الوسطى الطيبية، وتميز ذلك العهد من الناحية السياسية بالفوضى والتفكك وروح التشاحن بين الملوك والأمراء، أما من الناحية الفكرية فقد إزدهر الأدب خاصة الأدب الواقعى الخالى من عناصر الافتعال والاصطناع، والذى يترجم مشاعر الناس وإحساساتهم ترجمة صادقة، كما يبشر بالمساواة الاجتماعية والعدالة الإنسانية ويبدو أن الأدب كان يقدم إرهابات أو تباشير بعهد مزدهر جديد من التاريخ المصرى القديم، هو عهد الدولة الوسطى.

والنظام القانونى الذى ساد هذه الحقبة ما هو إلا انعكاس لأحوال البلاد السياسية والاقتصادية فقد انتش الاقطاع وتأثر النظام القانونى المصرى بذلك وظهر ذلك واضحا فى أنظمة القانون الخاص.

نظم القانون الخاص

فى العصر الوسيط الأول

فى الحقبة السابقة سادت النزعة الفردية فى النظام القانونى أما فى هذه الحقبة فقد أثر نظام الاقطاع السائد على النظم القانونية فوجدت طبقات مختلفة بعد أن كان المصريون متساوين أمام القانون واختلف شكل الأسرة أو حجمها وصار للابن الأكبر حقوقا أكثر من حقوق باقى الأبناء، وأصبحت الملكية المشتركة للأسرة من النظم الشائعة بدلا من الملكية الفردية وجميع هذه التغييرات الجوهرية فى النظام القانونى تساير تماما النظام الاقطاعى الذى ساد هذه الحقبة.

نظام الطبقات :

نتج عن انتشار الاقطاع فى مصر فى تلك الحقبة ظهور مجموعة من أمراء الاقطاع كانوا نواة لطبقة الأشراف وكانت تشمل إلى جانب هؤلاء كبار الموظفين وكبار الملاك وكذلك الكهنة.

وكانت هذه الطبقة تتمتع بامتيازات مثل تولى الوظائف المدنية أو العسكرية. وكانت الإدارة الملكية هى الفيصل فى منح الأفراد حق الإنضمام إلى هذه الطبقة بما يقطعه عليه الملك من أراض أو بما يمنحه من امتيازات أخرى. وفى المقابل كان أفراد هذه الطبقة يتعهدون نحو الملك ببعض الالتزامات مثل السهر على خدمة الملك وتقديم القرابين فى مقبرته بعد موته.

والانتماء إلى هذه الطبقة وراثى فنولد الشريف من حقهم أن يرثوا عنه هذه الصفة وهذا الانتماء وفى أغلب الأحوال كان الملك يمنح للورثة الألقاب التى كانت لمورثهم. ومن حق الأشراف أن يمنحوا المنح الأصغر بدورهم إلى بعض

أتباعهم فيصبح هؤلاء خاضعين لهم خضوعاً مباشراً ويخضعون للملك بطريق غير مباشر.

وقد تكاثرت هذه الطبقة واتسعت أملاكها نظراً لانتشار نظام إقطاع الأراضي الزراعية لكبار الموظفين والكهنة. وترتب على ذلك ضعف الملوك لصالح هذه الطبقة صاحبة الامتيازات المتزايدة، وكمثال على تضخم الامتيازات لهذه الطبقة أن أحد هذه الامتيازات وهو الإعفاء من الضرائب الملكية تحول مع الوقت فأصبح لهم الحق في جباية الضرائب ممن يقيمون داخل حدود أقطاعهم. وانتهى الأمر بهذه الطبقة أن أصبحوا حكاماً في أملاكهم يتولون فيها بعض السلطات العامة كالحق في التجنيد.

يلي طبقة الأشراف توجد طبقة انصاف الأحرار، وهي تضم من أهل الريف الفلاحين والكتبة والصناع ومن أهل المدن تضم العمال.

وبين هاتين الطبقتين توجد طبقة وسطى في المدن فقط تضم صغار المستخدمين وأصحاب المهن وهذه الطبقة لا تخضع لسيادة ما.

نظام الأسرة :

كذلك أثر انتشار الإقطاع على نظام الأسرة فقد اتسعت لتشمل عدداً أكبر فبعد أن كانت مقصورة على الرجل وزوجته وأولاده أصبحت تضم الأعمام والأخوال وأولادهم وجميعهم يخضعون للأب الذي يعد رب الأسرة.

ومتد نهاية الدولة القديمة وفي الأسرة السادسة أصبح تعدد الزوجات صباحاً فللرجل أن يتخذ لنفسه أكثر من زوجة واحدة.

وبدل على ذلك أحد النقوش التي تظهر الأمير محاط بست زوجات، إحداهن في نفس حجم زوجها والخمس الأخريات في حجم أصغر يقدمن له

ولها مظاهر الاحترام وتدل النقوش على أن الزوجات الأخريات شرعيات وأولادهن أولاد شرعيين.

إلا أن اباحة تعدد الزوجات انعكس سلبيا على حقوق المرأة ومركزها في الأسرة فأصبحت في مركز أدنى من رب الأسرة، زوجها، بل وأحيانا في مركز أدنى من الابن البكر الذي سوف يرث مركز أبيه. بل إن هذه الزوجة كانت تخضع لوصى الزوج بعد وفاة الزوج مما يعنى أنه أصبح عليها أن تستأذن عند التصرف في أموالها سواء زوجها في حياته أو الابن البكر أو الوصى بعد وفاته مما يعنى أنها أصبحت ناقصة الأهلية. ولكنها رغم ذلك لم تفقد حق التملك.

ومسيرة لنظام الاقطاع وتنتأجه أصبح للزوج ولاية على مال زوجته وولاية على أموال أولاده فيباشر جميع الحقوق وينوب عن هؤلاء في جميع المعاملات، ولا يخفى أن الغرض من ذلك هو الحفاظ على الأموال المشتركة للأسرة دون تفقيت حتى تظل الملكيات الكبيرة الاقطاعية وبالتالي تظل الامتيازات.

وبعد أن كان جميع الأولاد متساوين دون تفرقة بين ذكور وإناث أصبح ، في هذه الحقبة، للابن الأكبر مركزا مميزا في الأسرة كما أن بعض الامتيازات آلت إلى الأولاد الذكور دون الإناث.

نظام الصيراث :

على نفس المنوال سار نظام الميراث فحدث فيه اختلاف كبير للمحافظة على الامتيازات الاقطاعية والحيلولة دون زوال الملكيات الكبيرة فتزول معها امتيازاتها. وبخل في الميراث الأخوة والأخوات مع الزوجة والأولاد الشرعيين أما الأولاد غير الشرعيين فمحرومين من الإرث رغم انتشار نظام التسرى.

والابن الأكبر يتميز بتصيب أكبر ويمركز قانوني يسمح له بإدارة أموال التركة كلها حتى ولو كانت مملوكة لباقي الورثة. ويبدو أن أموال التركة كانت

تؤول بعد وفاة الابن الأكبر إلى من يليه في السن من اخوته الذي يحوز مركزه القانوني.

ومن الملاحظات الهامة في نظام الميراث والتي تسير فكر الاقطاع السائد أن الأنثى لا ترث في الأموال التي آلت إلى مورثها (الاب) من إرث سابق من أسرته، بل ينحصر حقها في الإرث في الأموال التي اكتسبها هو حياته، لأن هذه الأموال إذا انتقلت إليها سوف تدخل حتما في المستقبل تحت ولاية زوجها الذي يعد أجنبيا عن الأسرة.

نظام الملكية :

التطور الذي طرأ على النظام القانوني للملكية مرتبط بالاقطاع حيث إن الملك عندما يقطع الأراضي كان في أحيان كثيرة يحتفظ بالملكية فتحول النظام من حق مطلق للملكية إلى مجرد حق انتفاع وبذلك تم توزيع عناصر الحق بين الملك والأفراد. يحتفظ الملك بملكية الرقبة ويتنازل عن الانتفاع وهذا نوع من اقطاع الاستغلال. وعلى مستوى الأسرة تحدد أيضا الحق حيث أصبح المال مملوك للأسرة كلها ملكية مشتركة لا ملكية فردية، وينفرد الابن الأكبر بمركز قانوني متميز على هذه الملكية.

أما الأموال المنقولة فملكيتها كاملة وحق استعمالها واستغلالها والتصرف فيها مكفول للمالك. وتكتسب الملكية بكافة الطرق القانونية من البيع والهبة والشراء أو المنح الملكية أو الوصية.

وننتج عن هذا النظام أن ظهرت تقسيمات كثيرة للأموال فهناك أملاك الدولة وأملاك الملك وهناك أملاك الأسرة وأملاك الفرد وهناك أموال خارجة عن دائرة التعامل كأموال الأسرة أو الاقطاعات أو أملاك المعابد وأموال أخرى غير خارجة عن دائرة التعامل.

حق الانتفاع :

ذكرنا أن الملك يحتفظ لنفسه أو للدولة بحق الرقبة ويمنع الاقطاعات لاستغلالها وهذا الحق ينتقل بالإرث، فللوارث الحق في صفة المورث وامتيازاته وألقابه.

وعادة إذا منح الملك أو الاقطاعي الكبير إلى أحد أتباعه حق الانتفاع فإنه لا يستطيع أن يرجع في هذه المنحة مالم يخل التابع ببعض التزاماته تجاه الملك أو الاقطاعي فيمكن أن يفسخ عقد الهبة وتعود المنفعة إلى مالك الرقبة.

ومعلوم أن صاحب حق الانتفاع لا يحق له التصرف في العين محل الانتفاع لأنه لا يملكها، وحقه مقصور على مجرد الاستغلال، فهو يستطيع أن يستغلها بنفسه أو أن يؤجرها للغير. والواقع أن حق الانتفاع بهذا الشكل الذي ينتقل بالإرث ولا يرجع الواهب فيه، أصبح حقاً دائماً وشبه مؤبد ويقترب من الملكية الكاملة.

عهد الدولتين الوسطى والحديثة

من حوالي ٢٠٦٠ ق.م إلى ١٠٨٥ ق.م

تغطي هذه الحقبة حوالي ألف سنة حكمت خلالها عشر أسر من الحادية عشرة إلى الأسرة العشرين. ويقسمها فقهاء التاريخ العام إلى ثلاث دول الدولة الوسطى من حوالي ٢٠٦٠ إلى ١٧٨٥ ق.م وتضم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ثم عصر الانتقال الثاني من حوالي ١٧٨٥ إلى ١٥٨٠ ق.م ويضم الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة وأخيراً عصر الدولة الحديثة أو عهد الامبراطورية من حوالي ١٥٨٠ إلى ٦٠٨٥ ق.م. ويضم الأسرات الثلاثة من الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين.

وقد مرت بمصر خلال هذه الدول أحداث سياسية وتغيرات اجتماعية كبيرة منها ثورة اجتماعية على الأحوال المترتبة على عصر الاقطاع المنقضى ومنها محاولة غزو الهكسوس لمصر ومنها التوسعات الكبيرة فى حدود الدولة المصرية التى أدت إلى تكوين الامبراطورية المصرية القديمة.

وقد أثرت هذه الأحداث الكبيرة بالطبع على النظم القانونية السائدة وقد درج فقهاء تاريخ القانون على دراسة النظام القانونى المصرى لهذه الدول معاً. وحتى نتمكن من دراسة النظم القانونية المصرية فى هذه الحقبة فلا بد من الاطلاع على أحداث التاريخ .

لمحة من تاريخ

الدولتين الوسطى والحديثة

إنهارت دولة الاقطاع وانتهت فترة الإضمحلال الأولى أو العصر الوسيط الأول من تاريخ مصر وبدأ عهد جديد من القوة والمتعة تبعه عهد آخر من الكفاح ضد الغزو الأجنبى ثم تلاه عصر استقرار وتوسع ونعرض لهذه التطورات فى الآتى :

عهد الدولة الوسطى

من حوالى ٦٠ ٢٠ إلى ١٧٨٥ ق.م

فى أعقاب وحدة الشمال والجنوب رأينا كيف أدت السلطة المركزية فى الحكم والإدارة إلى استقرار الأمور وعندما اضمحلت السلطة المركزية بدأ استبداد حكام المقاطعات وانتشار الاقطاع وأخيراً سادت الفوضى البلاد وقامت ثورة شعبية بهدف التخلص مما كان يفرضه حكام المقاطعات على أفراد

الشعب، ويبدو أن هذه الثورة قد غيرت كثيراً من الأوضاع الاجتماعية كما أنها أثرت بالسلب على النظم القانونية التي كانت سائدة وأودت بها.

وأخيراً قامت على أنقاض هذه الاضطرابات دولة جديدة مزدهرة هي الدولة الوسطى تضم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

الأسرة الحادية عشرة:

ملوك الأسرة الحادية عشرة من طيبة وكان هدف ملوك هذه الأسرة الطيبية إعادة توحيد البلاد، وقد بدأوا على أنهم ملوك لمصر العليا فقط، ثم ما لبثوا أن سيطروا على مصر الوسطى أيضاً، ثم وادى النيل بأكمله، واستحقوا اللقب المراسمى والشرعى لملوك البلاد، وهو ملك مصر العليا والسفلى.

ويرجع إلى ملوك هذه الأسرة الفضل فى توحيد البلاد، والقضاء على الحروب الأهلية وأبرز ملوك هذه الأسرة هو منتوحتب الثانى، الذى تمكن من لم شمل البلاد، وإعادة وحدتها فى ظل حكومة قوية.

وطبقاً لما نيتون فإن عدد ملوك هذه الأسرة ١٦ ملكاً حكموا ٤٣ سنة بينما تعدد بردية «تورين» لهذه الأسرة ستة ملوك على مدى ١٦٠ سنة.

الأسرة الثانية عشرة:

لم توضح المصادر التاريخية بجلاء الطريقة التى انتهى بها حكم آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة (منتوحتب الخامس) (سنخ كا رع) ليبدأ أول ملوك الأسرة الثانية عشرة (أمنمحات الأول) حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. الذى كان كبير الوزراء فى فترة سابقة، ولا شك أنه كان يمت بصلة قرابة إلى الأسرة الحاكمة السابقة. وكان أمنمحات الأول إدارياً من الطراز الأول، يتمتع بعقلية رجال الأعمال، وكان أول ما واجهه عدد كبير من الأعداء تمكن من القضاء عليهم،

كما قضى تماماً على سيطرة الأمراء المحليين واستقلالهم بأقاليمهم، وقد استخدم فى سبيل ذلك العنف تارة والحيلة تارة، حتى أخضع أمراء الأقاليم لسلطانه.

كما أنه طهر أطراف البلاد من البدو والقبائل الليبية، وأدب العصاة النوبيين، وساد فى عهده الأمن والنظام وبفضل فترحاته العسكرية تمكن من توسيع الحدود المصرية.

وقد أسس هذا الملك أسرة قوية حكمت مايزيد عن القرنين، وتعتبر مدة حكمها من ألمع فترات العرش المصرى.

ومن الملوك البارزين أيضاً فى هذه الأسرة، سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث، اللذان استكملا أعمال أمنمحات الأول فى بسط السيطرة المصرية على النوبة حتى الشلال الثانى، وزصبحت هذه المنطقة مقاطعة مصرية يديرها موظفون مختصون مع بعض الفرق العسكرية الصغيرة لحماية الحدود الجيدة.

كما أكد فراعنة هذه الأسرة سيطرتهم الكاملة على الواحات وسيناء والمناطق الصحراوية، واهتموا بالعمل فى المناجم، ومن الأعمال العظيمة لهذه الأسرة أيضاً قيام سنوسرت الثالث بحفر قناة فى شرق الدلتا لتصل ما بين نهر النيل وخليج السويس لخدمة التجارة. أما أمنمحات الثالث فقد ارتبط اسمه بإنشاء خزان كبير لمياه النيل بالقرب من الفيوم وهو «بحيرة موريس» لتخزين مياه الفيضان بها.

وكان آخر ملكين لهذه الأسرة قد حكما لمدة قصيرة ولم يرد لهما ذكر كبير فى التاريخ وهما «أمنمحات الرابع» و«سبك نفرو» وفى عهدهما تلاشى نفوذ الفرعون تماماً، فكان ذلك تذكيراً بانتهاء الأسرة الثانية عشرة، وسقوط الدولة الوسطى، ودخول مصر فى عصر فوضى وظلام مرة ثانية.

عصر الإضمحلال الثانى

أو العصر الوسيط الثانى

من حوالى ٧٨٥ ق.م. إلى ٥٨٠ ق.م.

بانتهاى عصر الدولة الوسطى حوالى عام ١٧٨٥ ق.م. دخلت مصر فى عصر من عصور الضعف والفوضى والذل، وأشد أيام ذلك العصر اضطراباً هى الأيام التى تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة، فقد كثر تطلع كبار الموظفين، وقواد الجيش، وكل ذى سطوة إلى عرش البلاد، أيا كان الطريق إليه بالقتل أو بالخلع أو بالمؤامرات والفسائس، مما أدى إلى اندلاع الثورات، وتتابع الحروب الأهلية.

فاضطرب الأمن، واختل النظام، وساد الفساد ونتج عن ذلك بالطبع زيادة أطماع أعداء البلاد من الخارج ف وقعت فريسة فى يد الهكسوس إلى أن تمكن ملوك الأسرة السابعة عشرة من طردهم. وأسس ملوك الأسرة الثامنة عشرة أزهى العصور المصرية القديمة، هو عصر الامبراطورية.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة:

بعد الوحدة التى تمتعت بها مصر خلال حكم الدولة الوسطى عادت البلاد مرة أخرى إلى الانقسام والتفكك نتيجة لتنافس أسرتين على الحكم، إحداهما تحكم من طيبة فى الجنوب وهى الأسرة الثالثة عشرة، وعدد ملوكها حسب مانيتون ستين ملكاً.

وأسرة أخرى هى الأسرة الرابعة عشرة وتحكم فى نفس الوقت تقريباً من مدينة «سخا» فى الدلتا، وعدد ملوكها ستة وسبعون ويبدو أن الشرعية كانت للأسرة الرابعة عشرة، بينما القوة والمنعة كانت للأسرة الثالثة عشرة. وقد تداخل

ملوك هاتين الأسرتين حتى إنه يصعب أحيانا التمييز بينهما. ولا نعرف الكثير عن الأحداث السياسية والنظم القانونية لذلك العصر، لفدرة ماعثر عليه من آثار.

غزو الهكسوس (٧٢٥ ق.م) :

وننتج عن اضطراب الأحوال والتفكك والضعف وانفصال صلات الاتحاد بين الشمال والجنوب، أن تجرأت قبائل السلب والنهب الآسيوية على غزو البلاد، رغم سبق وقفهم ورهم عنها عدة مرات فى حكم أسرات سابقة.

وقد أطلق مانيتون على هذه القبائل الآسيوية، التى غزت البلاد حوالى ١٧٢٥ ق.م. اسم الهكسوس وهم رؤساء قبائل سامية من أصول سورية أو فلسطينية، وقد دخلوا إلى وادى النيل من الحدود الشمالية الشرقية للبلاد، قريبا من السويس، وأقاموا فى الدلتا، وانتشروا منها فى كل البلاد، وأسسوا سلطة شبه مستمرة ومستقرة، واتخذوا لأنفسهم اللقب الرسمى لملوك مصر، واتخذوا لأنفسهم من «أواريس» فى شرق الدلتا عاصمة لهم، كما توغلوا بعض الشئ فى مصر الوسطى، ويقوا فى مصر خلال حكم الأسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة وبداية السابعة عشرة، وهى أسرات ضعيفة حكمت مصر اليا ورضخت لتواجد الغزاة فى الشمال.

واستمرت سيطرة الهكسوس على البلاد، وحاولوا التقرب إلى المصريين يتبنى عاداتهم التى كانت ولاشك أكثر تحضرا من عاداتهم فى بلادهم، كما حاولوا الحكم مثل الملوك المصريين القدامى، بل إنهم اتبعوا التقاليد والديانة واللغة المصرية، وحاولوا استمرار الفن القومى والبناء والتشييد، ولكنهم رغم ذلك لم يتركوا أية آثار ذات قيمة تل على حكمهم، اللهم إلا القلعة التى بنوها لتكون عاصمة لهم فى أواريس (سان الحجر). وقد ظل المصريون ينتظرون إلى الهكسوس نظرة الكراهية والاحتقار، ولم يطمئنتوا لهم أو يتعاونوا معهم، ولم

يستطع الهكسوس القضاء على الروح الوطنية في البلاد بل كانت تلك الروح تقوى مع الأيام.

الأسرة السابعة عشرة :

وكان الفراعنة قد انسحبوا إلى طيبة لتجنب صاع غير متكافئ، إلي أن ظهرت فئة جديدة من أمراء طيبة، أخذوا على عاتقهم تحرير البلاد من السيطرة والاحتلال الأجنبي، فتسلحوا بالشجاعة والمهارات العسكرية، واستمدوا من الحركة التي كانت تموج بها الجماهير كلها وقوداً للثورة ضد المستعمر الأجنبي.

وكان اجتماع هذه العوامل هو الأثر الفعال في انهيار مملكة الهكسوس، وأغلب ملوك الأسرة السابعة عشرة قضوا نحبهم في ميادين المعارك، لذلك يستحق أمراء هذه الأسرة مركزاً شرفياً، ويمكن أن نطلق عليهم بحق أسرة الانتقام أو أسرة الاستقلال. لأن تاريخها هو تاريخ الكفاح ضد غزاة البلاد. والملوك الرئيسيين لهذه الأسرة هم : سقن رع ثم ابنيه «كاموس وأحمس». وقد حكم الأول منهما مدة قصيرة على عكس أحمس الذي حكم مدة أطول حتى أحرز النصر النهائي، فطرد الهكسوس وطاردهم حتى سوريا سنة ١٥٨٠ ق.م.

ويعتبر مانتون أن أحمس هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة التي هي بداية عصر الدولة الحديثة، أو عصر الامبراطورية.

عهد الدولة الحديثة

أو عصر الامبراطورية

من حوالي ١٥٨٠ ق.م إلى ١٠٨٥ ق.م

تمثل الدولة الحديثة أوج الارتفاع، وقمة المجد للقراعة، وتبدأ هذه الفترة بتمام طرد الهكسوس من أرض مصر، وهي تمتد خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ثم تبدأ مرحلة انتقال ثالث في الأسرة العشرين.

ويمكن أن نقول إن الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة قد أعادنا إلي مصر المجد الذي شهدته في الأسرة الثانية عشرة من عهد الدولة الوسطى، ولكن الرخاء الداخلي كان أقل بسبب الحروب الكثيرة والصعبة التي خاضها ملوك هاتين الأسرتين. وفي خلال حكم هؤلاء الأمراء سيطرة مصر على شعوب كانت تفصلها عنها مسافات شاسعة، كما كانت بينها وبينهم اختلافات في الأعراق وفي العادات وفي الطبائع. ولم تتمكن مصر من فرض الطاعة على هذه الشعوب لمدة طويلة، فانتهزوا فترات ضعف تالية للرد بغزوات فارسية أو آشورية كما سنرى.

الأسرة الثامنة عشرة:

تضم هذه الأسرة عند مانيتون خمسة عشر ملكاً، حكموا حوالي ٢٣٠ سنة. من ١٥٨٠ ق.م إلى ١٣٥٠ ق.م. تبدأ بأحمس الأول الذي طرد الهكسوس، وأعاد مصر كلها للمصريين، ثم بدأ في تأمين حدود البلاد، فاحتل النوبة عند الحدود الجنوبية، وأخضع بلاد الشام وفلسطين شرقاً، وفرض عليهم الجزية.

ولما عاد أحمس إلى مصر كانت تنتظره مهمة إعادة تنظيم البلاد داخلياً، بعد أن كانت جهوه كلها موجهة للكفاح الحربي لمدة طويلة، وكانت هذه هي

المهمة التي أخذها على عاتقه ابن أحس : «امنحتب الأول» وخلفاؤه تحتس الأول وتحتس الثاني.

وكنتيجة لطول الكفاح العسكرى أصبح لمصر جيش قوى ومنتظم ومدرب، وممارس لفنون الحرب لمدة طويلة، وفوق كل ذلك هو جيش منتصر. وبهذا الجيش فتحت مصر عهداً جديداً، هو عهد الفتوحات الخارجية العظمى، فوصل به تحتس الثاني حتى سوريا ونهر الفرات، ووضع علامات حدوده هناك، ثم توغل بجيشه جنوباً إلى ما بين النهرين، كما أنه وخلفاءه قد وجهوا حملات متتالية نحو الحبشة إلى أن تمكنوا منها.

وحكمت الملكة حتشبسوت أرملة تحتس الثاني مصر كوصية علي العرش لابن الملك، وهو تحتس الثالث، لمدة تبلغ سبعة عشرة عاماً، وقد اتسمت فترة حكمها بالصرامة وقد ركزت أعمالها علي مصر ذاتها، ولم يكن لها من أعمال خارج مصر إلا البعثة التي أرسلتها إلى بلاد «بونت»، (الصومال الآن) في جنوب البحر الأحمر.

وهذه البعثة لم يكن لها أية أهداف عسكرية ، بل كانت تجارية وسياسية بحتة. وقد أدارت حتشبسوت البلاد بحكمة، ومن أثارها الباقية مسلة الكرنك، ومعبد الدير البحرى.

وتمكن تحتس الثالث من الحكم منفرداً لمدة ٤٨ سنة، على رأى البعض، وكانت فترة من أمجد الفترات في تاريخ مصر، وقد تمكن بحملاته العسكرية المتعددة من الاستيلاء على فلسطين وسوريا حتى الفرات وما بين النهرين وكردستان وأرمينيا في آسيا الوسطى، وظلت هذه الأقطار تحت حكمه لمدة طويلة، وبحالة مستقرة وثابتة، أما جنوباً فقد توغل حتى وصل إلى الحبشة ماراً بالسودان الحالى والنوبة وأخضعها جميعاً، وفي البحر المتوسط أخضع قبرص وبعض الجزر اليونانية.

وقد خلف تحتمس الثالث ابنه امنحوتب الثانى، ثم خفيده تحتمس الرابع،
ومدة حكميهما لا تترك الكثير ليذكره التاريخ لهما.

أما امنحوتب الثالث، وهو ابن تحتمس الرابع، فقد حكم مدة ٣٧ سنة،
وكان دبلوماسياً بارعاً، وسياسياً قديراً، وإدارياً بارزاً، وجندياً شجاعاً، وهو وإن
لم يوسع فتوحات أسلافه (الواسعة فعلاً) إلا أنه على الأقل حافظ عليها بكل
اقتدار، دون أية محاولة لثورات أو حركات ضده، وأعماله فى البناء والتشييد
تشهد لعصره.

وخلفه ابنه امنحوتب الرابع تلك الشخصية المصرية العظيمة، فقد تبنى فى
فترة حكمه ما اقتنع به من إصلاحات دينية، تتمثل فى القضاء على النفوذ
المطلق والمتزايد لكهنة آمون، إله طيبة، والتي كانت توازى أحياناً نفوذ الملك.
فاتخذ فى سبيل ذلك إجراءات حاسمة بحذف اسم إله آبائه وأجداده.

وهدم ما بنوه له من معابد، بل وحبس وطرد الكهنة، وطمس إسم آمون من
جميع النقوش، ثم هجر طيبة كلها ومعه جميع أعضاء البلاط، واتجه شمالاً
حيث أسس فى مصر الوسطى مدينة جديدة هى «تل العمارنة» بالقرب من
ملوى بالمتيا الحالية، شيد فيها قصره، واتخذها حاضرة له تحت رعاية الإله
الجديد الذى اتخذه وجعله يحل محل جميع الآلهة الأخرى وهو «أتون» الذى
يتمثل فى قرص الشمس، أو الإله القوى وراى الشمس.

وهذا التوحيد للآلهة فى إله واحد كامن وراء الشمس، يُعد هو الأول من
نوعه فى حضارات الشرق القديم ثم اتخذ الملك امنحوتب الرابع لنفسه اسماً
جيداً منسوباً إلى الإله الجديد وهو إسم «أخناتون» بمعنى رونق الشمس، ثم
اتخذ عاصمة جديدة هى : خوت آتون أى أفق قرص الشمس .

وينى اخناتون القصور الجميلة، ومعابد الإله آتون، ومنازل ذات طابع

خاص، وقد تميز الفن في عصره بطابع خاص يتسم بالواقعية متحديا العادات والروتين، وهي نفس سياسته التي اتبعها في توطيد دعائم ديانته الجديدة.

إلا أن ملكاً بهذه العقلية والتطور لم يكن ليوم ملكه طويلاً، فقد مات بطريقة غامضة. ومدة حكمه غير معلومة على وجه اليقين. وقد خلفه صهره (زوجا ابنتيه) اللذان حاولا السير على منهجه إلا أن الثاني منهما، وهو توت عنخ آتون، قد أعاد فتح معابد طيبة وأعاد عبادة الإله آمون وغير اسمه إلى توت عنخ آمون.

وتنتهي الأسرة الثامنة عشرة بأحد الوجوه النبيلة هو «حور محب» الذي أعاد تنظيم البلاد بعد تلك التقلبات الدينية التي كان لها عميق الأثر في كل النظم. فأعاد النظم القديمة، وأرسل البعثات إلى النوبة، وشيد الأبنية في أجزاء مختلفة من البلاد، وأصدر مجموعة من القوانين تهدف إلى القضاء على العنف وحماية الضعفاء.

الأسرة التاسعة عشرة :

خلف «حور محب» آخر ملوك الأسرة السابقة أحد قدامى الوزراء وهو «رمسيس الأول» ملكاً على البلاد، ولما كان لا يمت بصلة قرابة للأسرة الثامنة عشرة، فقد اعتبره مانيتون مؤسساً لأسرة جديدة من ثمانية ملوك، حكموا حوالي ١٤٥ سنة من ١٢٥٠ ق.م إلى ١٢٠٥ ق.م .

ولم تكن فترة حكم رمسيس الأول ذات تميز، نظراً لقصر مدتها، أما ابنه «سيتي الأول» فهو أحد عظام الفراعنة، إن لم يكن أعظمهم، وقد أمضى الجزء الأول من حكمه في استعادة المستعمرات المصرية في آسيا، فاتجه نحو سوريا ووصل إلى بلاد الحيثيين في آسيا الصغرى،

ثم مملكتي بابل وأشور على الفرات الأعلى، ثم استدار نحو ليبيا بهدف

القضاء على نفوذ بعض القبائل هناك، كما أحكم السيطرة على بلاد النوبة والجنوب عموماً، ثم التفت ستي الأول لإجراء بعض الأعمال الداخلية في هدوء، وقد ترك لنا من الآثار الهامة ما يدل على إهتمامه بإقرار الأمن والسلام والرخاء، فقد حفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر، وفتح طريقاً جديداً للقوافل إلى مناجم الذهب، وأقام المسلات العظيمة وبنى الكثير من المعابد منها معبد «أبيدوس» وهو الأعمدة في معبد الكرنك، ومقبرته التي نحت عليها جميع أعماله وفتوحاته.

تولى الملك بعد ستي الأول ابنه «رمسيس الثاني»، وكان قد شارك أباه في السنوات العشرة الأخيرة من حكمه الطويل، ثم انفرد بالحكم بعد موته، وكان عمره حوالي ثلاثين عاماً.

ومن أهم أعماله العسكرية هي الحرب السورية عندما انتهزت الأمم الآسيوية الواقعة تحت السيطرة المصرية فرصة انشغال رمسيس الثاني في القضاء على بعض الاضطرابات في النوبة، لمحاولة الإفلات من السيطرة المصرية، وعلى الأخص الحيثيين، الذين كانوا يتحينون الوقت لاستعادة استقلالهم.

وتزعموا كذلك محاولات استقلال كل من سوريا وبين النهرين وأرمينيا وأشور.

وبعد عشرين عاماً من الصراع تمكن رمسيس الثاني في «قادش» من اقتراح معاهدة للسلام، تم بموجبها رفعهم من كل رمز من رموز الخضوع ليصبحوا حلفاء للمصريين، وتم الاعتراف بهم على أجزاء من سوريا الشمالية، بينما احتفظت مصر بسيطرتها على بلاد الكنعانيين وفنيقيا وفلسطين وبين النهرين.

أما على المستوى الداخلى فقد أضاف رمسيس الثانى خلال مدة حكمه الطويلة، التى بلغت حوالى ٦٧ سنة أمجاداً أخرى بما سنه من شرائع وقوانين، وبما قام به من أعمال البناء والتشييد، حتى وصل الأمر بطيبة فى عصره أن أصبحت متحفاً للمعمار، ومن أهم أعماله الباقية إلى الآن، معبد «أبى سمبل». ويذكر البعض عن رمسيس الثانى، نظراً لولعه الشديد بالبناء والتشييد، أن وصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى إزالة إسم من سبقه من ملوك من أثرهم ليضع إسمه هو، للإيحاء بأنها من أعماله هو، وهذا لا يقلل من عظمتة هو الآخر.

كان «مرن بتاح» هو الذى خلف «رمسيس الثانى»، وهو ابنه الثلاثين، الذى حاول الحفاظ على الانتصارات التى حققها أبيه دون اللجوء إلى القوة العسكرية، فوقع فى خطأ عدم تدريب قادة للجيش، وعندما اتحد الليبيون واليونانيون وبعض شعوب البحر المتوسط، وهاجموا بسفنهم الحربية الثغور المصرية دفعة واحدة، كانوا يستولون على الدلتا، ويصلون إلى «منف» لولا أن استعان «مرن بتاح» بالقادة الذين كانوا فى جيش «رمسيس الثانى»، فتمكن الجيش من رد هذا الغزو بعد معارك دامية، مما ضمن لمصر الأمان من هذه القوات المغيرة لمدة طويلة بعد ذلك.

وظلت مصر حتى ذلك الوقت محافظة على فتوحاتها فى آسيا وأفريقيا، ولكنها لم تحاول الاستيلاء عليها أو ضمها.

أما الملوك الذين تولوا بعد «مرن بتاح» فقد كانوا ملوكاً ضعافاً، منهم «سيتى الثانى» و«أمون مسس» و«رمسيس سبتاح»، وهم لم يقدموا الكثير للبلاد، بل سادت الفوضى فى حكمهم، مما شجع المستعمرات الآسيوية على التخلص من النفوذ المصرى عليها.

الأسرة العشرون :

رمسيس الثالث هو أول ملوك هذه الأسرة، وهو يعتبر آخر ملوك طيبة العظام، فقد أعاد النظام للبلاد، وصد هجمات تكتل الأعداء تحت قيادة الحيثيين، وتمكن من الانتصار عليهم براً وبحراً. كما انتصر على غزوة ليبية نصراً مؤزراً. فساد البلاد جو من الأمن والسلام والأمان. وقد شيد رمسيس الثالث الكثير من المباني العظيمة التي تشهد على عظمته، مثل تلك الموجودة في مدينة «هابو» كما أنه عمل على حماية التجارة والصناعة المصرية.

ثلاثون عاما حكم خلالها رمسيس الثالث البلاد، ثم تتابع على الحكم بعده تسعة ملوك، يحملون إسم رمسيس، ولكنهم لا يشبهون رمسيس الثاني والثالث إلا في الاسم فقط دون العمل، فقد كانوا ألعوبة في أيدي رجال البلاط، وكهنة آمون. ومع حكم رمسيس الثاني عشر آخر فراعنة الأسرة كان الانهيار الداخلي قد استشرى من جميع الوجوه. وحتى من الناحية الخارجية فقد شعرت الدول الخاضعة بحالة البلاد المتردية مما أدّى بها إلى محاولات الاستقلال. بل والتفكير أحيانا في غزو مصر كما سنرى.

نظم القانون العام

فى الدولتين الوسطى والحديثة

لم تكن مصر فى عهد الدولة الوسطى تختلف كثيراً عنها فى الدولة القديمة من أغلب النواحي، وإن وجد اختلاف بالطبع يتصل بالنظم الاجتماعية والإدارية واللغة والدين والفن. وسوف نتناول فيما يلى بعض النظم القانونية التى حدث فيها تطور واضح عما كان سائداً فى الدولة القديمة.

المملك :

كان الملك يباشر سلطانه إلى أبعد الحدود، ووجد فيه الناس رجلاً يخدم مصالح البلاد. واستطاع ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يضعوا حدوداً للفوضى السابقة، مما قضى على المنازعات الداخلية، وزاد إحساس الشعب بالأمن، ومن الأسباب التى أدت إلى تدعيم نفوذ البيت المالك فى ذلك العصر الأخذ بمبدأ تركيز الإدارة فى يد الملك، فقد أدرك الملوك أن القضاء على نفوذ حكام الأقاليم هو أضمن السبل لضمان ثبات العرش.

وقد استن ملوك هذه الدولة سنة جديدة، هى الاشتراك فى الحكم، فكان ولى العهد يشارك فى الملك، للتدريب عليه، مما ساعد الملوك على الاحتفاظ بعروشهم الموروثة دون مشاكل وبكفاءة عالية.

كما عنى الملوك بإعادة تنظيم البلاد فى هذه الفترة على أساس قوى، وكان من أثر ذلك أن أخذت البلاد المجاورة تحسب حساباً لمصر وتقدر قوة شخصية ملوكها. وأهم ما يميز ملوك هذه الدولة هو إصلاح البلاد، وتنظيم وسائل الرى والزراعة، واستثمار المحاجر، وتقوية الصلات التجارية بين مصر وجيرانها.

كما اهتم ملوك الدولة الوسطى بإثراء العدالة وكان من حق كل مصري غنياً كان أو فقيراً أن يخاطب الملك في شكوى مكتوبة ضد أي استغلال للسلطة وقد وجدت شكاوى من عهد الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. بل وصل الأمر بالملوك في الدولة الحديثة أن يرسلوا الرسل لجميع أنحاء البلاد لجمع هذه الشكاوى والتحقيق فيها وإبلاغه بالنتيجة.

ومع الدولة الحديثة استقر الأمر لصالح الفرعون بعد القضاء على الاقطاع وتنظيم البلاد من الداخل، وعادت للفرعون صلاحياته الواسعة ولكن في ظل نظام إداري رفيع ودقيق تحت الرئاسة المباشرة للوزير.

الوزير :

مع الدولة الوسطى وعلى الأخص منذ أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة عمل الملوك على الحد من سلطة حكام الولايات وكبار أمراء الاقطاع، وكانت وسيلتهم في ذلك أن يرفعوا من شأن وظيفة الوزير وتخويله سلطات واسعة علي الجهاز الإداري للدولة.

أما في الدولة الحديثة ومع بداية الأسرة الثامنة عشرة فقد تعقدت وتشعبت مهام الوزير، وبلغ منصب الوزارة ثروته فالملوك لم يحتفظوا ببقائهم إلا بفضل وزراء أقوياء يسيطرون بكل قوة على النظام البيروقراطي من أجل تحقيق المصلحة العامة وإقرار العدالة.

ويظهر ذلك من نقش في مقبرة الوزير رخميرع حوالي ١٤٥٠ ق.م. حيث يشرح في سيرته الذاتية الكثير من اختصاصاته ومهامه كوزير للفرعون تحتسب الثالث، ونقرأ من هذه النقوش :

«مراسم الاحتفال بالوزير رخميرع تبدأ بالسماح لرجال البلاط بدخول بلاط الفرعون - فليعيش في صحة وسعادة» ويستمر الوصف لهذا اللقاء

الذى تم فيه تكليفه بالوزارة ، ثم من كلمة الفرعون المنقوشة يمكن أن نستنتج مدى إهتمام الدولة بهذا المنصب :

«... بعد ذلك تحدث جلالتة إليه قائلاً، ادرس واجبات الوظيفة وتفهم كل ما فيها. الوزارة هي ركيزة الدولة. الوزارة ليست حلوة المذاق إنما هي مرة كاللحم...».

ومن أهمية هذه الوظيفة أن الفرعون كان يستقبل الوزير كل صباح ليتلقى منه تقريراً شاملاً عن أحوال الدولة. ولعل هذه النقطة أيضاً تبين مدى إهتمام الفراعنة المصرية بمعرفة كل ما كان يجرى فى البلاد وكل ما يتخذ من إجراءات ويهتم بمعرفة سير العدالة. فهم إذاً ملوك يملكون ويحكمون.

وكان يعاون الوزير فى أعماله عدد كبير من معاونين، هم الكتبة أى الموظفين الإداريين المدنيين، الذين يقومون على أعمال الشئون القانونية كإجراءات التقاضى وكذا تقدير الضرائب وجبايتها وتحرير التقارير الإدارية عن كل الأنشطة المتعلقة بالخدمات العامة للمواطنين.

وكان الوزير يعقد الكثير من الاجتماعات والمقابلات مع مروسية ويتلقى تقارير تفصيلية منهم عن أعمالهم ويقوم هو بدوره برفعها للفرعون.

وكان للوزير فى هذه الحقبة اختصاص قضائى حيث أنه كان يرأس المحكمة العليا التى كانت أحكامها نهائية.

وقد وجد فى بعض الأحيان وزيرين أحدهما لمصر السفلى ويرتكز فى ممفيس والآخر لمصر العليا ويرتكز فى طيبة مع وجود نائب عن الملك فى النوبة.

الجيش :

اهتم الملوك بتكوين جيش ثابت ليكون سنداً لهم ودعماً لسلطانهم وكان لابد من الاعتماد على القوة الحربية لإقالة البلاد من عشرتها، وإقرار السلطة

الملكية، وحماية الحدود. وقد أصبح للبلاد فى عهد الدولة الوسطى جيش قائم دائم، هو مظهر قوتها، ورمز اتحادها. ويرجع إلى ذلك الجيش الفضل فى ضم بلاد النوبة نهائياً إلى مصر فى عهد «سنوسرت الثالث» بعد أن كانت منطقة دائمة الاضطراب، ولم يكن الجيش فى الدولة القديمة ثابتاً، بل كان يجمع من أمراء المقاطعات عند الحاجة إلى الحرب. أما فى الدولة الحديثة ومع تكوين الامبراطورية والفتوحات فقد زاد الجيش وأصبح تنظيمًا ثابتاً وقائماً بذاته ويتبع الدولة وتم القضاء على جيوش أمراء الاقطاع.

الأقاليم الإدارية :

كانت أقسام مصر الإدارية ثلاثة : هى مصر العليا، ومصر الوسطى، ومصر السفلى، وكان تحت كل قسم منها عدد كبير من المقاطعات، يتولى إدارتها حكام أو أمراء القبائل. ولكن منذ حكم «سنوسرت الثالث» أصبح يتولاهم موظفون من قبل الحكومة المركزية، لسهولة السيطرة عليها، وتأكيد الولاء للفرعون.

الإدارات المركزية :

أصبح من أهم إدارات الحكومة المركزية : الإدارة المالية، وإدارة الأشغال العامة. وكان يشرف عليها رئيس بيتى المال. وكان منصب كل منهما يلى مباشرة منصب الوزارة.

وكانت للإدارة المالية اختصاصات أهمها :

إقامة المباني - تشييد الجبانة الملكية والمعابد المختلفة فى أنحاء البلاد، وإقامة الحصون وحفر الترع، وما يترتب على ذلك كله من عمل فى المحاجر الواقعة قرب النيل أو فى الصحارى، مما كان يستدعى نقل الأحجار على الأرض والماء، وما يستلزمه العمل من حجارين ونحاتين وملاحظين وكتاب.

كما كان من المناصب الجليلة والهامة فى الإدارة المركزية منصب مير
أختام الملك وكان بمثابة وزير المالية ومدير المخازن الملكية، فيراقب توريد المواد
الخام وتصنيعها ويراقب الصرف ويراجع الحسابات الخاصة بالبلاط وبالصيانة
وبالطعام فى جميع القصور الملكية. وكان يتلقى التقارير من المقاطعات ويرفع
بذوره تقريراً يومياً للوزير.

بعض الملاحظات الختامية عن عهد الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية:

تميز عهد الدولة الحديثة بالثراء والرخاء، وبلغت حضارة البلاد مستوى لم
تبلغه من قبل، ويظهر ذلك فى معابد ذلك العصر الكثيرة، والتي تتميز بالصفامة
والفخامة، وتشير إلى جمال الصناعة، ودقة الفن. ومن أهم تلك المعابد:

الأقصر والكرنك والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وأبيدوس والنوبة
وأبو سمبل. كما يتميز عهد هذه الدولة باتصال المصريين بالخارج، واندماجهم
فى علاقات وثيقة مع الشعوب المجاورة، واشتراكهم فى الحياة الدولية عن طريق
الغزو والفتح، وأيضاً الصلات الدبلوماسية، وتزواج الفراعنة من أميرات الدول
الأخرى. كما كان للعلاقات التجارية أيضاً دور كبير، فقد اتسعت التجارة
فشملت فينيقيا وسوريا وبونت والسودان.

ومما يميز الدولة الحديثة أيضاً تقدم العلوم، وازدهار الأدب، ورفق الحياة
الاجتماعية، وشيوع الترف فى شتى مرافق الحياة، من مسكن ومأكل وملبس
وأثاث الزينة ووسائل اللهو والمتعة.

والسمة العامة لفراغة ذلك العصر هى أنهم اختطوا لأنفسهم سياسة
تتسم بالحكمة، وهى عدم فرض ملكيتهم، أى عدم ضم البلاد المفتوحة إلى
مصر، بل كانوا يعاملون ملوك هذه البلاد بالإحترام الواجب، ثم كانوا يشيدون

القلاع ليتكوا فيها حامية مصرية، ولم يكونوا يتدخلون فى السياسة الداخلية لهذه البلاد.

حتى أننا نجد بلاداً مثل «فينيقيا» تتفادى الاحتلال المصرى لأراضيها بالاعتراف بالسيادة الطبيعية الفرعونية سواء على أرضها أو على جزر البحر المتوسط التابعة لها. وقد يكون لمساعدة الفينيقيين دخل فى بناء فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الأساطيل التجارية، التى جابت البحار، ووضعة مصر فى مركز علاقات مستقرة مع موانئ الصومال والشام.

نظم القانون الخاص

أدت الثورة على نظام الاقطاع إلى تحله وإنهياره، وإن ظلت آثاره باقية حتى بداية الأسرة الثامنة عشرة، إلا أن انعكاس هذه الثورة على نظم القانون الخاص كان كبيراً فقد انهارت طبقة الأشراف القديمة رحلت محلها طبقة جديدة، كما تبدلت أحوال الأفراد والنظم القانونية التى تحكم حياتهم وانقلبت أوضاعهم الاجتماعية رأساً على عقب. ومن الآثار التى خلفتها تلك الثورة بعض النصوص الأدبية التى تصفها والتى تبين ما ذكرناه :

قول أحد الحكماء : غلت مراجل الثورة فى كل البلاد بحيث سطا اللصوص على الأغنياء وسلبوهم أموالهم ... وهامت النساء فى الطرقات وترك القوم الزراعة رغم فيضان النيل لفقدان الأمن والطمأنينة... وسفك الأخ دم أخيه وقطعت الطرق وأخذ اللصوص يترصدون للزراع...

وقول حكيم آخر عن هذه الفترة :

«الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا فى خرق باليه...» كناية عن تحول حالهم من الثراء إلى الفقر، وفى إشارة إلى ضعف السلطة يقول : «كل إنسان يأخذ ما يريد»...

ولكن ما لبث أن عادت الأمور إلى الاستقرار وبدأت ملامح النظام القانوني تتطور نحو النظام الفردي التي ساد في الدولتين الوسطى والحديثة ولكنه يختلف عن النظام الذي ساد في مصر في الدولة القديمة قبل أن يبدله الاقطاع إلى نظام يفقد فيه الفرد حريته كما رأينا.

ولكن الملاحظ أن النظام الفردي الذي عاد إلى الظهور مع الدولة الوسطى هو نظام فردي تشوبه نزعة اقطاعية. وكذلك فإن الاقطاع نفسه عندما عاد إلى الظهور فإنه لم يكن يمثل شراسة الاقطاع الأول فقد تنبه الشعب إلى حقوقه ولم يتمكن الأمراء من الاستبداد بالأمر كما فعلوا من قبل.

وتتميز هذه الحقبة بأن القانون قد أصبحت كلمته هي العليا وأصبح الالتزام به واجباً، حتى نجد أحد الملوك الأسرة الثانية عشرة يخاطب وزيره قائلاً: ... «إذا جاءك الخصوم فاعمل على أن يتم كل شيء وفقاً للقانون بحيث يحصل كل شخص على حقه».

نظام الطبقات :

وإن كان النظام الاقطاعي وآثاره لم ينقرض تماماً إلا في الأسرة الثامنة عشرة إلا أن الثورة التي أودت بالنظام الاقطاعي وإنهياره أدت إلى القضاء على القيود التي كانت تقيد الأفراد وتجعلهم تابعين لأمير الاقطاع.

وأصبح الأفراد العاديين يتمتعون ببعض الحقوق التي كانت مقصورة على الأشراف مثل الدفن في مقابر مشيدة خصيصاً للحياة الأخرى، بمعنى آخر بدأت تباشير المساواة بين جميع الأفراد تنمو شيئاً فشيئاً وتنتقل من المساواة في الأمور الدينية كالدفن إلى المساواة المدنية أيضاً. ولكن زوال طبقة أشراف الاقطاع لم يحدث دفعة واحدة كما أنه لم يقضى عليها تماماً بل غير من تركيبها، فقد تكونت الطبقة الجديدة من كبار الموظفين ذوي الامتيازات. كما

استرجعت طبقة الكهنة خاصة فى الدولة الحديثة الكثير من امتيازاتهم، كما تمتع قادة الجيش بالكثير من الامتيازات.

وبهذا أصبحت طبقة الأشراف تشمل كبار الموظفين والكهنة وكبار قادة الجيش، الذين يتمتعون ببعض الامتيازات ولكن الانتماء لهذه الطبقة ليس وراثياً، وليس مقصوراً على من فيها فقد أدت المساواة والحرية السائدة إلى إمكانية أن يتحول أى فرد من طبقة إلى أخرى لهذا لا يمكن أن نقول عن هذا النظام أنه نظام طبقى بالمعنى الحقيقى.

نظام الأسرة :

أصبحت الأسرة تشمل الوالدين والأولاد والأخوة والأخوات والأصهار والموالى والحظايا والخدم، وهم يخضعون جميعاً لرب الأسرة، وكان المزارعون والصناع يعملون جماعات كل فى أسرته وكان كل فرد مسئول عن عمله أمام رب الأسرة وهو المسئول عنهم جميعاً أمام الدولة.

وقد وجدت سجلات لقيد أسماء أفراد كل أسرة وكان رب الأسرة يقدم بياناً سنوياً عن أفراد أسرته.

كما وجدت سجلات لقيد المواليد والوفيات :

الزواج :

يبدو أن مراسم الزواج كانت تتم فى المعبد وبحضور أقارب الزوجين. وظل نظام تعدد الزوجات معمولاً به ولكنه لم يكن شائعاً ولا يحدث إلا نادراً وغالباً عند الأثرياء. أما عند الملوك والأمراء فقد كان منتشرًا فقد وجدت مقابر لست زوجات للملك نب حتب رع من الأسرة الحادية عشرة. وفى الدولة الحديثة تزوج الملك رمسيس الثانى عدد كبير من الزوجات.

ولم تكن هناك مساواة بين الزوجات سواء لزوجات الملوك أو لغيرهم، فليما يتعلق بالزوجات الملكيات يبدو أن احدهن كانت تتميز عن الأخريات فكانت تحتل المكانة الأولى وينظر إليها باعتبارها الملكة، ففي الدولة الحديثة كانت الملكة تسمى : «زوجة الإله - ام الإله - الزوجة الكبيرة للملك - سيدة القطرين» وكان إسمها يوضع داخل خرطوش ملكى.

وفيما يتعلق بزوجات أفراد الشعب فكانت هناك أولوية لاحدهن وهي التي تكون ربة البيت وعلى الباقيات الطاعة.

حقوق المرأة :

استردت المرأة الكثير من حقوقها مثل حقها فى الارث والتصرف فيه دون الرجوع للابن الأكبر أو للوصى، وإن ظلت فى عهد الدولة الوسطى لا تملك التصرف فى أموالها، وتطور الأمر بعض الشيء فى الدولة الحديثة إلى أن وصل مع بداية الأسرة الثامنة عشرة أن استعانت المرأة حرية التصرف فى أموالها دون إذن زوجها.

نظام الرق :

لم يكن الفلاحين أو الصناع من الرقيق، فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة، وكانوا يتمتعون بكامل حرياتهم وتحسنت حالتهم كثيرا عما قبل، إلا أن مصر عرفت نظام الرق فى عهد هاتين الدولتين، خاصة أن هذا العهد تميز بأنه عهد حروب وفتوحات وانتصارات مصرية وتوسعات مما كان ينتج عنه عدد كبير من الأسرى يباعون ويشتررون ويؤجرون شأنهم فى ذلك شأن السلع.

فكان الرق موجوداً ولكن كان أغلب الرقيق من الأجانب وقد عرف ذلك من أسمائهم الأجنبية.

وكان الملك يوزع أسراه كعبيد على القادة والجنود أو يتركهم لمن أسرهم كغنيمة، كما كانوا يوهبون للمعابد بوصفهم نصيب الآلهة من غنائم الحرب.

والمالك على الرقيق حق الملكية فإذا هرب العبد كان لصاحبه أن يتعقبه ويسترده ويستعين بالقضاء عليه وكان من حق المالك أن يعتق عبده وعن نظام التسرى فقد ظل شائعاً في عهد الدولتين الوسطى والحديثة كما كان موجوداً في العهد الاقطاعي.

نظام المواريث :

زال امتياز الابن الأكبر في الأسرة مع تقلص فكرة الملكية المشتركة نتيجة انهيار فكرة الاقطاع، وبالتالي عاد نظام المواريث كما كان قبل الاقطاع فقد أصبحت المساواة هي قاعدة الميراث بين الأخوة دون امتياز للابن الأكبر عن باقي الأبناء أو للذكور على الإناث. وكان الإرث ينتقل من الأصول إلى الفروع كما ينتقل من الفروع إلى الأصول. وأصبح للأولاد غير الشرعيين الحق في الميراث بشرط إنعام الأولاد الشرعيين.

وكان التوارث شائعاً في المهن والحرف فكان الأولاد يحلون محل آبائهم في الأراضي والمصانع والوظائف.

حق الملكية :

ضعف حق الملكية تحت ظل النظام الاقطاعي وتفككت عناصر هذا الحق بين مالك الرقبة ومالك المنفعة، ولكن مع انتهاء العهد الاقطاعي عاد إلى الملكية شأنها وعاد إلى حق الملكية سلطانه ومن الثابت أن الأفراد كانوا يملكون الأراضي في عهد الدولتين الوسطى والحديثة وكان حقهم عليها مطلقاً من كل قيد.

وكانت هناك أملاك خاصة للملك وكان يخضع لها العمال الزراعيون ليقوموا على زراعتها ثم يؤتون للخزانة الملكية محصولاتها بعد استئزال أجورهم. أما الأفراد فكانت لهم جميع حقوق الملكية على أموالهم بكافة صور التصرفات دون قيد مثل البيع والهبة والوصية، وكانت هذه التصرفات توثق أمام الموظف المختص وتسجل بمكاتب التسجيل. مرجعاً لاثبات الملكية عند التنازع أمام القضاء. كما كانت سجلات الضرائب تستخدم أيضاً لاثبات الملكية.

ومنذ الدولة الحديثة عادت الاقطاعات تظهر مرة أخرى ولكن بصورة مختلفة وهي اقطاعات الجند، فكان بعض الملوك يكافئون الجنود باقطاعهم بعض الأراضي الزراعية وكان أكثر من توسع في ذلك رمسيس الثاني الذي عرف بمنح الكثير من الامتيازات لرجال جيشه، واطاعات الجند كانت ترد عليها بعض القيود منها أنها لا تقبل التجزئة وكانت تمنح بأمر ملكي يخرجها من أملاك التاج وكانت معفاة من الضرائب.

نظام التعاقد :

الإتجاه إلى النزعة الفردية في النظم القانوني في هذه الحقبة أدى إلى إطلاق حرية التعاقد. وقد تم العثور على عقود بيع وعقود إيجار. وفي البيع وجدت عقود بيع عقارات وظهر من النصوص إيجاب البائع ثم أداء الثمن ولا نقرأ في النص صيغة القبول. كما وجد لدينا عقد بيع رقيق، بل وتم العثور على عقد بيع وظيفه في الأسرة الثانية عشرة : «إن والدي قد صدر منه تنازل عن الوظيفة الكهنوتية التي كان يملكها إلى الكاتب إمباتيب»... وفي الأسرة السابعة عشرة عقد بيع وظيفه مدنية هي وظيفة محافظ مقاطعة «الكاب» كما وجدت عقود لبيع المنقولات، كالمواشي. أما عن الإيجار فقد وجدت عقود إيجار أشياء كالأراضي وعقود إيجار أشخاص كاستئجار الرقيق للخدمة.

العصر المتأخر

أو عصر الإضمحلال الأخير

(من ٨٥٠ ق.م إلى ٣٣٢ ق.م)

يمكن أن نطلق على الفترة التي تضم الأسرات من الحادية والعشرين إلى السادسة والعشرين فترة الانهيار، فخلال هذا العصر المتأخر حدث بالفعل إنهيار في مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة، ووصلت البلاد إلى دور انحلال لم تخرج منه إلا لفترات متقطعة وقصيرة، فقد انفصلت عن الامبراطورية المصرية مسعكراتها في الشمال وفي الجنوب، وطمع فيها جيرانها الليبيون فحكموها بعض الوقت ثم آل الحكم إلى أسرات الجنوب، وفتحها آشور بانيبال واعتبرها ولاية آشورية لبضع سنين، كما تغلغل فيها الوجود الإغريقي.

أما الفترة من الأسرة السابعة والعشرين وما بعدها فقد وضع الفرس مصر تحت سيطرتهم في أغلب هذه الفترات، إلى أن تمكن الإسكندر الأكبر من فتح مصر سنة ٣٣٢ ق.م.

وهذه الحقبة التاريخية نستعرض فيها التسلسل التاريخي الهام لهذه الفترة التي تبلغ حوالى سبعة قرون والتي أصبحت فيها مصر مطمعا للقوى الأخرى، وأنت بها الأحوال في النهاية إلى انتهاء الدولة المصرية القديمة والانتقال إلى عصر البطالة، وحركة الإصلاح التشريعي والتقنين والتجميع، ونظم القانون الخاص في تلك الفترة.

لمحة تاريخية

الأسرة الحادية والعشرون :

فى عهد آخر ملوك الأسرة العشرين كان كبير كهنة آمون هو «حريحور» وكان يسيطر تماما على آخر قراعة هذه الأسرة، وهو رمسيس الثانى عشرة، ومع ذلك فقد أد به جشعه ورغبته فى الوصول إلى التاج إلى خلع مليكه، وأصبح هو الفرعون المؤسس للأسرة الحادية والعشرين، حوالى سنة ١٠٩٠ ق.م وآل الحكم إلى كبار الكهنة للمرة الأولى، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالبلاد.

فقد بدأت الدول الآسيوية الخاضعة- منذ عهد الإمبراطورية- تشب عن الطوق، فلا تسدد الجزية لمصر، وتهدد بفسخ المعاهدات، وحاول أمراء الشمال إيقاف أو تأخير محاولات غزو هذه البلاد.

فالأسرة الحادية والعشرين نصفها من «تانيس» - صان الحجر- ونصفها الآخر من «طيبة» وقد حكموا فى وقت واحد، وقد حاول ملوك طيبة الاستعانة بأهل الجنوب من أثيوبيا لتدعيم حكمهم وكان لذلك أثره كما سيظهر.

الأسرة الثانية والعشرون :

لا بد من الإشارة إلى أن القوة العسكرية التى اكتسبتها مصر خلال عصر الإمبراطورية، والتى حققت لها الفتوحات التاريخية، كانت تعتمد فى جزء صغير منها فى أول الأمر على فرق من المرتزقة من السود، ومن القبائل الليبية، ومن أهل شروانه، ثم اضطر ملوك الأسرة العشرين إلى زيادة قوات المرتزقة، وعلى الأخص من الفرق الليبية التى تميزت عن غيرها، مما قربهم من القصر الملكى، بل حدثت بينهم وبين أميرات الأسر المالكة بعض الزيجات.

وكان من ذرية هؤلاء القادة الليبيين والأمراء المصريين «شيشنق» الذى

تمكن من التسريع على عرش البلاد مؤسس الأسرة الثانية والعشرين «الليبية» سنة ٩٤٥ ق.م. وقد خلفه ملوك ليبينون أقوياء، منهم «أوسركن الأولش» و«تاكلوت الأول» و«أوسركن الثانى» و«شيشنق الثانى» والثالث والرابع، واتخذت لنفسها من «بوياسطة» قرب الزقازيق الحالية عاصمة لها.

وكانت هذه الأسرة من الأسر الحاكمة القوية، وتركت بعض الآثار، خاصة الموجودة فى عاصمتهم فى «بوياسطة» ويؤثر عن مؤسس هذه الأسرة أنه قاد حملة وصل بها إلى القدس، ولكن نفوذ خلفائه ضعف تدريجاً، وانقسمت البلاد إلى عدة إمارات.

وانفصلت النوبة عن مصر، حيث تأسست فيها مملكة مستقلة، اتخذت من مدينة «نباتا» قرب الشلال الرابع عاصمة لها.

الأسرة الثالثة والعشرون:

تعود «تانيس» -صان الحجر- فى الشرقية الحالية عاصمة مرة أخرى، وفراعنة هذه الأسرة كان سلطانهم محدوداً، إلا أنهم رغم ذلك تمكنوا من هزيمة ملوك طيبة، مما اضطرهم إلى الانسحاب إلى الحبشة، ومن هناك شكلوا تهديداً مستمراً للحدود المصرية، وقد انتهزوا فرصة الانقسامات فى الدلتا فى نهاية الأسرة الثالثة والعشرين، فقام أحدهم وهو «بعنخى» وهو من أصل مصرى، بل إنه من ذرية ملوك مصر الأقدمين من الأسرة الحادية والعشرين.

وكان يعتبر نفسه سليلهم ووريثهم الشرعى، وكان يحلم بإعادة المملكة المصرية الموحدة إلى قديم عهدها، وركب «بعنخى» النيل من الجنوب بأسطوله وجيشه، وأخضع فى طريقه جميع المدن والنقط القوية فى مصر رغم المقاومة التى واجهها من الأمراء الآخرين.

ولكنهم انتهوا بالخضوع التام له، فعاد مرة أخرى إلى عاصمته في الجنوب «نباتا». وترك للفراعنة الشرعيين منطقة مصر السفلى بشرط دفع الجزية.

الأسرة الرابعة والعشرون:

كان أعدي أعداء بعنخى هو مالك «سايس» -صا الحجر بمحافظة الغربية الآن- واسمه «تف نخت» الذى لم يستسلم له بل إنه انتحل لنفسه أيضا الإسم المراسمى الكامل وهو «ملك مصر العليا والسفلى» وقد ورثه ابنه «بوخوريس» الذى اشتهر بأنه قانونى عظيم وصاحب المدونة القانونية السابق الإشارة إليها. وقد قضى سبع سنوات فى معارك مع الأثيوبيين، يحاول كل طرف أن يفرض سيطرته على الطرف الآخر، وكا بوخوريس أن يحرز النصر لولا بُعد «نباتا» جنوبا، ويذكر التاريخ لبوخوريس أنه تمكن من إيقاف الملك الأشورى «سرجون» عند سوريا، ومنعه من دخول البلاد، وإن لم ينتصر عليه نصرا حاسما، إلا أنه اضطره إلى صرف النظر عن غزو مصر.

ولم يمض وقت طويل حتى تمكن أمير طيبة «شباكا» من إحراز النصر على «بوخوريس» وقتله وأنهى حكم الأسرة الرابعة والعشرين.

الأسرة الخامسة والعشرون:

تمكن ملوك النوبة من الاستيلاء على مصر كلها حوالى سنة ٧٢٠ ق.م. وأسس «بعنخى» الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية، ولكن سلطة هذه الأسرة كانت ضعيفة فى الدلتا لأن عددا من الأمراء المحليين الأقوياء كانوا ينازعونها السلطة، ولم تحكم هذه الأسرة إلا بضع عشرات من السنين.

ولما عاد بعنخى إلى نباتا. تولى أمر البلاد «شباكا» الذى حاول الآشوريون

في عهده غزو مصر، وكانوا بقيادة «سنخريب» مما اضطره إلى دفع الجزية
انتقاء لشورهم، أما ابنه وخليفته «شباتاكا» فقد رفض دفع الجزية، وحارب
الآشوريين ولكنه انهزم أمامهم، فوقعت البلاد في قبضة الآشوريين ولم يتفادها
من الاحتلال إلا الوفاء الذي حل بالجيش الآشوري واضطره للإلتسحاب.

وكان «مهرق» هو رابع الملوك الآثوبيين في هذه الأسيرة بعد أن قتل سلفه
«شباتاكا» وقد حدث في عهده بعض الرخاء إلى أن عاد الآشوريون مرة أخرى
بقيادة «أسرحدون» لغزو البلاد، ووصل حتى منف، ثم تمكن جنود ابنه «أشور»
بانيبال من الوصول إلى طيبة.

وفي حوالي ٦٦٢ ق.م تمكن خليفة «مهرق» الملك «تا أن واتى آمون» من
دفع الآشوريين حتى الدلتا، وعلى أية حال فإن الوجود الآشوري لم يستمر
طويلاً.

الأسيرة السادسة والعشرون : (النهضة) أسيرة صاوية

(من حوالي ٦٦٢ ق.م إلى ٥٢٥ ق.م)

كان لأمراد «سايس» الذين كانوا يحكمون جزءاً من الدلتا وضعاً متميزاً
على رأس حركات التحرير منذ عهد «بوخوريس» سواء في مواجهة الآثوبيين أو
في مواجهة الآشوريين.

وكان «نخار» - وهو المؤسس الحقيقي لهذه الأسيرة - قد نال اعترافاً للملك
على البلاد من «أسرحدون» الآشوري، ولكن المستفيد الحقيقي من هذا
الاعتراف كان ابنه «بسماتيك».

فقد انتهز فرصة انشغال آشور في صراع مع بابل وعيلام وتمكن من
طرد الحامية الآشورية من مصر، وطاردها في فلسطين، ثم عاد إلى مصر

وأخضع أمراء الأقاليم، واضطر الآثوريون إلى الانسحاب ، فخرجت البلاد في عهد «بسماتيك» من السيطرة الأجنبية المزدوجة، وتمكن من توحيد البلاد، وتميز عصره بأنه عصر اصلاح ونهضة، وساد في عهده الرخاء والمجد سنوات طويلة بعد التمزق والانقسام والاحتلال.

ولجأ بسماتيك إلى تقوية جيوشه بفرقتين من المرتزقة الإغريق حتى يتمكن من تركيز السلطة في بدء، واستعادت القوة العسكرية المصرية سابق عهدا، وبحث الفرعون عن وسيلة لإظهار هذه القوة، فقام بحملات ناجحة على سوريا، ثم شرع في تقوية الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية.

بعد خمسين سنة من الحكم مات بسماتيك خلفه ابنه «نخاو الثاني»، الذي اشتهر في التاريخ بموقعة «مجدو» التي انتصر فيها على الجيوش السورية، ثم حاول بعد ثلاث سنوات أن يتجه بجيشه ناحية الفرات لمحاربة البابليين، وتقابل مع جيش «نيو خذنصر» عند «قرقميش» فلقى هزيمة ثقيلة مما اضطره للهرب تاركا سوريا لعدوه في سنة ٦٠٥ ق.م.

ومما يؤثر عن عصره أن البحرية المصرية تمكنت من الدوران حول أفريقيا عن طريق البحر الأحمر، ثم العودة عن طريق البحر المتوسط، وقد خلف نخاو الثاني بسماتيك الثاني ثم ارييس، وشبت في عهد الأخير ثورة في البلاد وضعت أحد قواده على العرش، وهو الملك أمازيس «أحمس الثاني» وحاول الملك البابلي، نبوخذ نصر، استثمار هذه الثورة في مصر ليستولى على الممتلكات المصرية في الأراضي السورية.

ولكنه لم يجرؤ على الوصول إلى وادي النيل وكان أمازيس «أحمس الثاني» قد اضطر إلى زيادة الاعتماد على الإغريق مما زاد من أعدادهم حتى قامت مدن إغريقية بأكملها في الدلتا مثل «نقراطيس» وزادت التجارة والصناعة

اليونانية في مصر، مما أعطى الحق ليلاد الوجود الإغريقي في مصر، وكان هؤلاء الإغريق مبهورين بال الحضارة المصرية.

الغزو الفارسي: الأسرات من ٢٧ إلى ٢١ (٥٢٥ ق.م ٣٣٢ ق.م):

غزا «قمبيز» الفارسي مصر سنة ٥٢٥ ق.م فهرم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وانتهك حرمة الديانة المصرية، فأبغضه المصريون، وأصبح وادي النيل جزءا من الإمبراطورية الفارسية، ولكنه رغم ذلك ظل جزءا يعامل معاملة خاصة تختلف عن باقي أجزاء الإمبراطورية الفارسية، وكان وضع مصر متميزا، بتنظيمها الإدارية القديمة

واعتبر الملك الفارسي نفسه وريثا شرعيا للفراعنة ووضع إسمه داخل «خرطوش» وأعطى نفسه لقب ملك مصر العليا والسفلى، بل واللقب الحورسي المقدس، ورغم ذلك كله فإنه لم يكتسب ود المصريين الذين تعودوا على الحرية، وكانوا متشوقين إليها، وقاموا في سبيل ذلك بالعديد من الثورات قُضى على أغلبها، إلى أن تمكنوا حوالي سنة ٤٠٤ ق.م أثناء حكم دارا الثاني «داريوس» من أن يشبوا عن الطوق ويكونوا إلى جانب الأسرة السابعة والعشرين الفارسية، الأسرة الثامنة والعشرين المصرية.

الأسرة الثامنة والعشرين المصرية:

وهي مكونة من ملك واحد فقط هو «أميرتي»، كان جده قد آمن بفكرة أن الموت في سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلال الأجنبي، وترك الفرس الملك المصري وأتباعه ليعيشوا في سلام بشرط عدم الاعتداء على الأقاليم الواقعة تحت السيطرة الفارسية، وانتهز أميرتي الحفيد فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج من مخبئه على رأس أتباعه، وهاجموا الفرس، وتمكنوا من دحرهم خارج الحدود حتى سوريا، واتخذوا من «سايبس» عاصمة

لهم، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات الملك «أميرتى» بعد ست سنوات، فتمكن أحد أتباعه من الحكم وهو «نفوريت» مكونا الأسرة التاسعة والعشرين -الوطنية أيضا- والتي بلغت مدة حكمها حوالي عشرين عاما من ٢٩٨ ق.م إلى ٣٧٨ ق.م.

ثم الأسرة الثلاثين ، وهي أسرة وطنية أخرى حكمت من ٣٧٨ ق.م إلى ٣٤١ ق.م. وبذل ملوكها جهدا كبيرا فى البناء، كما إزدهر فى أعهدهم الفن وتقدمت التجارة.

وملوك هذه الأسرة هم :

«نقطانب الأول»، و«تيوس» و«نقطانب الثالث». وقد عملوا بهمة من أجل صالح البلاد داخليا، وكانوا فى كفاح مستمر خارجيا ضد الفرس الذين كانوا يتحينون أية فرصة للعودة إلى مصر، وقد عانوا فعلا بعد انتهاء هذه الأسرة، وكونوا الأسرة الحادية والثلاثين ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق.م إلى ٣٣٢ ق.م فقد استولى الإسكندر الأكبر على مصر، وطرد الفرس منها، وضمها إلى امبراطوريته الناشئة، وبذلك أسدل الستار على ثلاثين قرنا من تاريخ مصر

الفهرس

صفحة	الموضوعات
٣	المقدمة .
٥	غرائب وعجائب .
١٣	تخريب الآثار
١٤	رغبة جارفة .
٥٥	السفينة النيلية وما بها من آثار .
٧٤	نقوش وأبواب وأماكن واحتمالات .
١٠٧	الحياة الفرعونية .
١٠٧	١- المدن .
١١٩	٢- القصور .
١٢٣	٣- المنازل .
١٣٠	٤- الآثار .
١٣٥	الجنائزات .
١٣٥	الشيخوخة .
١٣٨	وزن الأعمال .
١٥٥	واجبات كاهن القرين .
١٥٩	التحنيط .
١٦٢	الدفن وتكوين موكب الجنازة .
١٦٣	عبور النيل .
١٦٥	الصعود إلى المقبرة .
١٦٦	وداعا أيتها المومياء .

تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
١٦٩	أوجه الجنائزية .
١٧١	العلاقة بين الأحياء والأموات .
١٧٧	سحر ملوك الفراعنة .
١٧٧	ملوك أهرام الجيزة .
١٧٧	خوفو .
١٧٧	خفرع .
١٧٨	منقرع .
١٧٨	ملوك وادى الملوك
١٧٨	تحتمس الأول .
١٧٨	حتشبسوت .
١٧٨	تحتمس الثالث .
١٧٩	امنحوتب الثالث .
١٧٩	توت عنخ آمون .
١٧٩	سيتى الأول .
١٨٠	رمسيس الثانى .
١٨٠	رمسيس الثالث .
١٨٠	رمسيس الحادى عشر .
١٨٠	أهم الاكتشافات حول مصر الفرعونية .
١٨٠	حجر رشيد .
١٨١	مخبة المومياوات الملكية .

تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
١٨١	مقبرة الملكة نفرتارى .
١٨١	مقبرة يويا وثويا .
١٨١	مقبرة توت عنخ آمون .
١٨١	أثاث الملكة والدة خوفو .
١٨٢	مقبرة أبناء رمسيس الثانى .
١٨٢	مدافن ملوك تانيس .
١٨٢	عائلة العمارة الملكية .
١٨٢	الفلك ودراسة أحوال السماء فى مصر القديمة .
١٨٥	التاريخ المصرى القديم .
١٨٧	تقسيم التاريخ الفرعونى .
١٨٨	العهد القديم العصر الثينى أو الطينى .
١٨٩	الفرعون وبلاطه .
١٩٠	الديانة .
١٩٠	الحكومة .
١٩١	النظام الضريبى .
١٩٣	نائب الملك وحكام المقاطعات .
١٩٣	تنظيم الدفاع عن البلاد .
١٩٣	الطبقات .
١٩٤	نظام الملكية .
١٩٤	عصر الدولة القديمة .

تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
١٩٤	الأسرة الأولى والثانية .
١٩٥	الأسرة الثالثة .
١٩٦	الأسرة الرابعة .
١٩٧	الأسرة الخامسة .
١٩٧	الأسرة السادسة .
١٩٨	انهيار الدولة القديمة .
١٩٩	مظاهر النهضة في الدولة القديمة .
٢٠٠	نظم القانون العام في عهد الدولة القديمة .
٢٠١	البلاط .
٢٠٢	الحكومة المركزية .
٢٠٣	المستشار .
٢٠٤	مجلس العشرة الكبار من الجنوب .
٢٠٥	الوزير .
٢٠٧	نائب الملك لمصر العليا .
٢٠٧	الجهاز الإداري المركزي للدولة .
٢٠٧	أ- بيت الملك .
٢٠٨	ب- الإدارة المالية .
٢٠٨	ج- إدارة العبادة الملكية .
٢٠٨	د- إدارة الأشغال العامة .
٢٠٨	هـ- إدارة الضرائب .

تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
٢٠٨	و- ادارة المياه.
٢٠٩	ز- الجيش .
٢٠٩	نظم القانون الخاص فى الدولة القديمة .
٢١٠	نظام الأسرة .
٢١٠	نظام المواريث .
٢١٠	الوصايا .
٢١١	نظام الرق .
٢١١	حق الملكية .
٢١٢	فترة الاضمحلال الاول (أو العصر الوسيط الاول).
٢١٢	الأسرتان السابعة والثامنة .
٢١٢	الأسرتان التاسعة والعاشره .
٢١٥	نظم القانون الخاص فى العصر الوسيط الاول .
٢١٥	نظام الطبقات .
٢١٦	نظام الأسرة .
٢١٧	نظام الميراث .
٢١٨	نظام الملكية .
٢١٩	حق الانتفاع .
٢١٩	عهد الدولتين الوسطى والحديثة .
٢٢٠	لمحة من تاريخ الدولتين الوسطى والحديثة .
٢٢٠	عهد الدولة الوسطى .

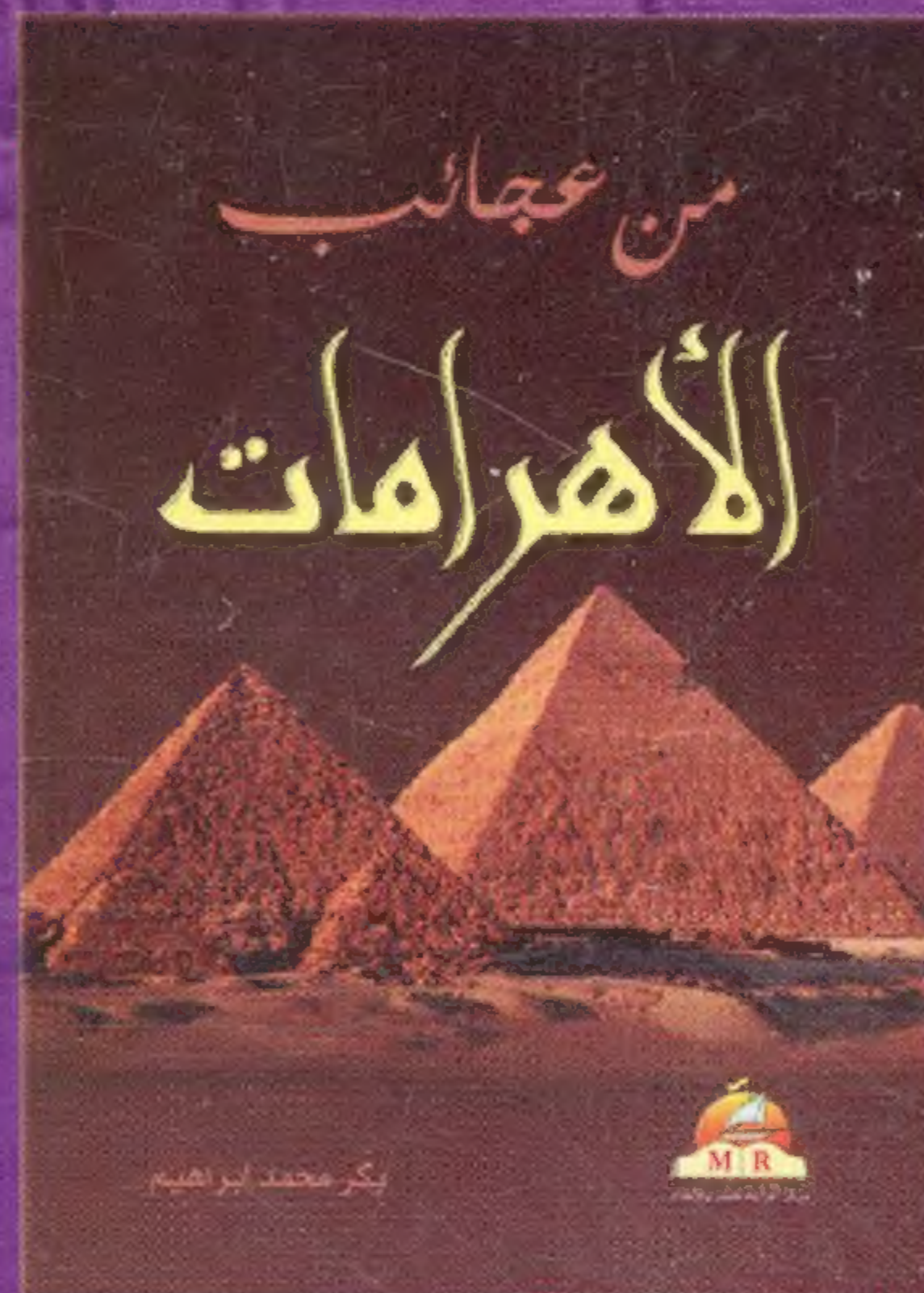
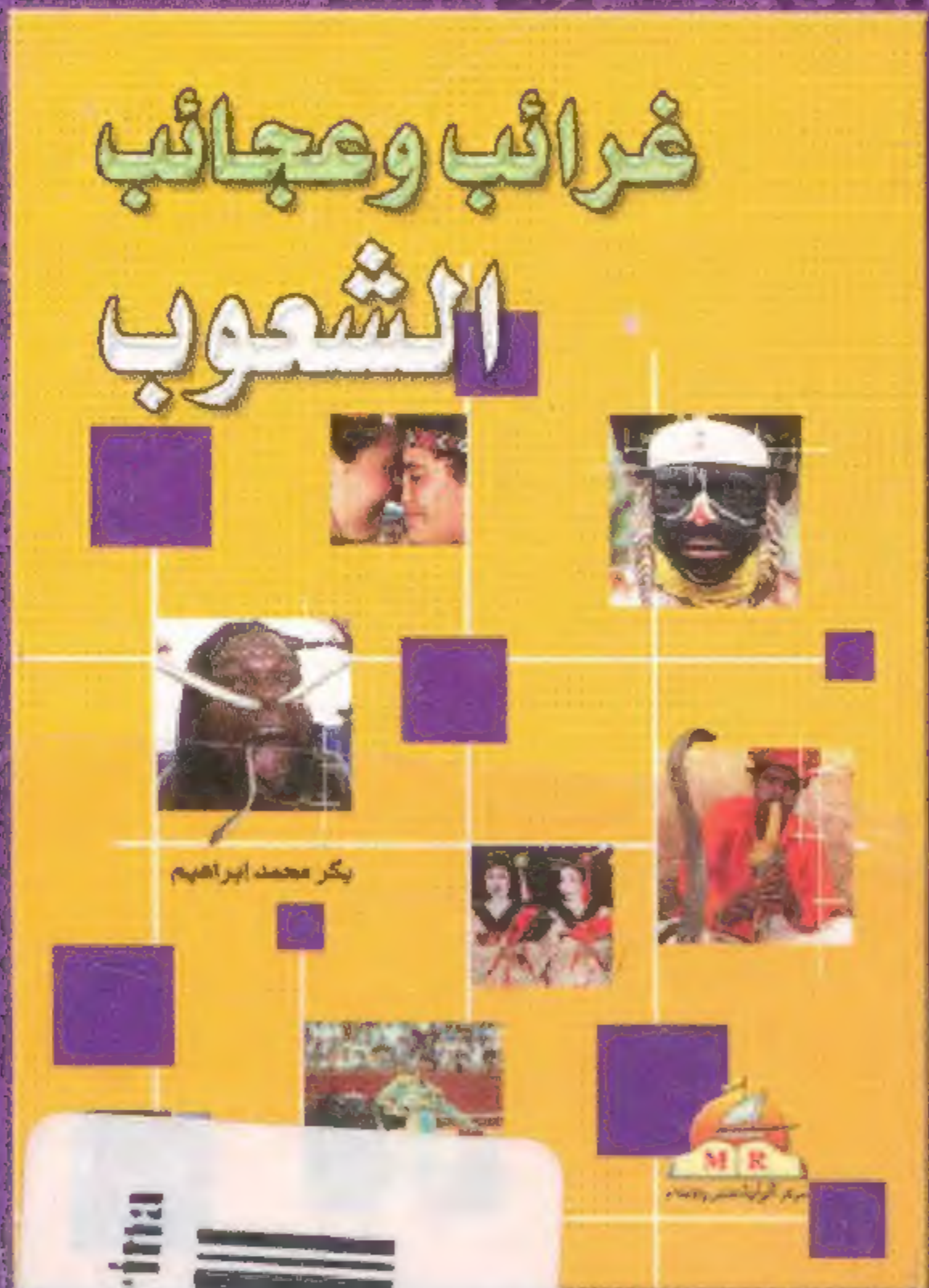
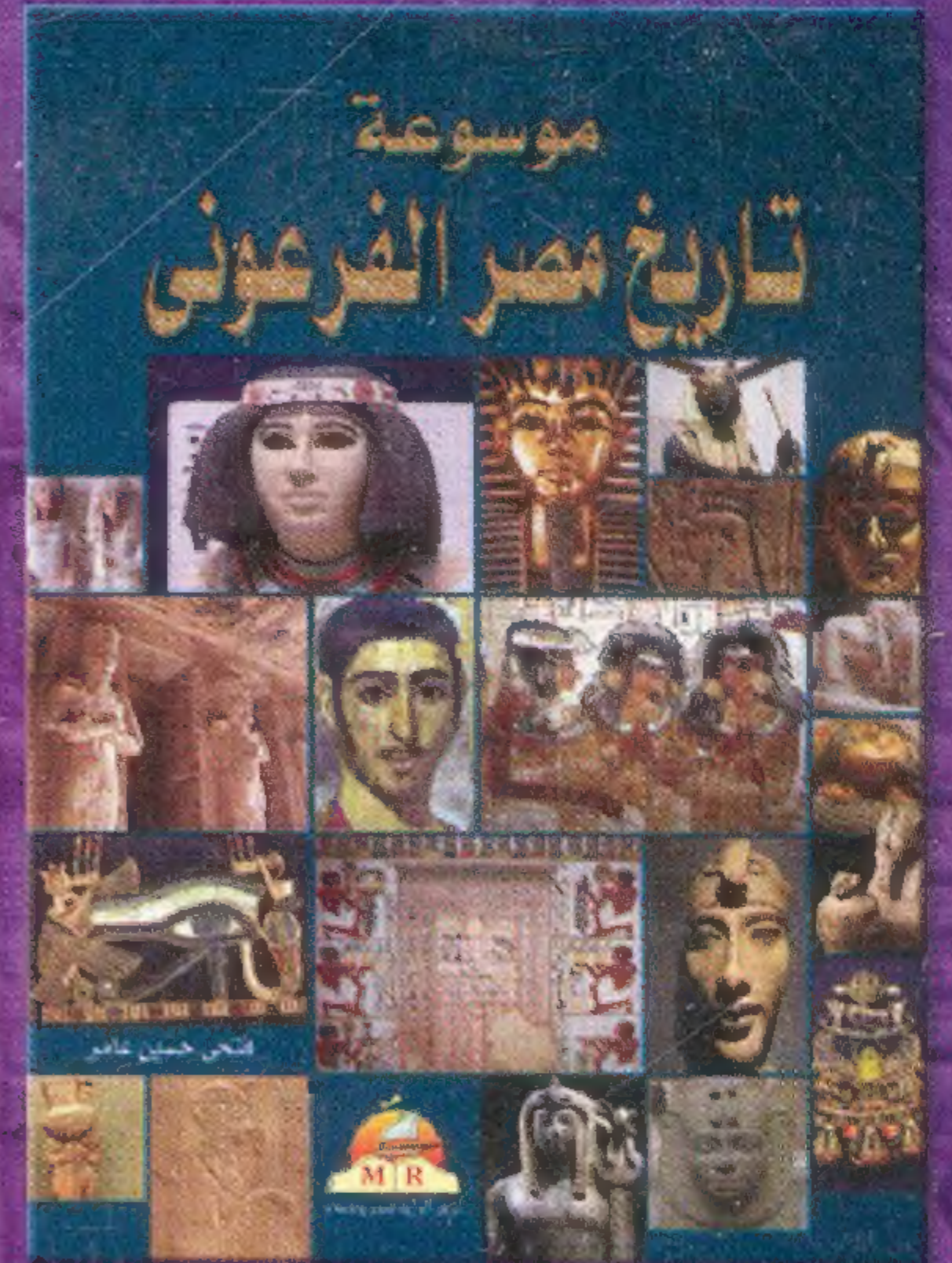
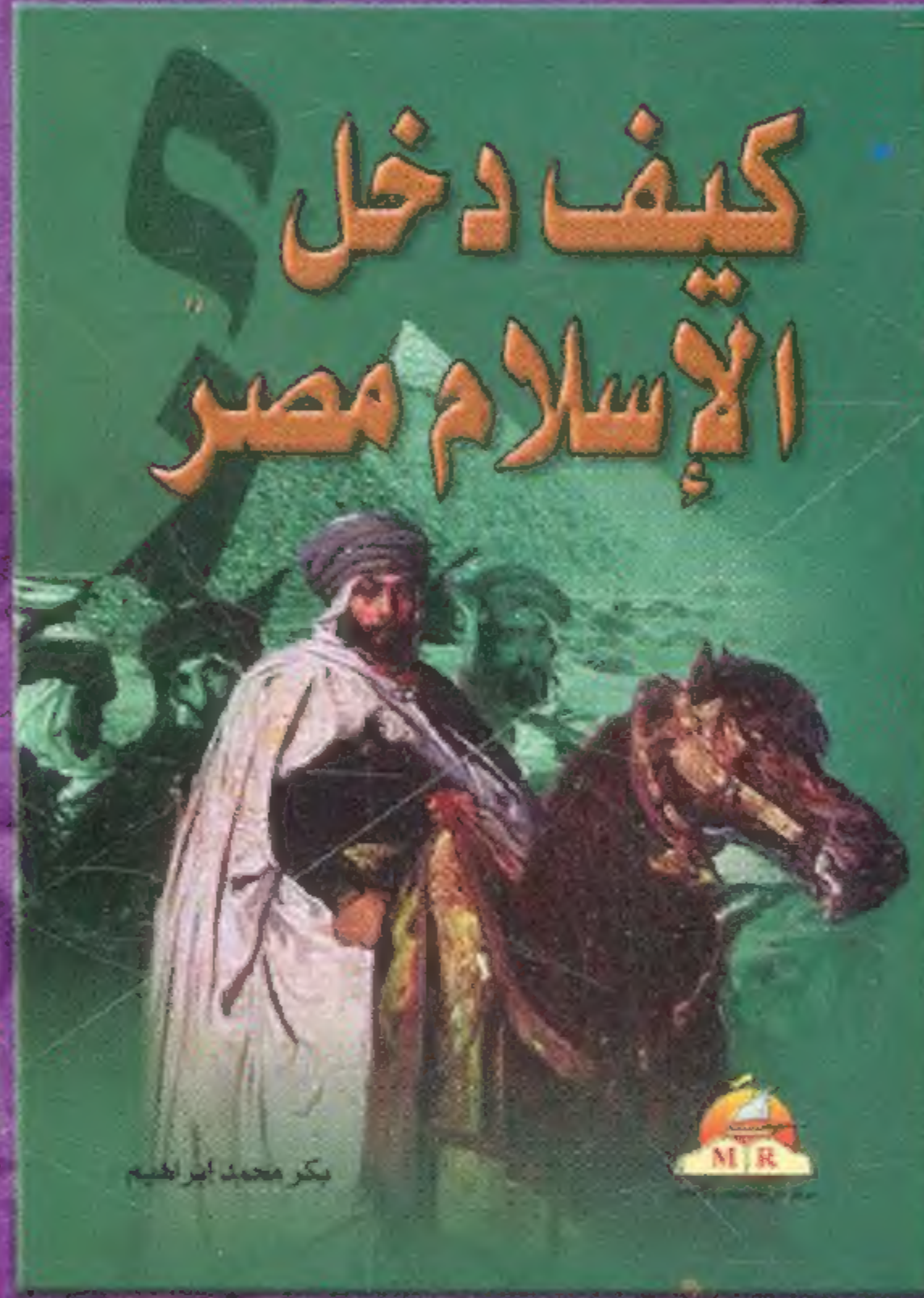
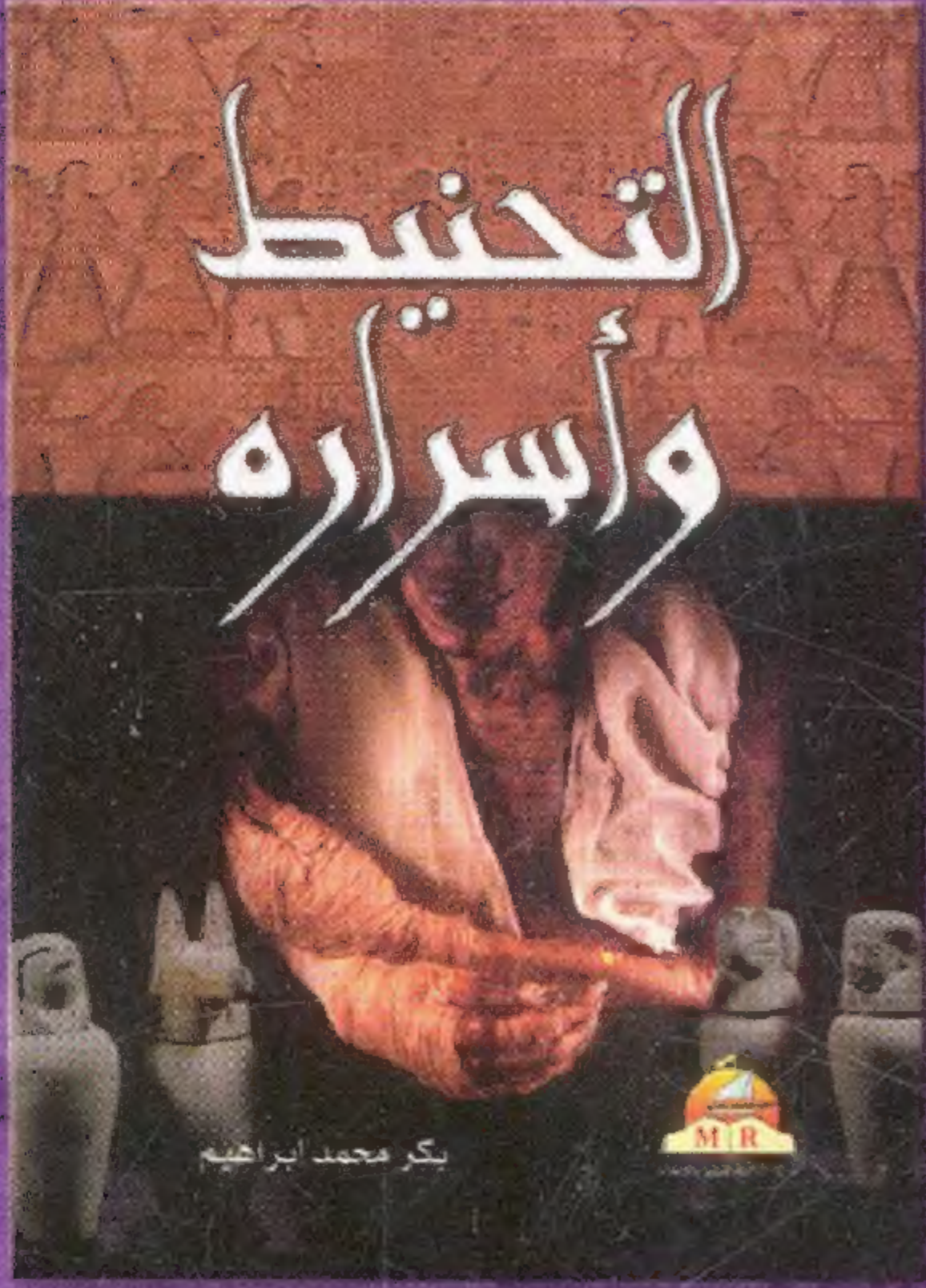
تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
٢٢١	الأسرة الحادية عشر.
٢٢١	الأسرة الثانية عشر .
٢٢٣	عصر الاضمحلال الثانى .
٢٢٣	الأسرتان الثالثة عشر والرابعة عشر .
٢٢٤	غزو الهكسوس .
٢٢٥	الأسرة السابعة عشرة .
٢٢٦	عهد الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية .
٢٢٦	الأسرة الثامنة عشر .
٢٢٩	الأسرة التاسعة عشر .
٢٣٢	الأسرة العشرون .
٢٣٣	نظم القانون العام فى الدولتين الوسطى والحديثة .
٢٣٣	الملك .
٢٣٤	الوزير .
٢٣٥	الجيش .
٢٣٦	الأقاليم الادارية .
٢٣٦	الادارات المركزية .
٢٣٧	بعض الملاحظات الختامية عن عهد الدولة الحديثة .
٢٣٨	نظم القانون الخاص .
٢٣٩	نظام الطبقات
٢٤٠	نظام الاسر .

تابع الفهرس

صفحة	الموضوعات
٢٤٠	الزواج .
٢٤١	حقوق المرأة .
٢٤١	نظام الرق .
٢٤٢	نظام المواريث .
٢٤٢	حق الملكية .
٢٤٣	نظام التعاقد .
٢٤٤	العصر المتأخر (أو عصر الاضمحلال الأخير) .
٢٤٥	لمحة تاريخية .
٢٤٥	الأسرة الحادية والعشرون .
٢٤٥	الأسرة الثانية والعشرون .
٢٤٦	الأسرة الثالثة والعشرون .
٢٤٧	الأسرة الرابعة والعشرون .
٢٤٧	الأسرة الخامسة والعشرون .
٢٤٨	الأسرة السادسة والعشرون .
٢٥٠	الغزو الفارسي .
٢٥٠	الأسرة الثامنة والعشرون المصرية .
٢٥٣	الفهرس .

صدر حديثاً عن مركز الرؤية للنشر والإعلام



مركز الرؤية للنشر والإعلام

٢٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى - القاهرة

تليفون : ٥٩٢٦٢١٩ - فاكس : ٧١٧٠٩٠٦

ص.ب ٢٥٨ رمز بريدى ١١٥١١ العتبة - القاهرة

alraya93@yahoo.com